تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثاني عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

بِقَدْرِ ٱلْكَدِّ تُكْتَسَبُ ٱلْمَعَالِيْ   وَمَنْ طَلَبَ ٱلْعُلاَ سَهِرَ ٱللَّيَالِيْ
عَجَباً لِلطَّالِبِ كَيْفَ يَنَامُ   وَكُلُّ النَّوْمِ عَلَىٰ ٱلطَّالِبِ حَرَامُ
مَنْ رَامَ ٱلْعِلْمَ بِغَيْرِ كَدٍّ   سَيُدْرِكُهَا حِيْنَ شَابَ ٱلْغُرَابُ

آخر

وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ   وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ

آخر

يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا   يَا رَبَّنَا بَارِكْ لَنَا فِيْ أَعْمَارِنَا
يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا   كُنْ وَافِياً لَنَا مُرَادَنَا
وَلِبَنِيْ تِسْعٍ وَخَمْسِيْنَ سَنَهْ   مَعْذِرَةٌ مَقْبُولَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حَمْداً لِمَنْ وَفَّقَنا بشرحِ كتابه، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّه وآله وأصحابه، صلاة وسلاماً مستمِرَّينِ إلى يوم حشره وحسابه.

أما بعدُ: فإني لما فرغْتُ من الجزء العاشر من الكتاب والقرآن الكريم.. ابتدَرْتُ إلى الشروع في الجزء الحادي عشر مسابقةً لِلمَنِيَّةِ، فقلت:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ
رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا
وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ
الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ
الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ
ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا
عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ
عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ
وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ

﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر من يستحقون اللوم والمؤاخذة من المعذرين، ومن لا سبيل إلى مؤاخدتهم ولا حرج عليهم.. ذكر في هذه الآيات ما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ بعد عودتهم.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] أنهم يصدر منهم الاعتذار.. أخبر أنهم سيؤكدون ذلك الاعتذار الكاذب بالحلف، وأن سبب الحلف هو طلبهم أن يعرضوا عنهم، فلا يلوموهم ولا يوبخوهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[3] أحوال العرب مؤمنيهم ومنافقيهم.. بيَّن في هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنيهم ومنافقيهم كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات.. أردف ذلك بذكر منازل أعلىٰ من منازلهم، وهي منازل السابقين من المهاجرين والأنصار، ثم ذكر بعدهم حال طائفة من المنافقين هي شر الجميع، مرنت على النفاق، وحذقت فنونه، وحال طائفة أخرىٰ بين المنزلتين خلطت سيء العمل بأحسنه، وهؤلاء يرجىٰ لهم التوبة والغفران من ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[4] شرح أحوال منافقي المدينة ثم أحوال

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

منافقي الأعراب، ثم بين أن في الأعراب من هو مخلص صالح، ثم بيَّن رؤساء المؤمنين من هم.. ذكر في هذه الآية أن منافقين حولكم من الأعراب وفي المدينة لا تعلمونهم؛ أي: لا تعلمون أعيانهم، أو لا تعلمونهم منافقين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما أخرجه ابن جرير بسنده أن عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك.. جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلىٰ الله، وصدقته حديثي، فقال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك، كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي، شرَّ ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ...﴾ الحديث، رجاله رجال الصحيح ونحوه في «صحيح البخاري» في ختام حديث كعب بن مالك في كتاب المغازي باب غزوة تبوك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما[(١)] أخرجه ابن جرير عن مجاهد قال: إنها نزلت في بني مقرن من مزينة الذين نزلت فيهم: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾. وقال[(٢)] عبد الرحمن بن معقل بن مقرن المزني: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا هذه الآية: يعني ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ...﴾ الآية، يريد الستة أو السبعة الإخوة علىٰ الخلاف في عددهم وبنيهم.

---

(١) لباب النقول. (٢) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: غزا رسول الله ﷺ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا، وندموا وأيقنوا بالهلاك، وقالوا: نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء، ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد، واللّهِ لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ففعلوا وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم، فرجع رسول الله ﷺ من غزوته، فقال: من هؤلاء الموثقون بالسواري؟. فقال رجل: هذا أبو لبابة، وأصحاب له تخلفوا عنك، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم. فقال: «لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ...﴾ الآية. فلما نزلت.. أطلقهم، وعذرهم وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم لم يذكروا بشيء، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، فجعل أناس يقولون هلكوا إذ لم ينزل عذرهم، وآخرون يقولون: عسىٰ الله أن يتوب عليهم حتىٰ نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه، وزاد: فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ كلام مستأنف[2] لبيان ما يتصدرون له عند العود إليهم. روي أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلاً، فلما رجع رسول الله ﷺ.. جاءوا يعتذرون إليه بالباطل، والخطاب لرسول الله وأصحابه؛ فإنهم كانوا يعتذرون إليهم أيضاً لا إليه فقط، وتخصيص الخطاب في قوله: ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ حيث لم يقل: قولوا، لما أن الجواب وظيفته فقط، وأنه متولي أمورهم ورئيسهم، وأما الاعتذار

---

(١) لباب النقول.

(٢) أبو السعود.

فكان له وللمؤمنين. ا هـ «أبو السعود».

وقيل: إنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ﷺ؛ أي: يعتذر هؤلاء المنافقون وهم بضعة وثمانون رجلاً كما مر آنفاً إليكم أيها الرسول والمؤمنون في التخلف عن الخروج معكم للغزو بالأعذار الكاذبة الباطلة ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوة تبوك ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلىٰ أولئك المنافقين المتخلفين عنكم المعتذرين إليكم. وإنما قال[1]: إليهم، ولم يقل إلىٰ المدينة؛ لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها. ثم أخبر الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ بما يجيب به عليهم فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾ إلينا عن تخلفكم عنا بما عندكم من الأعذار الباطلة؛ لأننا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: لن نصدقكم فيما تقولون من المعاذير أبداً، كأنهم ادعوا أنهم صادقون في اعتذارهم؛ لأن غرض المعتذر أن يصدَّق فيما يعتذر به، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار؛ لأننا ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى من أخباركم؛ أي: قد أعلمنا الله فيما سلف بعض أحوالكم مما في ضمائركم من الخبث والنفاق والمكر. وإنما قال: ﴿نَبَّأَنَا﴾ ولم يقل: نبأني؛ إيماءً إلىٰ أنه أمَره أن ينبىء بذلك أصحابه، ولم يكن هذا النبأ خاصاً به، كما أن اعتذارهم للجميع يقتضي أن يكونوا كلهم عالمين بما فضحهم الله به. وفي هذا من التشهير بهم والخزي لهم ما لا خفاء فيه ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَمَلَكُمْ﴾ أي: ويرى الله سبحانه وتعالى ويعلم ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد، هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه؟، فالتنفيس بالنسبة إلى عملهم لا إلى علم الله.

وقوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف علىٰ الاسم الشريف، ووسط مفعول الرؤية إيذاناً بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي يدور عليها الإثابة أو العقوبة والمعنىٰ[2]: وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد، وهو الذي سيدل إما علىٰ إصراركم علىٰ النفاق أو على التوبة والإنابة إلى ربكم، وأما أقوالكم فلا يعتد بها مهما وكدتموها بالأيمان، فإن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم، وشهد لكم

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

عملكم بصلاح طويتكم. . فإن الله يتقبل منكم توبتكم، ويغفر لكم حوبتكم، ويعاملكم الرسول بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا، وصدقوا، وشهدت لهم أعمالهم بذلك وإن أنتم أبيتم إلا الإصرار على النفاق والاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التي تحلفونها. . فسيعاملكم الرسول بما أمره الله به من جهادكم، والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار المجاهرين.

وفي هذا: إيماء إلى الرغبة في توبتهم حين سنوح الفرصة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾؛ أي: ثم ترجعون يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: إلى عالم ما غاب، وخفي عنا من ضمائركم وغيرها ﴿وَ﴾ عالم ﴿الشهادة﴾؛ أي: عالم ما شوهد، وظهر لنا من ظواهركم وغيرها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم عند وقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، ويجازيكم عليه بما تستحقون، وهو ما أوعدكم به في كتابه الكريم في هذه السورة وفي غيرها: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

ولا يخفى ما في قوله[1]: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ من التهديد، والتخويف الشديد لما اشتمل عليه من وضع الظاهر موضع المضمر، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم، مما يكتمونه، ويتظاهرون به، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه. ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤوا به من الأعذار الباطلة بالحلِف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو وغرضُهم من هذا التأكيد: هو أن يُعرِض المؤمنون عنهم، فلا يوبخونهم، ولا يؤاخذونهم بالتخلف، ويظهرون الرضا عنهم، كما يفيده ذكر الرضا من بعد فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾؛ أي: سيؤكدون لكم اعتذارهم بما يحلفون به من كاذب الإيمان، ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ من سفركم ورجعتم إليهم ﴿لتعرضوا عن﴾ العتب عليـ﴿هم﴾ والتوبيخ لهم على قعودهم مع الخالفين، من العجزة والنساء والأطفال، وعلى البخل بالنفقة والمال، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأعرضوا عنهم، إعراضَ الإهانة

---

(١) الشوكاني.

والتحقير لا إعراض الصفح وقبول العذر.

روى مقاتل أن النبي ﷺ قال حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم». قال أهل المعاني: إن هؤلاء المنافقين طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت. ثم ذكر العلة في سبب الإعراض عنهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ أي: إن بواطنهم خبيثة نجسة، وأعمالهم قبيحة؛ أي: إن في نفوسهم قذراً معنوياً يجب الاحتراس منه؛ خوف سريان عدواه وميل النفوس إليه، كما يحترز صاحب الثوب النظيف من الأقذار الحسية التي ربما تصيبه، إذا لم يحتط لها، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾؛ أي: ومسكنهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ ومصيرهم النار، يعني: وكفتْهم النارُ عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الخبيثة؛ أي: يجزون بها جزاء كسبهم، وهذا من تمام التعليل، فإن من كان من أهل النار.. لا يجدى فيه الدعاء إلى الخير؛ أي: ومرجعهم الأخير نار جهنم؛ جزاء لهم بما كسبوا في الدنيا من أعمال النفاق وغيرها، مما دنس نفوسهم، وزادهم رجساً على رجسهم. ثم زاد في تأكيد نفاقهم فقال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلف لكم هؤلاء المنافقون ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بالحلف، وتستديموا معاملتهم بظاهر إسلامهم، وهذا أهم الأغراض لديهم، فلاحظّ لهم من إظهار الإسلام سواه، ولو كان إسلامهم عن يقين واعتقاد.. لكان غرضهم الأول، إرضاء الله ورسوله. ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾؛ أي: فإن رضيتم عنهم، أيها المؤمنون بما حلفوا لكم، وقبلتم عذرهم، وساعدتموهم على ما طلبوا.. فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعاً. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعته، وطاعة رسوله، بما في قلوبهم من النفاق، والشك؛ أي: فإن الله تعالى ساخط عليهم، بسبب فسوقهم، وخروجهم عن أمره ونهيه.

وفي هذا: إيماء إلى نهي المخاطبين عن الرضا عنهم، والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة، وأن من يرضى عنهم، من المؤمنين.. يكون فاسقاً مثلهم، محروماً من رضوان الله. وأن من يتوب منهم ويُرضي الله ورسوله.. يخرج من حدود سخطه، ويدخل في حظيرة مرضاته، ولا يعد حينئذٍ فاسقاً.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال المنافقين بالمدينة.. ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم، ومن نفاق غيرهم؛ لأنهم أقسى قلباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً وأبعد عن سماع كتب الله، وما جاءت به رسله، فقال: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾؛ أي: جنس أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفۡرًا﴾ مجاهراً ﴿وَنِفَاقًا﴾ مبطناً من أهل الحضر، لتوحشهم، واستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم، وبعدهم عن أهل العلم ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ وأحق بـ ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ﴾ وتكاليف وفرائض وأحكام ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ محمد ﷺ، وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾؛ إذ ليس كلهم كما ذكر، على ما ستحيط به خبراً، كما ذكره «أبو السعود»: أي: إن طبيعة البداوة اقتضت أمرين:

١ ـ أن كفارهم ومنافقيهم أشدّ كفراً ونفاقاً من أمثالهم، من أهل الحضر، ولا سيما، من يقيم منهم في المدينة، فهم أغلظ طباعاً، وأقسى قلوباً؛ لأنهم أفنوا جلَّ أعمارهم في رعي الأنعام، وحمايتها من ضواري الوحوش، إلّا أنهم محرومون من العلوم الكسبية، والآداب الاجتماعية.

٢ ـ أنهم أحق وأحرى من أهل الحضر، بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، من الهدى والبينات في كتابه، وما أتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود؛ تارة بالقول، وأخرى بالفعل، وكان صحابته في المدينة وما حولها، يتلقون عنه الكتاب حين نزوله، ويشهدون سنته في العمل به، ويرسل عمّاله إلى البلاد التي افتتحت، يبلغون الناس القرآن، ويحكمون به وبسنّة رسوله المبينة له، وكلّ هذا لم يكن مستطاعاً لأهل البوادي، ومن ثم كان الجهل فيهم أكثر لحال المعيشة البدوية.

روى أبو داود والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعاً: «من بدا جفا، ومن اتبع الصّيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعداً». ذاك أن السلاطين قلما يرضون عمن يصارحهم القول، ويؤثرهم بالنصح، ولا يزداد منهم قرباً، إلا المراؤون، الذين يعينونهم على الظلم، ويثنون عليهم بالباطل.

فإن قلت: وصفُ العرب بأنهم جاهلون بذلك، ينافي صحةَ الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ؟

قلتُ: لا منافاة؛ إذ وصفهم بالجهل إنما هو في أحكام القرآن ـ كما أشرنا في الحل ـ لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام، بل في بيان معاني الألفاظ، لأن القرآن والحديث جاءا بلغتهم ا هـ «كرخي».

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض من فرائضه؛ أي: واسع العلم بشؤون عباده، وأحوالهم، من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق، تام الحكمة فيما شرعه لهم، وفي جزائهم، من نعيم مقيم، أو عذاب أليم. ثم قسم سبحانه الأعراب إلى قسمين:

القسم الأول منهما: ما ذكره بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي يعد ﴿مَا يُنفِقُ﴾؛ أي: يصرفه في سبيل الله، ويتصدق به، ﴿مَغْرَمًا﴾؛ أي: غرامةً وخسراناً؛ إذ لا يحتسبه قربة عند الله، ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفق رياءً، أو تقيةً، والمغرم التزام ما لا يلزم؛ أي: ومن الأعراب ناس كانوا ينفقون أموالهم في الجهاد رياءً وتقيةً، ويعدّون ذلك من المغارم التي يجب على المرء أداؤها طوعاً أو كرهاً، لدفع المكروه عن أنفسهم، أو قومهم، ولا منفعة لهم فيها، لا في الدنيا، وهو واضح، ولا في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث. قال الضحاك: وهم بنو أسد وغطفان.

﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾؛ أي: ينتظر ﴿بِكُمُ﴾ أيها المؤمنون، ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾؛ أي: دوائر الزمان، وصروفه، وتقلباته عليكم؛ أي: ينتظر أن تتقلب الأمور عليكم، بموت الرسول ﷺ، فينعدم الإسلام بموته، أو بغلبة المشركين عليكم، فتذهب قوتكم، فيتخلص من إعطاء الصدقة، والدوائر، جمع دائرة وهي، الحالة المنقلبة عن النعمة، إلى البليّة، وأصلها ما يحيط بالشيء، ودوائر الزمان، نوبه وتصاريفه ودوله، وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه. والمعنى؛ أي: وينتظرون أن تحُلَّ بكم نوائب الزمان، وأحداثه التي تدور بالناس، وتحيط بهم، فتبدل قوتكم ضعفاً وانتصارَكم هزيمةً، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم، إذ يستغنون عن إظهار

الإسلام نفاقاً، وقد كانوا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما أعيتهم الحيل.. صاروا ينتظرون موت النبي ﷺ؛ ظناً منهم، أن الإسلام يموتُ بموته. ثم دعا سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أولئك الأعراب، الذين يتربصون بكم الدوائر، لا على غيرهم، ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: دائرةُ البلاء والحُزن والمصيبة والعذاب، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: عليهم الدائرةُ السيئة، والمصيبة الشديدة، والعاقبة القبيحة؛ والمعنى: أنّ عليهم وحدهم الدائرة السوء، تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، وليس للمؤمنين عاقبة، إلّا ما يسرهم من نصر الله، وتوفيقه لهم، وما يسوء أعداءهم، من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو(١): ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ هنا وفي سورة الفتح ثانية بالضم. وباقي السبعة بالفتح. فالفتح مصدر قال الفراء: سوأته سوأً ومساءة وسوائية. والضمُّ الاسم وهو الشر والعذاب. والفتح ذم الدائرة. وهو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، وُصِفَتْ الدائرة بالمصدر، كما قالوا: رجل سوء، في نقيض رجل صدق. وقال المبرد: ﴿السوء﴾ بالفتح الرداءة، ولا يجوز ضم السين في رجل سوء، قاله أكثرهم، وقد حُكيَ بالضم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه، مما يعبر عن شعورهم، واعتقادهم في نفقاتهم؛ إذ تحدثوا بذلك فيما بينهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه في سرائرهم، وسيحاسبهم على ما يسمع ويعلم، من قول وفعل، ويجزيهم به.

وبعد أن بين سبحانه القسم الأول من الأعراب، وهم المنافقون.. ذكر **القسم الثاني منهما**: وهم المؤمنون الصادقون. ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ في السر والعلانية؛ أي: ومن الأعراب من يؤمن بالله، ويثبت له القدرة، وكمال التصرف في الكون، ويؤمن بمجيء اليوم الآخر، الذي تجازى فيه كل نفس بما كسبت. قال مجاهد: هم بنو مقرن بن مزينة، وهم الذين قال فيهم:

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾. ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾؛ أي: ويجعل ما يتصدق به ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، أي: سبباً لقربه عند الله تعالى، ووسيلة لحصول مرضاته تعالى له، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ ﷺ معطوف على قربات؛ أي: ويتخذ ما ينفقه سبباً لحصول دعواته ﷺ له؛ لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين، بالخير والبركة ويستغفر لهم؛ أي: يقصد بصدقاته، حصول مرضاة الله تعالى له، وحصول دعواته ﷺ له، وقال أبو البقاء: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ معطوف على ما ينفق تقديره، ويتخذ صلوات الرسول قربات عند الله. انتهى. والقربات[1]. جمع قربة، وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى، تقول منه قربت لله قرباناً. والجمع قرب وقربات، والمعنى، أنه يجعل ما ينفقه سبباً لحصول القربات، ﴿عند الله و﴾ سبباً لـ ﴿صلوات الرسول﴾؛ أي: لدعوات الرسول لهم.

ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا القسم من الأعراب، تقرباً إلى الله مقبول، واقع على الوجه الذي أرادوه فقال: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إن نفقتهم، ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ﴾ إلى الله في الدرجات، ثم فسر سبحانه القربة بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى، ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾؛ أي: في جنته التي هي محل الرحمة الواسعة الدائمة، أي[2]: وقد بين الله تعالى جزاءهم، على ما انطوت عليه نفوسهم، من صدق الإيمان وإخلاص النية في الإنفاق في سبيل الله، فأخبر بقبول نفقتهم، وإثابتهم عليها، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ﴾؛ أي: ألا إن تلك النفقة التي اتخذت لهم، قد تقبلها الله، وأثاب عليها بما وعد به في قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾؛ أي: سيرحمهم الله تعالى برحمته الخاصة بمن رضى عنهم، وهي هدايتهم إلى الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى جنات النعيم. والمراد بإدخالهم في الرحمة؛ أن تكون محيطة بهم شاملة لهم، وهم مغمورون فيها وهذا أبلغ في إثباتها لهم من مثل قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾. والسين في ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾، للدلالة على تحقق الوقوع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ لسيئاتهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، حيث وفقهم لهذه الطاعات؛ أي: إنه تعالى، واسع

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

المغفرة والرحمة، لمن يخلصون في أعمالهم، فهو يغفر لهم، ما فرط منهم من ذنب، أو تقصير، ويرحمهم بهدايتهم، إلى خير العمل، وحسن المصير. وهذا وعد منه تعالى لهم بواسع الرحمة والغفران، كما أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، تهديد للأولين، عقب الدعاء عليهم.

وقرأ ورش[1]: ﴿قُرُبة﴾ بضم الراء، وباقي السبعة: بالسكون، وهما لغتان، ولم يختلفوا في قربات بالضم، فإن كان جمع قربة.. فجاء بالضم على الأصل في الوضع وإن كان جمع قربة بالسكون.. فجاء بالضم إتباعاً لما قبله كما قالوا: ظلمات في جمع ظلمة. وهذا القسم الأخير قال[2] مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة. وقال الكلبي: هم أسلم وغفار وجهينة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة» فقال رجل: خابوا وخسروا، قال: «نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة» متفق عليه.

وفي رواية أن الأقرع بن حابس، قال للنبي ﷺ: إنما تابعك سراقُ الحجيج، من أسلم وغفار ومزينة، وأحسبه قال: وجهينة، فقال النبي ﷺ: أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة، وأحسبه قال: وجهينة خيراً من بني تميم، وبني عامر وأسد وغطفان قال: خابوا وخسروا، قال: «نعم».

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها». متفق عليه. زاد مسلم في رواية له: «أما إني لم أقلها لكنْ الله قالها». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي، ليس لهم مولى دون الله ورسوله»، متفق عليه. ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أصناف الأعراب.. ذكر المهاجرين والأنصار، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة، وأن منهم التابعين لهم، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إلى الإسلام

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الخازن.

والإيمان ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ في الهجرة، والنصرة حالة كونهم، ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾؛ أي: من الذين هاجروا من مكة إلىٰ المدينة، ﴿و﴾ حالة كونهم من، ﴿الأنصار﴾؛ أي: من الذين نصروا النبي ﷺ، وآووه، وهم أهل المدينة، من الأوس والخزرج، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾؛ أي: والذين اتبعوا السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، في الهجرة والنصرة حالة كونهم ملتبسين، ﴿بِإِحۡسَٰنٍ﴾؛ أي: بعمل صالح ونية صادقة، قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار، سوى السابقين الأولين، فعلى هذا القول، يكون الجميع من الصحابة. وقيل: هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار، في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة، وخبر المبتدأ، قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: أكرمهم الله تعالى بقبول طاعاتهم، وأعمالهم الحسنة، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ سبحانه وتعالى، بما أفاض عليهم من نعمه الدينية والدنيوية.

واختلف العلماء[1] في السابقين الأولين من المهاجرين. قيل: هم الذين صلوا إلىٰ القبلتين، وهو قول سعيد بن المسيب وطائفة. وقيل: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وهي بيعة الحديبية، وهو قول: الشعبي، أو هم الذين شهدوا بدراً، وهو قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار. ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها. قال أبو منصور البغدادي: أجمع أصحابنا على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون منهم، ثم البدريون، ثم أصحاب أُحُدْ ثمَّ أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

وأما السابقون من الأنصار[2]: فهم الذين بايعوا رسول الله، ﷺ، ليلة العقبة الأولى، وكانوا ستة أنفار، ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل، وكانوا اثني عشر رجلاً، ثم أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين رجلاً، فهؤلاء سباق الأنصار. ثم بعث رسول الله، ﷺ، مصعب بن عمير إلى أهل المدينة، يعلمهم القرآن. فأسلم على يده خلق كثير، من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة، وذلك قبل أن يهاجر رسول الله، ﷺ إلى المدينة.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

والحاصل[1]: أن الله سبحانه وتعالى، ذكر في هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هي خيرها:

١ ـ السابقون الأولون من المهاجرين، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين، ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا يمكنون أحداً من الهجرة متى كان ذلك في طاقتهم، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم، إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا في ذلك الوقت.. كانوا من المؤمنين الصادقين، وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة، ثم العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة.

٢ ـ السابقون الأولون من الأنصار، وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة، في منى في المرة الأولى، سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة، وفي المرة الثانية وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين.

٣ ـ الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة، حال كونهم محسنين، في أفعالهم وأقوالهم فإذا اتبعوهم في ظاهر الإسلام.. كانوا منافقين مسيئين، غير محسنين في هذا الاتباع وإذا تبعوهم محسنين في بعض أعمالهم ومسيئين في بعض.. كانوا مذنبين.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾؛ أي: هؤلاء المذكورون جميعاً رضي الله سبحانه وتعالى عنهم في إيمانهم وإسلامهم، فقبل طاعتهم، وتجاوز عن زلاتهم، وبهم أعز الإسلام، ونكل بأعدائه من المشركين، وأهل الكتاب، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من الشرك، وهداهم من الضلال، وأعزهم بعد الذل، وأغناهم بعد الفقر.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾ معطوف على رضي؛ أي: وهيأ لهؤلاء المذكورين، من الطبقات الثلاث في الآخرة، ﴿جَنَّٰتٖ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجۡرِي﴾ وتسيل ﴿تَحۡتَهَا﴾؛ أي: تحت أشجارها وغرفها. وقرأ ابن كثير: ﴿من تحتها﴾ بزيادة

---

(١) المراغي.

﴿من﴾ ومعلوم أن قراءته الصلة، فليتنبه القارىء إذا قرأ بزيادة منْ لصلة الميم في المواضع الثلاثة، وهي اتبعوهم وعنهم وأعدّ لهم، لئلا يقع في التلفيق ا هـ شيخنا ذكره «الجمل».

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: ماكثين في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: زمناً لا نهاية له ولا انقضاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الرضوان، والجنات؛ أي: نيل ذلك هو، ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم، الذي لا فوز وراءه.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه قرنين، أو ثلاثة. متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً ـ وفي رواية: أحدكم ـ أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». متفق عليه.

والمعنى(١): لو أن أحداً، عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله.. ما بلغ هذا القدر اليسير التافه، من أعمال الصحابة، وإنفاقهم؛ لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة.

قال أبو حيان(٢): ولما بين الله سبحانه وتعالى، فضائل الأعراب المؤمنين المتصدقين، وما أعدّ لهم من النعيم.. بين حال هؤلاء السابقين، وما أعد لهم ـ وشتان ما بين الإعدادَين والثناءين ـ هناك قال: ألا إنها قربة لهم، وهنا رضي الله عنهم، وهناك: سيدخلهم الله في رحمته، وهنا: وأعدَّ لهم جنات تجري، وهناك ختم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ا هـ.

وقرأ(٣) عمر بن الخطاب والحسن وقتادة وعيسى الكوفي وسلام وسعيد بن

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

أبي سعيد وطلحة ويعقوب: ﴿والأنصار﴾ برفع الراء، عطفاً على والسابقون. فيكون الأنصار جميعهم، مندرجين في هذا اللفظ، وعلى قراءة الجمهورة: وهي الجر، يكونون قسمين: سابق أول، وغير أول، ويكون المخبر عنهم بالرضا، سابقيهم.

وقرأ ابن كثير: ﴿من تحتها﴾ بإثبات من الجارّة، وهي ثابتة في مصاحف مكة، وباقي السبعة، بإسقاطها على ما رسم في مصاحفهم. وعن عمر بن الخطاب، أنه كان يرى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ بغير واو صفة للأنصار، حتى قال له زيد بن ثابت: إنها بالواو، فقال: ائتوني بأُبَيّ، فقال: تصديق ذلك في كتاب الله، في أول الجمعة، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ وأوسط الحشر، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وآخر الأنفال، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾. وروي أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو، فقال: من أقرأك، فقال: أبي، فدعاه، فقال: أقرأنيه رسولُ الله ﷺ ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا وُفِّقْنَا وقْعة لا يبْلُغُها أحدٌ بعدنا.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى، كمال إيمان تلك الطبقات الثلاث، ورضاه عنهم، بين حال منافقي أهل المدينة ومن حولها، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أيها المؤمنون، وهو خبر مقدم؛ أي: وممن حول بلدتكم؛ يعني المدينة، أي: وممن هم نازلون حول المدينة وخارجها، قريباً منكم حال كونهم ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ أي: من سكان البوادي أقوام ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي: مبطنون بالكفر، مظهرون بالإسلام. قال البغوي والواحدي: هم من قبائل جهينة ومُزينة وأشجع وأسلم وغفار، نازلون حول المدينة، وأشعر بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ حيث عبر بمن التبعيضية، أن فيهم مؤمنين صادقين، دعا لهم النبي، ﷺ، ومدحهم. فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار، موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيره». وعنه أيضاً: أنه ﷺ قال: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما إني لم أقلها، لكن قالها الله تعالى».

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ من الأوس والخزرج؛ أي: وممن هم نازلون في جوف المدينة، وداخلها أقوام ﴿مَرَدُوا۟﴾؛ أي: ثبتوا واستمروا ومرنوا ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ولجوا فيه وأبوا غيره. وقال ابن زيد: أقاموا عليه، ولم يتوبوا منه كعبد الله بن أبي، وأصحابه، ثبتوا على النفاق، ولم يتوبوا منه؛ أي: وكذلك من أهل المدينة نفسها، ناس منافقون من الأوس والخزرج، سوى من أعلم الله رسوله بهم، في هذه السورة، بما صدر منهم، من أقوال وأفعال تنافي الإيمان. هؤلاء الذين كانوا حول المدينة، وهؤلاء الذين كانوا من أهل المدينة، مرنوا على النفاق وحذقوه، حتى بلغوا الغاية في إتقانه، فلا يشعر أحد نفاقهم، إذ هم يتقون جميع الأمارات، والشبه التي تدل عليه. وجملة قوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾؛ أي: لا تعلم، أنت يا محمد، نفاقهم بفطنتك، ودقيق فراستك، لحذقهم في التقية، وتباعدهم عن مثار الشبهات مبينة للجملة الأولى وهي ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾؛ أي: ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ومهروا فيه، حتى خفي أمرهم عليك يا محمد، فكيف سائر المؤمنين، والمراد عدم علمه، ﷺ بأعيانهم، لا من حيث الجملة، فإنّ للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ، وجملة قوله: ﴿نحن نعلمهم﴾ بأعيانهم لأنه لا تخفى علينا خافية وإن دقت.. مقررة لما قبلها، لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق، ورسوخهم فيه، على وجه يختفي على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه، لعلمه بما يخفى، وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر.

وهؤلاء أخفى نفاقاً ممن قال الله فيهم: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾. وهؤلاء لم يعلمه الله بأعيانهم، ولا فضحهم بأقوال قالوها، ولا بأفعال فعلوها، كما فضح غيرهم، في هذه السورة، لأنهم يتحامون ما يكون شبهة في إيمانهم، وضررهم مقصور عليهم، لا يعدوهم إلى سواهم.

والحكمة في إخبارنا بحالهم، أن يعلموا هم أنفسهم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذروا أن يفضحهم الله، كما فضح غيرهم، وليتوب منهم، من يتوب قبل أن يحل بهم ما أوعدهم به ربهم بقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾؛ أي: سنعذب هؤلاء المنافقين في الحياة الدنيا ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: ما يصيبهم به من

المصائب في الأموال، والأولاد، وانتظار الفضيحة بهتك أستارهم، وثانيتهما: آلام الموت، وزهوق أنفسهم، وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم، وأدبارهم في ذلك الحين، ﴿ثُمَّ﴾ بعد تعذيبنا إياهم في الدنيا مرتين، ﴿يُرَدُّونَ﴾؛ أي: يرجعون يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إلى عذاب جهنم، وبئس المصير، وبانضمامه للمرتين، يصير عذابهم ثلاث مرات، مرتين في الدنيا، ومرة في الآخرة. وقيل: مرة في الدنيا، ومرة في القبر، ومرة في الآخرة.

والخلاصة: أنهم يعذبون في الدنيا، بالعذاب الباطن بتوبيخ الضمائر، وعذاب الخوف من الفضيحة على رؤوس الأشهاد في الظاهر، ثم عذاب النار وبئس القرار. فإن قلت: كيف نفى عنه علمه بحال المنافين هنا، وأثبته في قوله: ولَتَعرِفَنَّهُم في لحن القول.

فالجواب: أن آية النفي نزلت قبل آية الإثبات، فلا تنافي ا هـ «كرخي».

﴿و﴾ من أهل المدينة أقوام، ﴿آخرون﴾ سوى المذكورين، ليسوا من المنافقين، ولا من السابقين، ﴿ٱعْتَرَفُواْ﴾؛ أي: أقروا، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي هي تخلفهم عن غزوة تبوك، وأظهروا الندامة عليها، ﴿خَلَطُواْ﴾؛ أي: جمعوا ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو ما سبق لهم في الإسلام، من الأعمال الصالحة، وخروجهم مع رسول الله، ﷺ في سائر الغزوات، ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو تخلفهم عن غزوة تبوك؛ أي: خلطوا كل واحد من العمل الصالح، والعمل السيء، بالآخر، وهم أقوام من المسلمين، تخلفوا عن رسول الله، ﷺ، في غزوة تبوك بلا عذر ولا استئذان، ثم ندموا على تخلفهم، وربطوا أنفسهم بسواري المسجد، كأبي لُبابة وأصحابه، كما مر في أسباب النزول، أي: وهناك[1] فريق آخر، ممن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة، ليسوا منافقين، ولا من السابقين الأولين، بل من المذنبين الذين خلطوا الصالح من العمل، بالسيء منه، والسيء بالصالح، فلم يكونوا من الصالحين الخلص، ولا من المنافقين، فهم قد آمنوا وعملوا الصالحات واقترفوا بعض السيئات، كالذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح، ولم

---

(١) المراغي.

يستأذنوا كاستئذان المرتابين، ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين، ثم كانوا حين قعودهم، ناصحين لله ورسوله، شاعرين بذنوبهم، خائفين من ربهم، وقد بين سبحانه حالهم بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ أي: حقق الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾؛ أي: أن يقبل توبتهم، المفهومة من قوله: اعترفوا بذنوبهم.

قال الزمخشري: فإن قلت[1]: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً، فما المخلوط به؟

قلت: كل واحد مخلوط ومخلوط به؛ لأن المعنى، خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بالآخر، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطاً، واللبن مخلوطاً به. وإذا قلته: بالواو، جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ا هـ.

والمعنى: أنهم محلُّ الرجاء لقبول توبتهم، بتوفيقهم للتوبة الصحيحة، التي هي سبب المغفرة والرحمة، وإنما يكون ذلك بالعلم بقبح الذنب، وسوء عاقبته، وتوبيخ الضمير، حين تصور سخط الله، والخوف من عقابه، ثم الإقلاع عنه بباعث هذا الألم، والعزم على عدم العود إلى اقترافه، والعزم على العمل بضده، ليمحو أثره من نفسه.

ثم علل هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبته؛ أي: إنه تعالى يقبل توبتهم؛ لأنه كثير المغفرة للتائبين، واسع الرحمة للمحسنين. وفي معنى الآية قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال جماعة من العلماء: إن هذه الآية، أرجى آية في القرآن، في توقع رحمة الله، للمذنبين الذين يجترحون السيئات، ثم يتوبون إلى ربهم، ويقلعون عن ذنوبهم.

---

(١) الفتوحات.

ولما أظهر هؤلاء التوبة عن تخلفهم عن غزوة تبوك، وهم أقروا بأن السبب المؤدي لذلك التخلف حبهم للأموال.. أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يأخذ منهم الزكوات الواجبة عليهم، فقال: ﴿خُذۡ﴾ يا محمد، ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ أي: من أموال هؤلاء، ومن أموال غيرهم، من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها، من نقد وأنعام وأموال تجارة، ﴿صَدَقَةٗ﴾ بمقدار معين، في الزكاة المفروضة، أو بمقدار غير معين، في صدقة التطوع حالة كونك، ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ يا محمد، بتلك الصدقة من دنس الذنوب والبخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾؛ أي: تزكي يا محمد أنفسهم بتلك الصدقة، وترفعهم إلى منازل الأبرار، بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية.

ونسبت التزكية إلى الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾؛ لأنه: الخالق، الموفق للعبد، بفعل ما تزكو به نفسه، وتصلح، ونسبت إلى الرسول، في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ لأنه: هو المربى للمؤمنين على ما تزكو به نفوسهم، ويعلو قدرها باتباعهم سنته العملية والقولية، وبيانه لكتاب الله تعالى، فهو القدوة الحسنة لهم. ونسبت إلى الفاعل لها في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾؛ لأنه: قد فعل، ما كان سبباً في طهارة نفسه، وزكاتها من صدقات، ونحوها من أعمال البر. وأما النهي عن تزكية النفس، في نحو قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾. فذاك في تزكية النفس، بدعوى اللسان فقط، دون عمل يؤيدها.

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: واستعطف عليهم يا محمد، وادع لهم؛ أي: للمتصدقين، واستغفر لهم عند أخذ الزكاة منهم. قال الشافعي رحمه الله: والسنة للإمام إذا أخذ الصدقة، أن يدعو للمتصدق، ويقول آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، وجعله لك طهوراً. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾؛ أي: إن دعاءك واستغفارك لهم ﴿سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾؛ أي: رحمة وطمأنينة لقلوبهم، يذهب به اضطراب نفوسهم، وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم،

بأخذك لها، ووضعها في مواضعها.

والصلاة من الله على عباده رحمته لهم، ومن ملائكته استغفارهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ ومن المؤمنين على النبي ﷺ دعاؤهم له، بما أمرهم به في الصلاة بعد التشهد الأخير. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم بذنوبهم، وسميع لدعائك لهم، سماع قبول وإجابة ﴿عَلِيمٌ﴾ بندمهم وتوبتهم منها، وإخلاصهم في صدقاتهم، وطيب أنفسهم بها، عليم بما فيه الخير والمصلحة لهم، وهو الذي يثيبهم عليها. وقد روى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: «اللهم صل على فلان» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى».

وقرأ الحسن[1]: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من أطهر الرباعي وأطهر وطهّر للتعدية من طهر. وقرأ الأخوان حمزة والكسائي وحفص: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ هنا وفي هود، ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ بالإفراد وباقي السبعة بالجمع ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: ألم يعلم أولئك التائبون من ذنوبهم، قبل توبتهم وصدقتهم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾، الصحيحة، ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، المخلصين؛ لاستغنائه عن طاعة الطائعين، وعدم مبالاته لمعصية المذنبين، ولم يجعل ذلك لأحد من خلقه، لا رسول، ولا من دونه، ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: ويقبل الصدقات الصادرة عن خلوص نية، ويثيب عليها، ويضاعف ثوابها، كما وعد ذلك في قوله: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾. وفي الآية حَضٌّ علىٰ التوبة والصدقة والترغيب فيهما.

وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه، بعد أمره لرسوله، ﷺ بأخذها، تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها. والاستفهام[2] في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾: للتقرير، وهو حمل المخاطب على الاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته، أو نفيه، أو

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

للتحضيض، والتأكيد. ومعناه: إن ذلك ليس لرسول الله، ﷺ، وإنما الله سبحانه وتعالى، هو الذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها ا هـ كرخي. والقصد به، تهييجهم إلى التوبة والصدقة.

﴿و﴾ ألم يعلموا ﴿أن الله﴾، سبحانه وتعالى، ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: هو الذي يقبل التوبة إثر التوبة من المذنبين، الذين ينيبون إلى ربهم، وأنه تعالى، هو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، بالتائبين الذي يثيبهم على ما قدموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصروا على ذنب، كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وجاء في الحديث «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة» رواه الترمذي. وهذه الجملة تأكيد لقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وتبشير لهم بأن الله هو التواب الرحيم. وروى الشيخان، عن أبي هريرة، أن النبي، ﷺ قال: «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله». والحديث تمثيل لحال الصدقة المقبولة عند الله تعالى. وفي مصحف[1] أبي وقراءة الحسن بخلاف عنه ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ بالتاء على الخطاب وهو إما خطاب للتائبين أو لجماعة من المؤمنين.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء التائبين أو لجميع الناس، ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾، ما شئتم من الأعمال الحسنة والسيئة ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿عَمَلَكُمْ﴾ خيراً كان أو شراً؛ أي: فسيرى الله سبحانه وتعالى أعمالكم المستقبلة ويعلمها خيراً كانت أو شراً كما يرى أعمالكم الماضية ويعلمها فالاستقبال بالنظر إلى الأعمال وإلا فعلم الله حاصل لا استقبال فيه. وفيه ترغيب عظيم للمطيعين، ووعيد شديد للمذنبين، فكأنه قال اجتهدوا في العمل في المستقبل، فإن الله تعالى يرى أعمالكم

---

(١) البحر المحيط.

ويجازيكم عليها، ﴿و﴾ يراه ﴿رسوله﴾ ﷺ بإطلاع الله إياه على أعمالكم، كما أطلعه على أعمالكم الماضية بفضيحتكم عليها، ﴿و﴾ يراه ﴿المؤمنون﴾ بما قذف الله تعالى في قلوبهم. من محبة الصالحين وبغض المذنبين.

والمعنى[١]: وقل لهم أيها الرسول، اعملوا لدنياكم وآخرتكم لأنفسكم وأمتكم، فالعمل هو مناط السعادة، لا الاعتذار عن التقصير، ولا دعوى الجد والتشمير، وسيرى الله عملكم خيراً كان أو شراً، فيجب عليكم أن تراقبوه في أعمالكم، وتتذكروا أنه عليم بمقاصدكم، ونياتكم، فجدير بمن يؤمن به، أن يتقيه في السر، والعلن، ويقف عند حدود شرعه، وسيراه رسوله والمؤمنون، ويزنونه بميزان الإيمان، الذي يفرق بين الإخلاص والنفاق، وهم شهداء الله على الناس. روى أحمد والبيهقي: أن النبي، ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماءِ ليس لها باب ولا كوة.. لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان».

وفي الآية: إيماء إلى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان، تلي مرضاة الله ورسوله. وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: «مروا على النبي، ﷺ بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال، النبي، ﷺ وجبت، ثم مروا بأخرى، فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت، قال: هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»، متفق عليه. وقال ابن عباس: ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن.

ثم ذكر سبحانه وتعالى بوعيد شديد، فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾؛ أي: وسترجعون بعد الموت، ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: إلى الله الذي يعلم ما غاب عن عباده، وما شوهد لهم؛ أي إلى الله الذي يعلم ما تسرونه، وما تعلنونه، وما تخفونه، وما تبدونه، وفي تقديم الغيب على الشهادة، إشعار بسعة علمه تعالى، وأنه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كل معلوم. ثم ذكر سبحانه ما سيكون

---

(١) المراغي.

عقب ردّهم إليه فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم الله سبحانه وتعالى، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، في الدنيا، فيجازيكم عليه فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويتفضل على من يشاء من عباده؛ لأن المجازاة من الله تعالى في الآخرة، لا تحصل إلا بعد الإخبار بعمله، ليعرف كل أحد أن الذي وصل إليه عدل لا ظلم ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾؛ أي: ومن المتخلفين عن غزوة تبوك أقوام آخرون؛ أي: غير الذين مردوا على النفاق، وغير الذين اعترفوا بذنوبهم، مرجون؛ أي: بل هم مرجون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بل هم مؤخرون عن التوبة إلى قضاء الله تعالى وحكمه فيهم بما شاء إما التوبة وإما التعذيب. وقرأ[1] الحسن وطلحة وأبو جعفر وابن نصاح والأعرج ونافع وحمزة والكسائي وحفص: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ و ﴿ترجي﴾ في سورة الأحزاب بغير همزة. وقرأ باقي السبعة: ﴿مرجؤن وتجرىء﴾ بالهمز وهما لغتان.

كان[2] المتخلفون عن الجهاد في غزوة تبوك، أقساماً ثلاثة:

الأول: المنافقون الذين مردوا على النفاق وهم أكثر المتخلفين.

والثاني: المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم، وتابوا، وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول، واستغفاره، فتاب الله عليهم، كأبى لبابة وأصحابه.

والثالث: المؤمنون الذين حاروا في أمرهم، ولم يعتذروا للرسول، ﷺ؛ لأنهم، لا عذر لهم، وأرجؤوا توبتهم واعتذارهم إلى رسول الله، ﷺ، صريحاً وإنما وجد منهم الندم والحزن، فإرجاء الله تعالى الحكم القاطع في أمرهم، لأسباب ستذكر، والفرق بين القسم الثاني، والقسم الثالث: أن القسم الثاني، سارعوا إلى التوبة فقبل الله توبتهم، والقسم الثالث توقفوا، ولم يسارعوا إلى التوبة، فأخر الله أمرهم.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: هم الثلاثة، الذين خلفوا عن التوبة، وهم مرارة ـ بضم الميم ـ ابن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

غزوة تبوك، في جملة من قعد من المخالفين، كسلاً وميلاً إلى الدعة والراحة والتمتع بطيب الثمار والتفيؤ بالظلال لا شكاً ونفاقاً. وكانت طائفة منهم، ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه. وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء، وأرجئت أي أخرت توبة هؤلاء، حتى نزلت آية ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، الآية. ومعنى ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن المتخلفين، ناس آخرون مؤخرون إلى أمر الله وحكمه فيهم بما شاء، وهم أولئك النفر، الذين سبق ذكرهم، وكانوا تخلفوا عن رسول الله، ﷺ مع الهم باللحاق به، ولم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق. فلما قدم النبي، ﷺ من تبوك.. قالوا لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا لرسول الله، ﷺ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، من الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد، فنزل فيهم، قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ الآية. فنهى النبي، ﷺ، عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم، وإرسالهن إلى أهاليهن، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الآية. وكانت مدة ما بين نزول الآيتين، خمسين ليلة، بقدر مدة التخلف؛ إذ كانت غيبته، ﷺ عن المدينة، خمسين ليلة، لأنهم، لما تمتعوا بالراحة في المدينة مع تعب غيرهم في السفر.. عوقبوا بهجرهم تلك المدة فلما مضت خمسون ليلة.. نزلت توبتهم بقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية.

ومعنى قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا ولم يتوبوا من التخلف، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا عنه؛ أي: إن أَمْرهم دَائِرٌ بين هذين، التعذيبِ والتوبةِ، وإما هنا إما للشك بالنسبة إلى المخاطبين، وإما للإبهام بالنسبة إلى الله، بمعنى: أنه تعالى، أبهم على المخاطبين كما في «السمين».

وقد أبهم الأمر عليهم وعلى الناس، فلا يدرون ماذا ينزل بهم، هل تنفع توبتهم فيتوب الله عليهم، كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم، أو يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة، كما حكم على الخالفين من المنافقين. وحكمة إبهام الأمر

عليهم، إثارة الغم والحزن في قلوبهم، لتصح توبتهم. وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخاطبتهم تربيةً للفريقين على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله والجهاد؛ لإعلاء كلمة الحق، ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين.

وهذه الجملة، في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في ﴿مرجون﴾، والتقدير، وآخرون مرجون هم إلى أمر الله حالة كونهم إما معذبين، وإما متوباً عليهم، كما سيأتي في بحث الإعراب.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصلح حالَ عباده، ويربيهم ويزكيهم، أفراداً وجماعات ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح، إذا عملوا بها.

ومن هذه الحكمة إرجاء النص على توبتهم في كتابه، كما أن تكرار تلاوتها في مختلف الأوقات، مما يوقع في قلوب المؤمنين الرهبة والخوف، ويفيدهم عظة وتهذيباً.

الإعراب

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾، أو الجواب محذوف دل عليه ما قبلها. ﴿رَجَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ إلىٰ آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾: ناصب وفعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، أعني: المؤمنين، والجملة في محل

النصب مقول القول. ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة في محل النصب مقول القول. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أنها المتعدية إلىٰ مفعولين، أحدهما ضمير التكلم.

والثاني: قوله من أخباركم، وعلىٰ هذا، ففي ﴿مِنْ﴾ وجهان:

أحدهما: أنها غير زائدة، والتقدير: قد نبأنا الله أخباراً من أخباركم، أو جملة من أخباركم، فهو في الحقيقة صفة للمفعول المحذوف.

والثاني: أن ﴿مِنْ﴾ زائدة عند الأخفش،؛ لأنه لا يشترط فيها شيئاً. والتقدير: قد نبأنا الله أخباركم.

الوجه الثاني: من الوجهين الأولين: أنها متعدية لثلاثة، كأعلم، فالأول والثاني ما تقدم، والثالث محذوف؛ اختصاراً للعلم به، والتقدير: نبأنا الله من أخباركم كذباً ونحوه ا هـ «سمين».

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: واقعاً، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها علىٰ كونها مقولاً لـ ﴿قُل﴾ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: معطوف علىٰ الجلالة.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿تُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تُرَدُّونَ﴾ ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: معطوف على الغيب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿سيرى﴾ على كونها، مقولا لـ ﴿قُل﴾ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير، يعود على الله ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، في محل المفعول الثاني، والجملة، معطوفة على جملة تردون ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ إن قلنا: ﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف تقديره: بما كنتم تعملونه، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية إن قلنا: ﴿ما﴾ مصدرية تقديره: بعملكم.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿سَيَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به ﴿لَكُمْ﴾ والجملة بدل من ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ أو تفسير له كما في «أبي السعود» ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذا﴾ ﴿لِتُعْرِضُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: لام كي. ﴿تعرضوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر، مجرور ﴿باللام﴾ تقديره، لإعراضكم ﴿عَنْهُمْ﴾: الجار والمجرور، متعلق بيحلفون ﴿فَأَعْرِضُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنهم سيحلفون لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم: أعرضوا عنهم ﴿أعرضوا﴾: فعل وفاعل ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾: المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب والهاء: اسمها. ﴿رِجْسٌ﴾: خبرها، وجملة إن: في محل النصب، مستأنفة، مسوقة، لتعليل الأمر بالإعراض عنهم، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، إما من تمام التعليل، وإما تعليل مستقل، كما ذكره: أبو السعود ﴿جَزَآءًۢ﴾: منصوب على المصدرية، بعامل مقدر من لفظه، تقديره: يجزون جهنم جزاء، والجملة المحذوفة مستأنفة، ويجوز كونه حالاً من جهنم وفي «الفتوحات» قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن ينتصب على المصدر، بفعل من لفظه مقدر؛ أي: يجزون جزاءً وأن ينتصب بمضمون الجملة السابقة؛ لأن كونهم ثاوين في جهنم، في معنى المجازاة، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله، ا هـ «سمين» ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، أو بمعنى: على ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة، أو مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص، واسمه. وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط، محذوف، تقديره: بما كانوا يكسبونهُ أو صلة ما المصدرية تقديره: بكسبهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جزاءً﴾، أو صفةٌ له.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿يَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿لِتَرْضَوْا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، وتعليل ﴿ترضوا﴾ فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر، مجرور بـ﴿اللام﴾ تقديره: لرضائكم عنهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ ﴿فَإِن تَرْضَوْا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حلفهم، لرضائكم عنهم، وأردتم بيان حكم رضائكم عنهم.. فأقول لكم ﴿إن ترضوا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿ترضوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بإن، على كونه فعل شرط لها ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، وجواب إن الشرطية محذوف، تقديره: فلا ينفعهم رضاؤكم عنهم، وجملة إن الشرطية، في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء: تعليلية ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على الله ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ﴾: متعلق به ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: صفة للقوم، وجملة ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾: في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾: مبتدأ ﴿أَشَدُّ﴾: خبر ﴿كُفْرًا﴾: تمييز، محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة مستأنفة ﴿وَنِفَاقًا﴾: معطوف على كفراً ﴿وَأَجْدَرُ﴾: معطوف على ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: حرف مصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿يَعْلَمُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾ ﴿حُدُودَ مَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلق به، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما أنزله الله، وجملة ﴿لا يعلموا﴾ في تأويل مصدر، مجرور، بحرف جر محذوف، تقديره، وأجدر بعدم

علمهم حدود ما أنزله الله على رسوله ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿يَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول. ﴿يُنفِقُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ وجملة ﴿يُنفِقُ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾: أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما ينفقه. ﴿مَغْرَمًا﴾: مفعول ثانٍ، لاتخذ، وجملة ﴿يَتَّخِذُ﴾: صلة من الموصولة ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يَتَّخِذُ﴾ ﴿بِكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿يتربص﴾: ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: مفعول به ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر مقدم ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ والجملة مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾ اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾. ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: معطوف على الجلالة ﴿وَيَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول أول، لـ ﴿يتخذ﴾. ﴿يُنفِقُ﴾؛ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة

صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ﴿ما ينفقه﴾ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿يتخذ﴾ ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: سبب قربات، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أو متعلق بـ ﴿يتخذ﴾ ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾: معطوف على ﴿قُرُبَٰتٍ﴾؛ أي: سبب صلوات الرسول ودعواته ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾: ﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه واستفتاح ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ﴾؛ ناصب، واسمه وخبره ﴿لَّهُمْۚ﴾: صفة لقربة، والجملة مستأنفة ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: ناصب واسمه وخبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾: صفة له ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: جار ومجرور، حال من المبتدأ ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾: معطوف على المهاجرين ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿السابقون﴾ ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾: جار ومجرور حال، من واو اتبعوهم، أو متعلق بـ ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَرَضُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿رَّضِيَ﴾. ﴿عنه﴾ متعلق به ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير، يعود على الله ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿رضي﴾ ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع ﴿تَحْتَهَا﴾: متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جنات﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير لهم ﴿فِيهَآ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به ﴿أبداً﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة له والجملة مستأنفة.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۙ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾.

﴿وَمِمَّنْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿حَوْلَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن

في الصلة ﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لمبتدأ محذوف، قامت صفته مقامه، وحَذفُ الموصوف وإقامة صفته مقامه مطرد تقديره: ومن أهل المدينة قوم. وجملة ﴿مَرَدُواْ﴾: صفة لهذا المبتدأ المحذوف، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: متعلق بـ ﴿مَرَدُواْ﴾.

﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾: فعل ومفعول به، إن قلنا: أن علم هنا عرفانية، ومفعول أول إن قلنا إن علم على بابه، والمفعول الثاني محذوف تقديره: لا تعلمهم منافقين، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، أو صفة لـ ﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾: فعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: منافقين، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾: منصوب على المصدرية ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿يُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ﴾: متعلق به ﴿عَظِيمٖ﴾: صفة لعذاب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نعذبهم﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ معطوف على منافقون، على كونه صفة لمبتدأ محذوف، خبره محذوف أيضاً، تقديره: وممن حولكم، أو من أهل المدينة قوم آخرون، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وممن حولكم﴾ ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾ متعلق به، والجملة صفة ثانية لذلك المحذوف ﴿خَلَطُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿عَمَلٗا﴾: مفعول به ﴿صَٰلِحٗا﴾ صفة له، والجملة صفة ثالثة له ﴿وَءَاخَرَ﴾: معطوف على ﴿عَمَلٗا﴾ ﴿سَيِّئًا﴾: صفة ﴿آخر﴾ ﴿عَسَى﴾: فعل ناقص، من أفعال الرجاء ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها ﴿أَن يَتُوبَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يَتُوبَ﴾ في تأويل مصدر، منصوب على كونه خبر

عسى، ولكنه في تأويل اسم الفاعل، ليصح الإخبار به عن الجلالة، تقديره: عسى الله توبته عليهم؛ أي: عسى الله تائباً عليهم، وجملة عسى مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿خُذْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلق به ﴿صَدَقَةً﴾: مفعول به ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية صفة لصدقة، ولكنها سببية، والرابط محذوف تقديره: بها ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهَا﴾: متعلق به لقربه، أو بتطهر لسبقه، كما هو شأن التنازع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة تطهر. ﴿وَصَلِّ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿خُذْ﴾ ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَكَنٌ﴾: خبره. ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿سَكَنٌ﴾: وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾ والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يَقْبَلُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي علم، تقديره: ألم يعلموا قبول الله تعالى توبة عباده. ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقْبَلُ﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: خبر أن. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: صفة للتواب،

أو خبر ثانٍ لها، وجملة أن معطوفة على جملة أن الأولى.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَقُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱعْمَلُواْ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قل﴾ وإن شئت قلت ﴿ٱعْمَلُواْ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف. تقديره: ما شئتم، والجملة في محل النصب مقول قل. ﴿فَسَيَرَى﴾: الفاء: تعليلية، السين: حرف استقبال زيدت هنا لإفادة تأكيد معنىٰ الكلام. ﴿يرى الله عملكم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً. ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: متعلق به. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على الغيب، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾: جار ومجرور، في محل المفعول الثاني، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿ستردون﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كان﴾ صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾: صفة لمبتدأ محذوف، خبره محذوف أيضاً، تقديره: ومن أهل المدينة قوم آخرون. ﴿مُرْجَوْنَ﴾: صفة ثانية لذلك المحذوف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ كما قاله أبو البقاء ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿مُرْجَوْنَ﴾. ﴿إِمَّا﴾: حرف تفصيل. ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة في محل الرفع صفة ثالثة لذلك المحذوف، ولكنها سببية، تقديره: ومن أهل المدينة قوم آخرون مرجون لأمر الله، إما معذبون أو حال من الضمير المستكن في مرجون، تقديره: ومن أهل المدينة قوم آخرون مرجون هم لأمر الله، حالة كونهم إما معذبين، وإما متوباً

عليهم. ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ﴾: الواو: عاطفة ﴿إما﴾ على ﴿إِمَّا﴾. ﴿إِمَّا﴾: حرف تفصيل، مفيدة للشك بالنسبة إلى المخاطب، ومفيدة للإبهام بالنسبة إلى الله. قال أبو البقاء: وإما إذا كانت للشك.. جاز أن يليها الاسم، وأن يليها الفعل، فإن كانت للتخيير، ووقع الفعل بعدها.. كانت معه أن كقوله: إما أن تلقى انتهى. ﴿يَتُوبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾. على كلا الاحتمالين، وقيل: غير ذلك، من أوجه الإعراب. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة الاسمية مستأنفة. مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾: من اعتذر من باب افتعل إذا مَهَّد العذر. والاعتذار: إظهار العذر بالأعذار الكاذبة.

﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عنك علمه ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: ما تشهده وتعرفه.

﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾: انقلب إلىٰ الشيء من باب انفعل: رجع إليه ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ أي: قذر يجب الإعراض عنهم. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: والمأوى، كل مكان يأوى إليه الشيء، ليلاً أو نهاراً، وقد أوى فلان إلى منزله، يأوي أوياً وإيواء. ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾: ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ اسم لبدو العرب، واحده أعرابي، والأنثى أعرابية، والعرب اسم لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة، بَدْوِه وحَضَره، واحدَهُ عربي، كالمجوس والمجوسي واليهود واليهودي.

وفي «الفتوحات» والأعراب اسم جمع، جاء على صورة الجمع، وليس جمعاً لعرب، لئلا يلزم كون الجمع أخص من مفرده؛ لأن الأعراب سكان البادية خاصة، والعرب المتكلمون باللغة العربية، سواء سكنوا البادية أو الحاضرة، ا هـ شيخنا. وفي «المصباح» وأما ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ بالفتح فأهل البَدْوِ من العرب، الواحد أعرابي بالفتح أيضاً، وهو الذي يكون صاحب نجعة، وارتياد غيث وكلأ، وزاد

الأزهري فقال: سواء كان من العرب، أو من مواليهم قال: فمن نزل البادية وجاور البادين، وظعن بظعنهم.. فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب.. فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء. قال النيسابوري: قيل إنما سمي العرب عرباً، لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب، وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب، وينطق بلسانهم فهو منهم، وقيل: لأن ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى.

﴿وَأَجۡدَرُ﴾؛ أي: أحق وأولى وأحرى يقال، هو جدير وأجدر، وحقيق وأحق، وقمن وخليق، وأولى بكذا كله بمعنى واحد. قال الليث: جدر يجدر جدارة، فهو جدير وأجدر به، يؤنث ويثنى ويجمع. قال الشاعر:

نَـخِـيْـلٌ عَـلَـيْـهَـا جَـنَّـةٌ عَـبْـقَـرِيَّـةٌ   جَـدِيْـرُوْنَ يَـوْمَـاً أَنْ يَـنَـالُـوْا فَـيَـسْـتَـعْـلُـوْا

وقد نبه الراغب على أصل اشتقاق هذه المادة، وأنها من الجدار؛ أي: الحائط، فقال: والجدير المنتهي لانتهاء الأمر إليه، انتهاء الشيء إلى الجدار، والذي يظهر، أن اشتقاقه من الجدر، وهو أصل الشجرة، فكأنه ثابت كثبوت الجدر في قولك: جدير بكذا، ا هـ «سمين». ﴿مَغۡرَمٗا﴾ والمغرم: الغرامة والخسران، من الغرام بمعنى: الهلاك؛ لأنه سببه، ومنه ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ وقيل: أصله الملازمة، ومنه الغريم، للزومه من يطالبه وإلحاحه عليه. ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾: والتربص: الانتظار، والدوائر، هي: المصائب التي لا مخلص منها، تحيط به كما تحيط الدائرة. وقيل: تربص الدوائر هنا: موت الرسول، ﷺ، وظهور الشرك. قال الشاعر:

تَـرَبَّـصْ بِـهَـا رَيْـبَ ٱلْـمَـنُـوْنِ لَـعَـلَّـهَـا   تُـطَـلَّـقُ يَـوْمَـاً أَوْ يَـمُـوْتَ حَـلِـيْـلُـهَـا

والدوائر: جمع دائرة، وهي: ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة، أخذاً من الدائرة المحيطة بالشيء، وأصلها داورة، لأنها من دار يدور؛ أي: أحاط، فقلبت الواو همزة ومعنى تربص الدوائر: انتظار المصائب؛ أي: انتظار انقلاب الدوائر. ففي الكلام حذف مضاف، وفي الدائرة مذهبان أظهرهما، أنها صفة

على فاعلة كقائمة، وقال الفارسي: يجوز أن تكون مصدراً كالعاقبة، ا هـ «سمين». ودوائر الزمان، حوادثه. والمراد بها ما لا محيص منه، من تصاريف الأيام ونوائبها التي تحيط شرورها بالناس، والدائرة أيضاً، النائبة والمصيبة، والسوء اسم لما يسوء ويضر. وقال الفراء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: العذاب والبلاء. قال: والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءاً ومساءة وسوائية ومسائية، وبالضم اسم لا مصدر. وقال أبو البقاء: السوء بالضم الضرر، وهو مصدر في الحقيقة، قلت: يعني، أنه في الأصل كالمفتوح في أنه مصدر، ثم أطلق على كل ضرر وشر. وقال مكي: من فتح السين، فمعناه الفساد والرداءة، ومن ضمها، فمعناه البلاء والضرر، وظاهر هذا، أنهما اسمان لما ذكر، ويحتمل أن يكونا في الأصل مصدرين، ثم أطلقا على ما ذكر. وقال غيره: المضموم العذاب والضرر، والمفتوح الذم، ا هـ «سمين».

﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ والـ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى، تقول منه: قربت لله قرباناً، وهي في المنزلة والمكانة، كالقرب في المكان والقرابة في الرحم. ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾: والـ ﴿صلوات﴾: واحدها صلاة، ويراد بها الدعاء، والمعنى: أنه يتخذ ما ينفق سبباً لحصول القربات عند الله تعالى، وسبباً لحصول دعوات الرسول.

﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: وأصل مرد وتمرد: اللين والملاسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه غصن أمرد لا ورق عليه، وفرس أمرد لا شعر فيه، وغلام أمرد لا شعر بوجهه، وأرض مرداء لا نبات فيها، وصرح ممرد؛ أي: مجرد فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق، وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه.

﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾: الاعتراف: الإقرار بالشيء، ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في الحال والاستقبال. ﴿خَلَطُواْ﴾: ومعنى الخلط، أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء، ويجوز أن تكون الواو في قوله: ﴿وَءَاخَرَ﴾: بمعنى الباء، كقولك بعت الشاة شاة ودرهماً؛ أي: بدرهم. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾:

والصدقة: مأخوذة من الصدق إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه. والصدقة ما ينفقه المؤمن قربة لله. ﴿تزكيهم﴾: والتزكية من قولهم رجل زكى؛ أي: زائد الخير والفضل، قاله: في «الأساس». ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: والصلاة الدعاء. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: والسكن: كل ما تسكن وتطمئن إليه النفس، وترتاح عنده من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء، فهو فعل بمعنى، مفعول كالقبض بمعنى، المقبوض والقنص بمعنى، المقنوص. والمعنى، يسكنون إليها. مرجون ومرجؤون وبهما قرىء؛ أي: مؤخرون يقال؛ أرجأت الأمر وأرجيته؛ أي: أخرته.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً، وضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين كلمتي ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

ومنها: التكرار في: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ وفي لفظ ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾، وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ونكتة العدول لهذا الظاهر التسجيل عليهم، حيث وصفهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك، ا هـ «أبو السعود».

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾؛ لأن الدوائر حقيقة في الدائرة المحيطة بالشيء، كدائرة القمر ودائرة الخط، فاستعملها في المصائب والنكبات النازلة بالإنسان، بجامع الاشتمال والإحاطة في كل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ حيث أطلق المسبب الذي هو القربات، وأراد السبب، أي: سبب قربات، وسبب صلوات وفي قوله: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾؛ أي: يدخلهم في جنته التي هي محل الرحمة، وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ وقوله: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ حيث جعل الصلاة نفس السكن، والاطمئنان مبالغة، وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه فصار بليغاً.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ حيث استعار الإلصاق، الذي هو معنى الباء للواو التي هي للجمع؛ لأن الواو هنا، بمعنى الباء؛ أي: بآخر. قال التفتازاني: وتحقيقه أن الواو للجمع، والباء للإلصاق والجمع، والإلصاق من قبيل واحد، فسلك به طريق الاستعارة، اهـ «كرخي».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث أتى بأن، وبالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، وبصيغة المبالغة في التواب وفي الرحيم؛ تبشيراً لعباده؛ وترغيباً لهم كما ذكره الشوكاني.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ حيث شبه القبول بالأخذ، فاستعار له اسمه، فاشتق من الأخذ، بمعنى القبول، يأخذ بمعنى يقبل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ
أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ
أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)
لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ۞
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ
مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ
الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾.

المناسبة

لما[١] ذكر الله سبحانه وتعالى طرائق ذميمة لأصناف المنافقين أقوالاً

---

(١) البحر المحيط.

وأفعالاً.. ذكر هنا، أن منهم: من بالغ في الشر حتى ابتنى مجمعاً للمنافقين، يدبرون فيه ما شاؤوا من الشر وسموه مسجداً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله سبحانه وتعالىٰ لما ذكر[١] فضائح المنافقين بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وأصناف المقصرين من المؤمنين.. أردف ذلك بذكر حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، البالغين فيه حد الكمال، وبذا تم معرفة جميع أحوال المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما[٢] كان الكلام من أول السورة إلى هنا براءة من الكفار والمنافقين في جميع الأحوال بين الله سبحانه هنا أنه يجب البراءة من أمواتهم، وإن قربوا غاية القرب كالأب والأم، ثم ذكر السبب الذي لأجله استغفر إبراهيم لأبيه، وهو وعده بالاستغفار بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فلما أصر على كفره، تبرأ منه وبعدئذٍ بين رحمته بعباده، وأنه لا يعاقبهم على شيء إلا بعد بيان شافٍ لما يعاقبون عليه.

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ...﴾ الآية، مناسبة[٣] هذه الآية لما قبلها أنه سبحانه وتعالى لما قدم الكلام في أحوال المنافقين، من تخلفهم عن غزوة تبوك، واستطرد إلى تقسيم المنافقين إلى أعراب وغيرهم، وذكر ما فعلوا من مسجد الضرار، وذكر مبايعة المؤمنين الله في الجهاد وأثنى عليهم، وأنه ينبغي أن يباينوا المشركين، حتى الذين ماتوا منهم بترك الاستغفار لهم.. عاد إلى ذكر ما بقي من أحوال غزوة تبوك، وهذه شنشنة كلام العرب، يشرعون في شيء، ثم يذكرون بعده أشياء مناسبة، ويطيلون فيها، ثم يعودون إلى ذلك الشيء الذي كانوا شرعوا فيه.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: لما استقصى الله سبحانه وتعالى أحوال المتخلفين عن غزوة تبوك على النحو الذي سلف، عاد مرة أخرى إلى الكلام في توبتهم، جرياً على سنّة القرآن الكريم في تفريق الآيات في الموضوع الواحد؛ لأنه أفعل في النفس، وأشد تأثيراً في القلب، وأجدى في تجديد الذكرى، وأدنى أن لا يسأم التالي لها في الصلاة وغيرها، إلا أنه مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين، إذ كل مما يتاب منه وكل عثرة يطلب منها الصفح والعفو.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا . . .﴾ الآية، سبب[1] نزولها ما أخرجه ابن مردويه: من طريق ابن إسحاق، قال: ذكر ابنُ شهاب الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن ابن أخي أبي رهم الغفاري، أنه سمع أبا رهم، وكان ممن بايع تحت الشجرة يقول: أتى منْ بنى مسجدَ الضرار رسولَ الله ﷺ، وهو متجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، قال: إني على جناح السفر، وإذا قدمنا إن شاء الله.. أتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما رجع نزل بذي أوان على ساعة من المدينة، فأنزل الله في المسجد: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، إلى آخر القصة، فدعا مالك بن الدخشن، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وأحرقاه، ففعلا.

وأخرج[2] ابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما بنى رسول الله، ﷺ، مسجد قباء خرج رجال من الأنصار، منهم: بخدج، فبنوا مسجد النّفاق فقال رسول الله ﷺ لبخدج «ويلك، ما أردتَ إلى ما أرى» فقال: يا رسول الله، ما أردت إلا الحسنى، فأنزل الله الآية. وأخرج ابن مردويه: من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: إن أناساً من الأنصار بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابتنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر، ملك الروم، فآتي بجند، فأخرِجَ محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي، ﷺ، فقالوا له: لقد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، فأنزل الله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وأخرج الواحدي، عن سعد بن أبي وقاص قال: إن المنافقين عرضوا بمسجد، يبنونه يضاهون به مسجد قباء، لأبي عامر الراهب إذا قدم ليكون إمامهم فيه، فلما فرغوا من بنائه، أتوا رسول الله، ﷺ، فقالوا: إنا بنينا مسجداً، فصل فيه فنزلت: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال عبد الله بن رواحة، لرسول الله، ﷺ، اشْتَرِطْ لربك ولنفسك ما شئتَ، قال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا، قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري (ج ٣ ص ٤٦٥) عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، أنه أخبره أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله، ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله: ﷺ، لأبي طالب: «يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمةً أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب، آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله تعالى فيه

هذه الآية، والحديث قد أخرجه مسلم والنسائي وأحمد وابن جرير والبيهقي وابن أبي حاتم.

وأنزل[١] في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية، وظاهر هذا أن الآية نزلت بمكة.

وأخرج الترمذي وحسنه، والحاكم عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان، فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك. فذكرت ذلك لرسول الله، ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وأخرج الحاكم والبيهقي: في «الدلائل» وغيرهما عن ابن مسعود، قال: خرج رسول الله، ﷺ، يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكيت لبكائه، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ قال الحافظ[٢] ابن حجر: يحتمل أن يكون لنزول الآية أسباب، متقدم هو أمر أبي طالب، ومتأخر وهو أمر آمنة، وقصة علي، وجمع غيره بتعدد النزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع عن المشركين الأحياء والأموات، بين أن هذا الحكم، غير مختص بدين محمد، ﷺ، بل هو مشروع أيضاً، في دين إبراهيم عليه السلام، فتكون المبالغة في وجوب الانقطاع، أكمل وأقوى، اهـ كرخي.

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ سبب نزولها: ما أخرجه البخاري وغيره، عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن النبي، ﷺ في غزوة غزاها، إلا بدراً، حتى كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها، وآذن الناس بالرحيل، فذكر الحديث بطوله، وفيه فأنزل الله توبتنا. ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾

---

(١) لباب النقول. (٢) لباب النقول.

إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال: وفينا أنزل أيضاً، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾؛ أي: ومن المنافقين الفريق الذين اتخذوا، وبنوا مسجداً، وكانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، منهم: وديعة بن ثابت، وثعلبة بن حاطب، وجارية بن عمرو، ﴿ضِرَارًا﴾؛ أي: لأجل إضرار أهل مسجد قباء؛ أي: ومن المنافقين جماعة، بالغوا في الإجرام حتى ابتنوا مجتمعاً يدبرون فيه الشر للمؤمنين، وسموه مسجداً مضارة للمؤمنين، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: ولأجل تقوية الكفر والنفاق، الذي أضمروه بالطعن على النبي، ﷺ، ودين الإسلام، ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولأجل التفريق والتشتيت بين المؤمنين الذين كانوا يصلون في مسجد قباء؛ أي: لكي يصلي طائفة من المؤمنين في ذلك المسجد الذي بنوه، فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة، ﴿وَإِرْصَادًا﴾؛ أي: وانتظاراً ﴿لـ﴾: مجيء ﴿من حارب الله ورسوله﴾: أبي عامر الراهب الفاسق. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بحارب؛ أي: حارب الله ورسوله من قبل بناء هذا المسجد وكان أبو عامر: قد تنصر في الجاهلية، وترهب؛ أي: لبس المسوح وطلب العلم، فلما قدم النبي، ﷺ المدينة، عاداه؛ لأنه زالت رياسته وقال: للنبي، ﷺ يوم أحد لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، ولم يزل يقاتله ﷺ إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر وآت من عنده بجند، فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا هذا المسجد إلى جنب مسجد قباء، وانتظروا مجيء أبي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، ليحلفن لك أيها الرسول، أولئك الذين بنوا ذلك المسجد، كاذبين والله، ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾؛ أي: ما أردنا ببناء هذا المسجد،

﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: إلا الفعلة الحسنى، والخصلة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي الصلاة والذكر فيه، والرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء، أو مسجد الرسول، ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ﴾، سبحانه وتعالىٰ ﴿يَشْهَدُ﴾؛ أي: يعلم ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قيلهم وفي حلفهم؛ لأنهم ما بنوه إلا للسوء وضرار مسجد قباء.

روي أن الذين اتخذوا هذا المسجد، كانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج، وقد بين الله سبحانه وتعالىٰ الأغراض التي لأجلها بنى، وهي أربعة:

١ـ مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء، الذي بناه رسول الله، ﷺ، مقدمه من مكة مهاجراً قبل وصوله إلى المدينة.

٢ـ تقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك، مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد، والتشاور فيما بينهم في الكيد لرسول الله، ﷺ، والطعن فيه إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين.

٣ـ التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة، وهي أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية، ومن ثم كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافياً لأغراض الدين ومراميه، ومن الواجب أن يصلي المسلمون الجمعة في مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً فإن تفرقوا عمداً كانوا آثمين.

ومن[١] هذا، يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولم يكن سبباً لتفريق جماعتهم، فكثير من المساجد المتقاربة في القاهرة وغيرها من الأمصار والمدن الأخرى، لم تبن لوجه الله، بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأفراد والأثرياء، وعدم نصح

(١) المراغي.

العلماء لهم.

٤ـ الانتظار والترقب، لمن حارب الله ورسوله، أن يجيء محارباً فيجد مكاناً مرصداً له، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه، وهم أولئك المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً له.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الخصلة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي: الرفق بالمسلمين، وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف، ومن يحبسهم المطر منهم، ليصدقهم الرسول الله، ﷺ، وليصلي معهم فيه، والله يعلم إنهم لكاذبون في أيمانهم؛ لأنهم ما بنوه إلا للسوء وضرار مسجد قباء.

وقرأ جمهور القراء[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالواو عطفاً على ﴿وَءَاخَرُونَ﴾؛ أي: ومنهم: الذين اتخذوا، الخ كما مر. وقرأ أهل المدينة، نافع، وأبو جعفر، وشيبة، وغيرهم، وابن عامر: ﴿الذين﴾ بغير واو، كذا في مصاحف المدينة، والشام، فاحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ وأن يكون خبر مبتدأ تقديره هم الذين.

وقرأ الأعمش: ﴿وإرصادا للذين حاربوا الله ورسوله﴾.

روي أن النبي، ﷺ، لما انصرف من تبوك راجعاً، نزل بذي أوان، وهو موضع قريب من المدينة، فأتاه المنافقون، وسألوه أن يأتي مسجدهم، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فأنزل الله هذه الآية، وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله، ﷺ، مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشياً، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار. فدخل أهله، فأخذ من سعف النخل، فأشعله، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فأحرقوه

---

(١) البحر المحيط.

وهدموه وتفرق عنه أهله، وأمر رسول الله، ﷺ، أن يتخذ ذلك الموضع كناسة، تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة، ومات أبو عامر الراهب بالشام غريباً وحيداً.

وروي أن بني ابن عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء، أتوا عمر بن الخطاب في خلافته، فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم، فقال لا ونعمة عين، أليس هو إمام مسجد الضرار. قال مجمع: يا أمير المؤمنين! لا تعجل عليّ، فوالله لقد صليت فيه، وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون، فصليت بهم ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله، ولم أعلم ما في أنفسهم، فعذره عمر، فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء. قال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر. وقوله سبحانه ﴿لَا تَقُمْ﴾ يا محمد ﴿فِيهِ﴾ أي: في هذا المسجد الذي بني للضرار، ﴿أَبَدًا﴾ للصلاة فيه قال ابن عباس، معناه: لا تصل فيه أبداً، منع الله عزّ وجلّ نبيه، ﷺ، أن يصلي في مسجد الضرار. واللام في قوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ﴾ لام الابتداء، وقيل لام القسم، تقديره: والله مسجد أسس على التقوى وهو مسجد قباء؛ أي: لمسجد ﴿أُسِّسَ﴾؛ أي: وضع أساسه وبني أصله، ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: على تقوى الله عزّ وجلّ وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بني ووضع أساسه، كان ذلك البناء على التقوى، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله، ﷺ، وصلى فيه أيام مقامه بقباء، وهو يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج منه صبيحة يوم الجمعة، وهو أوفق للقصة، أو هو مسجد رسول الله، ﷺ، لقول أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - سألت رسول الله، ﷺ، عنه، فقال: هو مسجدكم هذا، مسجد المدينة أخرجه مسلم.

﴿أَحَقُّ﴾ وأولى، ﴿أَن تَقُومَ﴾ وتصلي يا محمد، ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المسجد الذي أسس على التقوى، من الصلاة في مسجد الضرار الذي يدعوك المنافقون إلى الصلاة فيه.

والمعنى: أن مسجداً قصد ببنائه، منذ وضع أساسه في أول يوم، تقوىٰ الله، بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى، هو أحق من غيره أن تقوم فيه، أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين. والسياق يدل على أن المسجد الذي أسس على التقوى، هو مسجد قباء، ولكن روى البخاري ومسلم والنسائي: أن النبي، ﷺ سئل عنه، فأجاب: بأنه مسجده الذي في المدينة، والآية لا تمنع إرادة كلّ من المسجدين؛ لأن النبي، ﷺ، قد بنى كلاً من المسجدين ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه، ومما يدل على فضل مسجد قباء، ما روي عن ابن عمر قال: كان النبي، ﷺ، يزور قباء، أو يأتي قباءً راكباً وماشياً، زاد في رواية فيصلي فيه ركعتين، وفي رواية، أن رسول الله، ﷺ، كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً، وكان ابن عمر يفعله. أخرج الرواية الأولى والزيادة البخاري ومسلم. وأخرج الرواية الثانية البخاري. وعن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله: ﷺ، من خرج حتى يأتي هذا المسجد، مسجد قباء فيصلي فيه، كان له كعدل عمرة، أخرجه النسائي. وعن أسد بن ظهير، أن النبي، ﷺ، قال: «الصلاة في مسجد قباء كعمرة» أخرجه الترمذي. ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المسجد الذي أسس على التقوى ﴿رِجَالٌ﴾ من بني عامر بن عوف يعمرونه بإقامة الصلاة، وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدو والآصال، و ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام، كما تطهر المتخلفون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات، ويتبع الطهارة المعنوية بالعكوف فيه للصلاة وغيرها، الطهارة الحسية للثوب والبدن، وطهارة الوضوء والاغتسال. قال عطاء: كانوا يستنجون بالماء بعد الحجر ولا ينامون بالليل على الجنابة.

روى ابن خزيمة في «صحيحه» عن عويمر بن ساعدة، أنه، ﷺ، أتاهم؛ أي: أهل مسجد قباء فقال: إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟ قالوا والله يا رسول الله، ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا. وفي حديث رواه البزار فقالوا نتبع الحجارة بالماء. فقال هو

ذاك فعليكموه.

ومعنى[١] محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه، وقيل، معناه: يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار، والأول أولى كما يفيده الحديث المذكور.

والخلاصة[٢]: أن التطهر يشمل الطهارتين، النفسية والبدنية والروايات وردت بكل منهما، والأولى إرادتهما معاً. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾؛ أي: الذين يبالغون في طهارة الروح والجسد، لحبهم إياهما؛ لأنهم يرون فيهما الكمال الإنساني، فمن ثم يبغضون نجاسة البدن والثوب، وأشد منهما بغضاً لهم، نجاسة النفس وخبثها، بالإصرار على فعل المعاصي، والتخلق بذميم الأخلاق. كالرياء في الأعمال إذ هو فعل المنافقين، والشح بالأموال، أو بالأنفس في سبيل الله ابتغاءً لمرضاته، وحبه تعالى منزه عن مشابهته حبنا، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا، ويظهر أثر حبه لعباده في أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم، كما أشار إليه الحديث القدسي الذي رواه البخاري «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث.

ومعنى[٣] محبة الله لهم: الرضا عنهم والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه، والحق أن المحبة صفة ثابتة له سبحانه وتعالى، نثبتها ونعتقدها ولا نكيفها ولا نمثلها.

وقرأ[٤] ابن مصرف والأعمش: ﴿يطهروا﴾ بالإدغام. وقرأ ابن أبي طالب: «المتطهرين».

والهمزة في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ للاستفهام التقريري[٥]، داخلة

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.
(٥) أبو السعود.

على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أبعد ما علم حالهم فمن أسس ووضع بناءه الذي بناه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ ومخافة ﴿مِنَ﴾ عقاب ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى، ﴿وَ﴾ رجاء، ﴿رضوان﴾ وثواب منه، وهم النبي وأنصاره، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ﴾ ووضع ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾. الذي بناه، ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ وطرف ﴿جُرُفٍ﴾ وهوّةٍ وحفرة ﴿هَارٍ﴾ ومشرف ذلك الطرف على السقوط، ﴿فَٱنْهَارَ﴾ وسقط ذلك الطرف ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالباني وببنائه، ﴿فِى﴾ قعر نار، ﴿جَهَنَّمَ﴾ خير وهم أهل مسجد الضرار ورد أنهم رأوا الدخان حين حفروا أساسه، اهـ كرخي وجواب الاستفهام محذوف تقديره: الأول: خير وهو مثال، مسجد قباء، والثاني: مثال، مسجد الضرار.

والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان خيرية الرجال المذكورين على أهل مسجد الضرار.

وعبارة المراغي هنا قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ...﴾ إلخ، هذا[1] بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى، وهم الرسول، ﷺ وأنصاره، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى رجسهم.

والأساس على شفا الجرف الهاري، مثلٌ يُضرب لما يكون في منتهى الوهى والانحلال، والإشراف على الزوال؛ أي: أفمن أسس بنيانه الذي يتخذه موطناً لراحته وهناء معيشته، ويتقي به العوامل الجوية، وعدوان الكائنات الحية على أمتن الأسس وأقواها، على مصابرة العواصف والسيول وصد العوام، والوحوش خيرٌ بنياناً أم من أسس بنيانه على أوهىٰ القواعد وأقلها بقاءً واستمساكاً، فكانت عرضة للانهيار في كل حين من ليل أو نهار؟ وقد ضرب الله مثل البنيان على تينك الصفتين لبيان حال الفريقين المتقدمين من صدق الإيمان والنفاق والارتياب؛ أي: أفمن كان مؤمناً صادقاً، يتقي الله في جميع أحواله، ويبتغي مرضاته في جميع أعماله، قاصداً تزكية نفسه وإصلاح سريرته. خير، أم من هو

---

(١) المراغي.

منافق مرتاب، يبتغي بأعماله الضرر والضرار وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار وتفريق جماعة المؤمنين، والإرصاد، لمساعدة من حارب الله ورسوله، مع ما يكون لعمله في الدنيا من العار والفضيحة والخزي والبوار، وفي الآخرة من الانهيار في النار.

وخلاصة المثل[1]: بيان ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله به، وثمرته في أعمالهم وجزائهم عليه برضوان الله عنهم، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ووهيه، وقرب زواله وخيبة صاحبه، وسرعة انقطاع آماله، وبيان أن شر أعمال المنافقين ما اتخذوه من مسجد الضرار لمفاسده الأربع المتقدمة.

فالإيمان وما يلزمه من صالح العمل هو الثابت، والنفاق وما يستلزمه من فاسد العمل هو الباطل الزاهق، بحكم ناموس الاجتماع وبقاء الأصلح في الوجود، وقد صدق الله وعده وثبت المؤمنين بالقول الثابت. وهداهم إلى العمل الصالح، ففتحوا البلاد وأقاموا سبل الحق والعدل، وأهلك المنافقين، وقد جرت سنّته في كل زمان ومكان أن يكون الفوز حليف أهل الحق، والخيبة لأهل الباطل ما استمسكوا به ولم يقلعوا عنه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالنفاق وغيرهم بالأضرار؛ أي: لا يوفقهم ما فيه صلاحهم ونجاتهم، ولا يغفر لهم ولا ينجيهم؛ أي: مضت سنّته تعالى أن لا يكون الظالم مهتدياً في أعماله إلى الحق والعدل، ولا إلى الرحمة والفضل.

وقرأ[2] نافع وابن عامر: ﴿أسس بنيانه﴾، مبنياً للمفعول في الموضعين، وقرأ باقي السبعة وجماعة: ذلك مبنياً للفاعل، وبنصب بنيانه. وقرأ عمارة بن عائذ: الأولى على بناء الفعل للمفعول، والثانية على بنائه للفاعل. وقرأ نصر بن علي، ورويت عن نصر بن عاصم: ﴿أسس بنيانه﴾، وعن نصر بن علي، وأبي حيوة، ونصر بن عاصم أيضاً، ﴿أساس بنيانه﴾، بالألف جمع أس، وعن نصر بن عاصم: ﴿آسس﴾، بهمزة مفتوحة وسين مضمومة. وقرئ: ﴿إساس﴾ بالكسر،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وهي جموع أضيفت إلى البنيان. وقرىء: ﴿أساس﴾ بفتح الهمزة، و﴿أس﴾ بضم الهمزة وتشديد السين، وهما مفردان أضيفا إلى البنيان. فهذه تسع قراءات. وفي كتاب «اللوامح» قرأ، نصر بن عاصم: ﴿أفمن أسس﴾، بالتخفيف والرفع، ﴿بنيانه﴾ بالجر على الإضافة فأسس مصدر أس الحائط، يؤسه أسا، من باب شد وأسسا. وعن نصر أيضاً: ﴿أساس بنيانه﴾، كذلك إلا أنه بالألف وأس وأسس وأساس كل منها مصادر انتهى.

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿على تقوى﴾، بالتنوين. وحكى سيبويه: هذه القراءة وردها الناس. قال ابن جني: قياسها أن تكون ألفها للإلحاق، كأرطى. وقرأ جماعة، منهم حمزة وابن عامر، وأبو بكر: ﴿جرف﴾، بإسكان الراء وباقي السبعة وجماعة: بضمها، وهما لغتان. وقيل: الأصل الضم، وفي مصحف أبي: ﴿فانهارت به قواعده في نار جهنم﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾؛ أي: لا يزال بنيان أهل مسجد الضرار، ولا يبرح مسجدهم، ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا﴾ بعد ما هدم، ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: سبب ريبة وشك في الدين، متمكن في قلوبهم في جميع الأوقات، ﴿إِلَّآ﴾ وقت، ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: إلا وقت أن تجعل قلوبهم قطعاً وفلذاً، إما بالسيف أو بالموت. والمعنى: أن هذه الريبة باقية في قلوبهم إلى أن يموتوا، فالاستثناء من أعم الأزمنة كما ذكره «البيضاوي»؛ أي: لا يزال[1] مسجدهم سبب شك في الدين؛ لأن المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر رسول الله، ﷺ، بتخريبه ثقل ذلك عليهم، وازداد بغضهم له وارتيابهم في نبوته، وعظم خوفهم منه في جميع الأوقات، وصاروا مرتابين في أن رسول الله، ﷺ، هل يخلي سبيلهم، أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال السدي: لا يزال هدم بنيانهم ريبة، أي: حرارة وغيظاً في قلوبهم في جميع الأوقات، إلا أن يموتوا؛ أي؛ إلا في وقت موتهم وتقطع أجزائهم وتمزق أجسادهم.

---

(١) المراح.

والمعنى[1]: أي لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك في الدين؛ لأنهم يظهرون فيه حال قيامه وثباته ما في قلوبهم من آثار الكفر والنفاق، ويدبرون أمورهم ويتشاورون في ذلك، ويلقي بعضهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين، مما يزيدهم ريبةً وشكاً في الدين، وحين أمر رسول الله، ﷺ، بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم، وعظم خوفهم وارتابوا في أمرهم، أيتركون على حالهم؟ أم يؤمر بهم فيقتلون وتنهب أموالهم؟ إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين في البناء، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين في أمره، ولأي سبب كان ذلك؟ ولا يزال هذا شأنهم في جميع الأحوال إلا حال تقطع القلوب أفلاذاً، وصيرورتها جذاذاً، فتكون غير قابلة للإدراك وفي هذا إيماء إلى أن تمكن الريبة في قلوبهم، وإضمار الشك بحيث لا يزول منها ما داموا أحياءً.

والخلاصة: أنه لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا، سبباً للقلق واضطراب النفس، وأن ذلك لا يزول ما دامت القلوب سالمة، أما إذا تفرقت قطعاً وتقطعت أجزاءً بقتلهم، فحينئذٍ يسلون عنه. وقد يكون المراد إلا أن يتوبوا توبةً تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

وقرأ[2] ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿إلا أن تقطع﴾ بفتح التاء والطاء المشددة؛ أي: يتقطع. وقرأ باقي السبعة: بضم التاء مبنياً للمجهول. وعن ابن كثير: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾، بفتح الطاء، وسكون القاف وفتح قلوبهم على الخطاب؛ أي: إلا أن تجعل قلوبهم قطعاً بالسيف. وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب ﴿إلى أن تقطع قلوبهم﴾. وقرأ أبو حيوة: كذلك، إلا أنه قرأ: بضم التاء وفتح القاف، وكسر الطاء مشددة على الخطاب للرسول، وقلوبهم بالنصب، أي: تقتلهم، أو فيه ضمير الريبة، وفي مصحف عبد الله: ﴿ولو قطعت قلوبهم﴾ بالبناء للمجهول. وكذلك قرأها أصحابه. وحكى أبو عمرو: هذه القراءة ﴿إن قطعت﴾

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والمراح.

بتخفيف الطاء. وقرأ طلحة: ﴿ولو قطعت قلوبهم﴾ خطاباً للرسول، ﷺ، أو كل مخاطب. وفي مصحف أبي: ﴿حتى الممات﴾ وفيه: ﴿حتى تقطع﴾.

والمعنى[1]: أن هذه الريبة باقية في قلوبهم أبداً ويموتون على هذا النفاق وإلا بمعنى إلى بدليل القراءة الشاذة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال جميع عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم به عليهم، ومن حكمته أن بين حال المنافقين، وأظهر ما خفي من أمرهم لتعرفوا كنه الحقيقة في ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين، ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا ترغيب للمؤمنين في الجهاد على أبلغ وجه، وأحسن صورة فقد مثل الله سبحانه وتعالى إثابة المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله، بتمليكهم الجنة التي هي دار النعيم والرضوان الدائم السرمدي، تفضلاً منه تعالى، وكرماً بصورة من باع شيئاً هو له لآخر، وعاقد عقد البيع هو رب العزة، والمبيع هو بذل الأنفس والأموال، والثمن هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجعل هذا العقد مسجلاً في الكتب السماوية، وناهيك به من صك لا يقبل التحلل والفسخ، وفي هذا منتهى الربح والفوز العظيم، وكل هذا لطف منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذي خلقها، ولأموالهم إذ هو الذي رزقها. وقال الحسن: بايعهم فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة. وقال بعضهم، ناهيك، عن بيع البائع فيه المؤمن والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد، ﷺ. وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كلام مستأنف، لبيان البيع الذي يستلزمه الشراء، فكأنه قيل: كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله؛ أي: أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل التي توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيها؛ أي: يبذلون أنفسهم وأموالهم في طاعة الله تعالى ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾؛ أي: فيكونون

---

(١) المراح.

إما قاتلين لأعدائه الصادين عن سبيله، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل، ولا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل والمثوبة عند الله، فكل منهما كان في سبيله، ولم يكن رغبة في سفك الدماء، ولا حباً للأموال ولا توسلاً إلى ظلم العباد، كما يفعل الذين يقاتلون الآن لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء.

وقرأ عمر بن الخطاب والأعمش[١]: ﴿وأموالهم بالجنة﴾. وقرأ الحسن، وقتادة، وأبو رجاء، والعربيان، أبو عمرو، وابن عامر، والحرميان، نافع، وابن كثير، وعاصم، أولاً: ﴿فيقتلون﴾ بالبناء للفاعل، وثانياً: ﴿ويقتلون﴾ بالبناء للمفعول، وقرأ النخعي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، والأخوان ـ حمزة والكسائي ـ بعكس ذلك، والمعنى واحد، إذ الغرض أن المؤمنين يقاتلون ويؤخذ منهم من يقتل، وفيهم من يقتل، وفيهم من يجتمع له الأمران، وفيهم من لا يقع له واحد منهما، بل تحصل منهم المقاتلة.

وقال أبو علي[٢]: القراءة الأولى بمعنى، أنهم يقتلون أولاً. ويقتلون، والأخرى يجوز أن تكون في المعنى، كالأولى، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم، فإن لم يقدر فيه التقديم، فالمعنى، يقتل من بقي منهم بعد قتل من قتل.

وفي «المراح»[٣]: فمعنى تقديم الفاعل على المفعول، أنهم يقتلون الكفار ولا يرجعون عنهم إلى أن يصيروا مقتولين. وأما تقديم المفعول على الفاعل، فالمعنى: أن طائفة كبيرة من المسلمين، وإن صاروا مقتولين لم يصر ذلك رادعاً للباقي عن المقاتلة، بل يبقون بعد ذلك مقاتلين مع الأعداء، قاتلين لهم بقدر الإمكان. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾؛ أي: وعدهم الله ذلك عليه وعداً ﴿حَقًّا﴾؛ أي: ثابتاً عليه وأوجبه على نفسه وجعله حقاً وأثبته ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ فإن الله سبحانه بين في الكتابين أنه اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

(٣) المراح.

كما بين في القرآن، وضياعه منهما في النسخ التي بين يدي أهل الكتاب لا يقدح في ذلك، لأنه قد ضاع منهما كثير، وحرف بعضهما لفظاً ومعنى، ويكفي إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما. والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إنكاري؛ أي: لا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء، ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه. والفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فاء الفصيحة؛ أي: فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور، وافرحوا غاية الفرح ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ مع ربكم، وهو بيع الأنفس والأموال بالجنة؛ أي: فافرحوا غاية الفرح بجهادكم الذي فزتم به الجنة، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البيع الذي هو بيع الأنفس والأموال بالجنة، ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾؛ أي: سبب الفوز، لأنه رابح في الآخرة، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك، لا يعد فوزاً إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل.

وفي هذا الأسلوب من تأكيد استحقاق المجاهدين للثواب ما لا يخفى، إذ جعلهم مالكين معه، ومبايعين له، ومستحقين الثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء وإنجاز وعده، وعن جعفر الصادق أنه قال: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها. يريد أن الذي يقتل أو يموت في سبيل الله، بذل بدنه الفاني لا روحه الباقي.

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء الكملة من المؤمنين، الذين باعوا أنفسهم وأموالهم، بجنته بصفات تسعة، الستة الأولى منها، تتعلق بمعاملة الخالق، والسابع والثامن، يتعلقان بمعاملة المخلوق، والتاسع يعم القبيلين:

١ـ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ وهو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم الراجعون إلى ربهم، بتركهم كل ما يبعد عن مرضاته، وقرأ أبي، وعبد الله، والأعمش: ﴿التائبين﴾ بالياء، إلى والحافظين نصباً على المدح. واعلم أن التوبة المقبولة إنما تحصل باجتماع أمور أربعة: الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما مضى منه، والعزم على الترك في المستقبل. ورابعها: أن يكون الحامل له على هذه الأمور

الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته، فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس، وتحصيل مدحهم، أو لغرض آخر من الأغراض الدنيوية، فليس بتائب، ولا بد من رد المظالم إلى أهلها إن كانت، فالتوبة تختلف باختلاف المعاصي، فتوبة الكفار هي: رجوعهم عن الكفر الذي كانوا عليه، كما قال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ وتوبة المنافق تكون بترك نفاقه، وتوبة العاصي من معصيته، تكون بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله، كتوبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين، وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير تكون بالاستزادة منه، وتوبة من يغفل عن ربه تكون بالإكثار من ذكره وشكره.

٢ـ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ لله المخلصون في جميع عباداتهم، فلا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استغاثة، ولا يتقربون إلى غيره بعمل قربان ولا طلب مثوبة في الآخرة.

٣ـ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لله في السراء والضراء، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي، ﷺ؛ إذا أتاه الأمر يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال».

وروى البغوي بغير سند، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء» وقيل: «هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى».

٤ـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ في الأرض والمتنقلون فيها من بلد إلى بلد آخر لغرض صحيح، كعلم نافع للسائح في دينه أو دنياه، أو نافع لقومه وأمته أو النظر في خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار والاستبصار، وقد قيل: إن السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها؛ لأن السائح، لا بد أن يلقى أنواعاً من الضر والبؤس، ولا بد له من الصبر عليها، ويلقى العلماء والصالحين في سياحته، فيستفيد منهم ويرى العجائب وآثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك، فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته.

وقد حث الله سبحانه وتعالى كثيراً على السير في الأرض والضرب فيها، كما قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ وعلى السفر والسياحة لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها. وفسر بعضهم السياحة بالصوم لما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «سياحة هذه الأمة الصيام»؛ لأن الصوم يعوق عن اللذات كما أن السياحة كذلك غالباً. وقال الأزهري، قيل للصائم، سائح؛ لأن الذي يسيح في الأرض كان متعبداً لا زاد معه، فكان ممسكاً عن الأكل، وكذلك الصائم ممسك عن الأكل. وقيل: أصل السياحة استمرار الذهاب في الأرض، كالماء الذي يسيح، والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي.

٥ـ ٦ـ ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ في صلواتهم المفروضة، وخُصًا بالذكر لما فيهما من الدلالة على التواضع والعبودية والتذلل لله سبحانه وتعالى. والمراد بهم، المصلون وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي، بخلاف حالة القيام والقعود لأنهما يكونان للمصلى ولغيره.

٧ـ ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً، يعني: يأمرون الناس بالإيمان بالله وحده، وما يتبعه من أعمال البر والخير.

٨ـ ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ شرعاً، الذين ينهون الناس عن الإشراك بالله، وعن غيره من سائر الأعمال السيئة.

ولم يذكر في الآية لهذه الأوصاف متعلقاً، فلم يقل: التائبون من كذا لله، والعابدون لله لفهم ذلك، إلا صفتي الأمر والنهي مبالغةً في ذلك، ولم يأت بعاطف بين هذه الصفات لمناسبة بعضها لبعض، إلا في صفتي الأمر والنهي لتباين ما بينهما، فإن الأمر طلب فعل، والنهي طلب ترك أو كف، وكذا الحافظون عطفه وذكر متعلقة لعدم مناسبته للصفات السابقة، ولخفاء متعلقة، ا هـ «سمين».

وقال الخازن: أما دخول الواو في قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فإن

العرب تعطف بالواو على السبعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقيل: غير ذلك.

٩- ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى أي لتكاليف الله المتعلقة بالعبادات وبالمعاملات؛ أي: الحافظون لشرائعه وأحكامه التي بين فيها ما يجب على المؤمنين اتباعه، وما يحظر عليهم فعله منها، وكذا ما يجب على أئمة المسلمين، وأولي الأمور منهم إقامته وتنفيذه بالعمل في أفراد المسلمين وجماعتهم، إذا أخلوا بما يجب عليهم حفظه منها. ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتصفين بهذه الصفات السابقة بخيري الدنيا والآخرة.

وخصت تلك الخلال بالذكر؛ لأن بها تكون المحافظة على حدود الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾؛ أي: ما جاز لمحمد، ﷺ، ﴿و﴾ لا لـ ﴿لذين آمنوا﴾ بالله ورسوله ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا﴾؛ أي: ولو كان أولئك المشركون ﴿أُولِي قُرْبَى﴾؛ أي: أصحاب قرابة للنبي والمؤمنين؛ أي: ما كان من شأن النبي، ولا مما ينبغي أن يصدر منه من حيث هو نبي، ولا من شأن المؤمنين، ولا مما يجوز أن يقع منهم أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين، ولو كان لهم حق البر وصلة الرحم، وكانت عاطفة القرابة تقتضي الحدب والإشفاق عليهم. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بالدليل ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي أهل النار بأن ماتوا على الكفر، أو بأن نزل وحي يسجل عليهم ذلك، كإخباره تعالى عن بعض الجاحدين المعاندين بنحو قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.. متعلق بالنفي أو بالاستغفار المنفي. وأما قبل الموت فيفصل، فإن أريد بطلب المغفرة للكافر، هدايته للإسلام.. جاز الاستغفار له وإن أريد به أن تغفر ذنوبه مع بقائه على الكفر.. لم يجز. فمفهوم قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ إلخ، فيه تفصيل، ا هـ «فتوحات» ومعنى الآية: ما كان ينبغي للنبي، والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين، ولا يجوز أن يطلب منه ما لا يفعله. ففيه النهي عن الاستغفار

للمشركين ولو كانوا أولي قربى؛ لأن النهي عن الاستغفار للمشركين عام، فيستوي فيه القريب والبعيد.

وخلاصة ذلك: أن النبوة والإيمان الصادق، لا يبيحان الاستغفار للمشركين في كلِّ حال، حتى ولو كانوا أولي قربى، إذا ظهر لهم بالدليل، أنهم من أصحاب الجحيم.

وقد تقدم لك في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، وقد استبعد بعض العلماء نزولها فيه، لأن موت أبي طالب كان في مكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، وأجاب عنه آخرون بأحد أمرين:

١ـ إما بأنها نزلت عقب موته، ثم ألحقت بهذه السورة المدنية، لمناسبتها لأحكامها الخاصة بالبراءة من الكفار وفضيحة المنافقين.

٢ـ وإما بأنها نزلت مع غيرها من براءة، مبينة لحكم استغفار النبي، ﷺ له، وقد كان من ذلك الحين إلى نزول الآية، يستغفر لأبي طالب، فإن التشديد على الكفار والبراءة منهم إنما جاء في هذه السورة.

وفي الآية إيماء إلى تحريم الدعاء، لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة، أو بوصفه بذلك، كقولهم: المغفور له، والمرحوم فلان، كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الخاصة والعامة.

ثم أجاب عن سؤال قد يختلج بالخاطر مما تقدم فيقال: كيف يمنع النبي والمؤمنون من الاستغفار لأقربائهم وقد استغفر إبراهيم لأبيه؟ فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: وما استغفر إبراهيم، ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: وَفِّقْه للإيمان وَاهدِه إلى سبيله، ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ مبنية على عدم تبين أمره كما ينبىء عنه قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ إلخ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل؛ أي: لم يكن استغفاره لأبيه ناشئاً عن شيء، ولا لأجل شيء، إلا لأجل موعدة ﴿وَعَدَهَآ﴾ إبراهيم ﴿إِيَّاهُ﴾؛ أي: أباه بقوله سأستغفر لك ربي؛ أي: لا أملك لك هدايةً ولا نجاةً وإنما أملك أن أدعو الله لك وقد وفى إبراهيم بما وعده ولم يكن إلا وَفِياً كما شهد الله له بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى

﴿وَفَّىٰٓ﴾. وقرأ[1] الحسن. وحماد الراوية وابن السميقع، وأبو نهيك، ومعاذ القارىء: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ بالباء الموحدة.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾؛ أي: فلما ظهر لإبراهيم، ﴿أنه﴾؛ أي: أن أباه، ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾؛ أي: مستمر على الكفر ومات عليه، ﴿تَبَرَّأَ﴾ إبراهيم، ﴿منه﴾؛ أي: من أبيه وترك الاستغفار له؛ أي؛ إن إبراهيم استغفر لأبيه ما كان حياً، فلما مات أمسك عن الاستغفار له.

والمعنى: أي[2] لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه. قال ابن عباس: وقيل، تبين له ذلك بوحي من الله، فتبرأ منه ومن قرابته، وترك الاستغفار له، إذ هذا مقتضى الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الآية.

ثم بيّن السبب الذي حمل إبراهيم على الوعد بالاستغفار لأبيه، مع شكاسته له وسوء خلقه معه كما يؤذن بذلك قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام، ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾؛ أي: كثير التأوه والدعاء والتضرع إلى الله، ﴿حَلِيمٌ﴾؛ أي: صبور على المحنة؛ أي: إن إبراهيم لكثير المبالغة في خشية الله والخضوع له، صبور على الأذى والصفح عن زلات غيره عليه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وما كان من سنن الله في خلقه ولا من رحمته وحكمته ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾؛ أي: أن يصف قوماً بالضلال، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ إلى الإيمان، وشرح صدورهم للإسلام بقول يصدر منهم خطأً أو عمل يحدث منهم باجتهاد خاطىء، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ بالوحي، ﴿مَّا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ما ينزجرون منه، وينتهون عنه من الأقوال والأفعال، بياناً واضحاً فيمتنعوا من امتثال نهيه.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

والحاصل[1]: أنه لما نزل المنع من الاستغفار للمشركين، خاف المؤمنون من المؤاخذة بما صدر عنهم منه قبل المنع، وقد مات قوم منهم قبل النهي عن الاستغفار، فوقع الخوف في قلوب المسلمين على من مات منهم أنه كيف يكون حالهم، فأزال الله تعالى ذلك الخوف عنهم بهذه الآية، وبين أنه تعالى لا يؤاخذهم بعمل، إلا بعد أن يبين لهم أنه يجب عليهم أن يحترزوا عنه. والمعنى؛ أي: وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين، بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يبين لكم بالوحي ما يجب الاحتراز عنه من محظورات الدين، فلا تنزجروا عما نهيتم عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من المعلرمات ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم حاجتهم إلى بيان قبح ما لا يستقل العقل في معرفته فبين لهم ذلك؛ أي: أنه تعالى عليم بجميع الأشياء، ومن جملتها حاجة الناس إلى البيان، فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء أنفسهم، ومن أجل هذا لم يؤاخذ إبراهيم في استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله، وكذلك لا يؤاخذ النبي، والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم، وأولي القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى.

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، وذلك يستدعي التبرؤ منهم وعدم انتظار النصرة من أحد.. بين أن النصر لا يكون إلا من جهته تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وسلطنتهما والتصرف فيهما كيف يشاء؛ أي: أنه تعالى مالك كل موجود، ومتولي أمره في السموات والأرض وهو الذي ﴿يحيي﴾؛ أي: يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين، ﴿وَيُمِيتُ﴾ من يشاء حين انقضاء أجله، ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غيره، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أموركم، ﴿وَلَا﴾ من، ﴿نَصِيرٍ﴾ ينصركم على أعدائكم؛ أي: وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم، ولا من ينصركم على عدوّكم غير الله تعالى، فلا

---

(١) المراح.

تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولي القربى، الذين هم أهل الولاية والنصرة من ذوي الأرحام، ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيه.

والحاصل: أنه تعالى لما أمر بالبراءة من الكفار، بين أن له ملك السموات والأرض، فإذا كان هو ناصراً لكم.. فهم لا يقدرون على إضراركم؛ أي: أنكم إن صرتم محرومين عن معاونتهم.. فالإله الذي هو المالك للسموات والأرض، والمحيي والمميت ناصركم، فلا يضركم أن ينقطعوا عنكم، والواجب عليكم أن تنقادوا لحكم الله تعالى وتكليفه، لكونه إلهكم، ولكونكم عبيداً له. ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، ﷺ؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد عفا الله سبحانه وتعالى عن النبي، محمد، ﷺ، فيما وقع منه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه في غزوة تبوك، وهو شيء صدر منه من باب ترك الأولى والأفضل، لا أنه ذنب يوجب عقاباً؛ لأنه معصوم، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، ويحتمل أن يكون ذكر النبي، بالتوبة عليه تشريفاً للمهاجرين والأنصار؛ حيث ضم توبتهم إلى توبة النبي، ﷺ، كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فهو تشريف له، ﷺ، ﴿و﴾ كذلك تاب الله سبحانه وتعالى على ﴿المهاجرين والأنصار﴾؛ أي: عفا[1] عنهم عما وقع منهم، من الوساوس، والخطرات النفسانية التي وقعت في قلوبهم، من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك؛ لأنها كانت في وقت حر شديد، وربما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم، وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم، وعفا عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخطرات. وقيل: إن الإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل، ثم إن النبي، ﷺ، والمؤمنين لما تحملوا مشاق هذا السفر، ومتاعبه، وصبروا على تلك الشدائد التي حصلت لهم في هذا السفر، غفر الله لهم، وتاب عليهم، لأجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي، ﷺ، وإنما ضم ذكر النبي، ﷺ، إلى ذكرهم؛ تنبيهاً على عظم مراتبهم في الدين، وأنهم قد بلغوا إلى الرتبة التي

---

(١) الفتوحات.

لأجلها ضم ذكر النبي، ﷺ، إلى ذكرهم.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى المهاجرين والأنصار بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ ﷺ ولم يتخلفوا عنه، ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ والمشقة؛ أي:[1] في الزمان الذي صعب عليهم الأمر جداً في السفر إلى تبوك وكانت لهم عسرة من الزاد، وعسرة من الظهر، وعسرة من الحر، وعسرة من الماء، فربما مص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها، حتى لا يبقى من التمرة إلا النواة، وكان معهم شيء من شعير مسوس، فكان أحدهم إذا وضع اللقمة في فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة، وكانت العشرة من المسلمين يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم، وكانوا قد خرجوا في قيظ شديد، وأصابهم فيه عطش شديد، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه ويشربه، وكانت تلك الغزوة تسمى غزوة العسرة، وجيشها يسمى جيش العسرة.

وقد ذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ سار إلى تبوك في سبعين ألفاً ما بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار، وغيرهم من سائر القبائل، ا هـ «خازن». و المراد بالساعة هنا، مطلق الوقت والزمن، لا الساعة الفلكية كما أشرنا إليه في الحل.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ﴾ إلخ بيان[2] لتناهي الشدة وبلوغها النهاية؛ أي: الذين اتبعوه في وقت المشقة والشدة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من بعد ما قرب أن تميل قلوب بعضهم إلى أن يفارق النبي، ﷺ، في ذلك الغزو لحر شديد، ولم ترد الميل عن الدين، وربما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم، وكيف لنا بالخلاص منها؛ ولكنهم صبروا واحتسبوا، وندموا على ما خطر في قلوبهم، فلأجل ذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ أي: عفا الله عنهم ما وقع في قلوبهم من تلك الخواطر والوساوس، لما صبروا وندموا على ذلك الهم، يعني، أنه سبحانه وتعالى علم إخلاص نيتهم،

---

(١) المراح. (٢) الفتوحات.

وصدق توبتهم فرزقهم الإنابة والتوبة. وفي تكرير[1] التوبة تأكيد ظاهر، واعتناء بشأنها إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق.. فلا تكرار، أو يراد بالأول: إنشاء التوبة، وبالثاني: استدامتها. فإن[2] قلت: قد ذكر التوبة أولاً، ثم ذكرها ثانياً، فما فائدة التكرار؟

قلتُ: إنه تعالى ذكر التوبة أولاً، قبل ذكر الذنب، تفضلاً منه، وتطييباً لقلوبهم، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى؛ تعظيماً لشأنهم، وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم.

ثم علل قبول توبتهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيداً لذلك؛ أي: إنه سبحانه وتعالى رؤوف بهم؛ أي: منعم عليهم بجلائل النعم التي منها مجرد الإيمان، وأنه رحيم بهم؛ أي: منعم عليهم بدقائقها التي منها قوة الإيمان وزيادته بقبول التوبة. وقيل: معنى رؤوف؛ أي: مكرم لهم بدفع المضار عنهم، رحيم بهم بجلب المنافع لهم. وفي «الفتوحات» الرأفة، عبارة عن السعي في إزالة الضرر، والرحمة، عبارة عن السعي في إيصال النفع، اهـ. وقيل: رؤوف بهم، فلا يحملهم ما لا يطيقون من العبادة رحيم بهم، فلا[3] يهملهم بأن ينزع الإيمان منهم، بعد ما أبلوا في الله، وأبلوا مع رسوله، وصبروا في البأساء والضراء.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿كَادَ يَزِيغُ﴾ بالياء التحتية. وقرأ باقي السبعة: ﴿تزيغ﴾ بالتاء الفوقية. وقرأ الأعمش، والجحدري: ﴿تزيغ﴾ بضم التاء. وقرأ أبي: ﴿من بعد ما كادت تزيغ﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿من بعد ما زاغت﴾.

ومعنى تزيغ: تتلف بالجهد والمشقة والشدة، وقيل، معناه: تميل عن الحق، وتترك المناصرة والممانعة، وقيل معناه: تهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة. وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وفائدة هذا العطف، بيان قبول توبتهم؛ أي: ولقد تاب الله سبحانه

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

وتعالى على النبي والمهاجرين وعلى الثلاثة، ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾؛ أي: أخروا في قبول توبتهم عن الطائفة الأولى التي خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً كأبي لبابة وأصحابه وهؤلاء الثلاثة، هم كعب بن مالك الشاعر، وهلال بن أمية، الذي نزلت فيه آية اللعان، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وهم المرادون بقوله سبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وكلمة إذا في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ زائدة، وفي «الفتوحات» ولا بد من ادعاء أحد أمرين، إما ادعاء زيادة إذا وإما ادعاء زيادة ثم، وقد نص «زكريا على البيضاوي» على زيادة ثم وغيره على زيادة إذا؛ أي: أخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: مع رحبها وسعتها بسبب مجانبة الأحباء، ونظر الناس لهم بعين الإهانة والتحقير؛ لأن النبي، ﷺ، كان معرضاً عنهم ومنع المؤمنين من مكالمتهم وأمرهم باعتزال أزواجهم، وبقوا على هذه الحالة خمسين ليلة.

والمعنى: خلفوا عن التوبة حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها بالخلق جميعاً، خوفاً من العاقبة وجزعاً من إعراض النبي، ﷺ، والمؤمنين عنهم، وهجرهم إياهم في المجالسة والمحادثة، وهذا مثل للحيرة في الأمر، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه قال قائلهم:

كَأَنَّ فِجَاجَ ٱلأَرْضِ وَهِيَ فَسِيحَةٌ   عَلَىٰ ٱلْخَائِفِ ٱلْمَطْلُوبِ كَفَّةُ حَابِلِ

ثم ترقى وانتقل من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم فقال: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: وأخروا إلى أن ضاقت قلوبهم إذا رجعوا إلى أنفسهم لا يطمئنون بشيء، بسبب تأخير أمرهم من قبول التوبة.

والمعنى: وضاقت أنفسهم على أنفسهم لما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم، بامتلائها بالهم والغم حتى لا متسع فيها لشيء من البسط والسرور، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكاناً ترتاح إليه وتطمئن به.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: وأخروا إلى أن ظنوا وأيقنوا

وعلموا أنه لا ملجأ ولا منجا لأحد من سخطه تعالى وغضبه إلا إليه تعالى، بالتوبة والاستغفار ورجاءِ رحمته، وقد أعرض عنهم رسوله البرّ الرحيم بأصحابه، فلم يكونوا يستطيعون أن يطلبوا دعاءه، واستغفاره، إلا أنه ﷺ، لا يشفع في الدنيا، ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء الثلاثة؛ أي: ثم وفقهم التوبة الصحيحة المقبولة ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾؛ أي: ليحصلوا التوبة، وينشئوها، فبهذا المعنى تحصل المغايرة، ويصح التعليل. وفي «البيضاوي» ثم تاب عليهم بالتوفيق للتوبة ليتوبوا، أو أنزل قبول توبتهم ليعدوا من جملة التوابين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم، ا هـ.

وفي «الخازن» ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ فيما مضى، ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾؛ أي: ليكون ذلك داعياً لهم إلى التوبة في المستقبل، فيرجعوا ويداوموا عليها. وقيل: إن أصل التوبة الرجوع، ومعناه حينئذٍ: ثم تاب عليم ليتوبوا؛ أي: ليرجعوا إلى حالتهم الأولى، يعني: إلى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك، ا هـ ببعض تصرف. وفي «المراغي» ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ثم عطف عليهم وأنزل قبول توبتهم. ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته، واتباع رسوله، ﷺ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: الكثير القبول لتوبة التائبين، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الكثير الرحمة للمحسنين، المتفضل عليهم بضروب النعم، مع استحقاقهم لأعظم أنواع العقاب، ولما نزلت هذه الآية، خرج رسول الله، ﷺ، من حجرته وهو عند أم سلمة فقال: الله أكبر، قد أنزل الله عذر أصحابنا، فلما صلى الفجر، أخبر ذلك لأصحابه وبشرهم بأن الله تاب عليهم، فانطلقوا إلى رسول الله، ﷺ، وتلا عليهم ما نزل فيهم. وقال كعب بن مالك: توبتي إلى الله، أن أخرج عن مالي صدقة، فقال: لا، قلت: فنصفه، قال: لا، قلت: فثلثه، قال: نعم. وقصتهم مشهورة مذكورة في حديث رواه البخاري وغيره، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وراقبوه بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، ﴿وَكُونُواْ﴾ في الدنيا من أهل ولايته وطاعته تكونوا في

الآخرة، ﴿مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في الجنة، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب، ويؤيدونه بالحلف.

وقيل: ﴿مع﴾ هنا بمعنى من، بدليل القراءة الشاذة التي حكاها أبو السعود، والمعنى: كونوا من الصادقين في الأقوال والأفعال والاعتقاد. وفي قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ بعد قصة الثلاثة، الإشارة إلى أنّ هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق، ما حصل لهم من توبة الله تعالى، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم. أخرج الحاكم، عن ابن مسعود، عن النبي، ﷺ، أنه قال: «إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له اقرءوا إن شئتم» ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾. وأخرج البيهقي مرفوعاً: إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، إنه يقال: للصادق صدق وبر، ويقال: للكاذب كذب وفجر، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صادقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً. ولا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب، أو إصلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها؛ أي: في التحبب إليها بوصف محاسنها، ورضاه عنها لا في مصالح الدار والعيال وغيرها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، عن أسماء بنت يزيد، عن النبي، ﷺ، قال: «كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب، أو صلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها» ولا شك أن في المعاريض ما يغني العاقل عن الكذب، كما جاء في الحديث: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب».

وروي(١): أن رجلاً جاء إلى النبي، ﷺ، وقال: إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب، والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء، ولا طاقة لي على تركها بأسرها، فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت

---

(١) المراح.

بك، فقال ﷺ: «اترك الكذب» فقبل ذلك ثم أسلم. فلما خرج من عند النبي، ﷺ، عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت وسألني الرسول عن شربها وكذبت.. فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها. ثم عرضوا عليه الزنا، فجاء ذلك الخاطر فتركه، وكذا في السرقة، فتاب عن الكل فعاد إلى رسول الله، ﷺ، وقال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب، انسدت أبواب المعاصي عليَّ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿خلفوا﴾ بتشديد اللام مبنياً للمفعول. وقرأ أبو مالك: كذلك. وخفف اللام. وقرأ عكرمة بن هارون، المخزومي، وزر بن حبيش، وعمرو بن عبيد، ومعاذ القارىء، وحميد، بتخفيف اللام مبنياً للفاعل. ورويت عن أبي عمرو؛ أي؛ خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة. وقرأ أبو العالية، وأبو الجوزاء، كذلك مشدد اللام. وقرأ أبو زيد، وأبو مجلز، والشعبي، وابن يعمر، وعلي بن الحسين، وابناه زيد ومحمد الباقر وابنه جعفر الصادق: ﴿خالفوا﴾ بألف؛ أي: لم يوافقوا على الغزو. وقرأ الأعمش: ﴿وعلى الثلاثة المخلفين﴾ ولعله قرأ: كذلك على سبيل التفسير؛ لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: ﴿من الصادقين﴾ ورويت عن النبي، ﷺ، وقرأ زيد بن علي، وابن السميقع وأبو المتوكل ومعاذ القارىء: ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِيْنَ﴾ بفتح القاف وكسر النون على التثنية، ويظهر أنهما الله ورسوله لقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

الإعراب

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ (الواو): عاطفة ﴿الذين﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: ومنهم الذين اتخذوا، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾. ﴿ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿ضِرَارًا﴾: مفعول لأجله، أو مفعول ثانٍ ﴿لاتخذوا﴾. ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾: معطوفان عليه. ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تفريقاً﴾. ﴿وَإِرْصَادًا﴾: معطوف عليه أيضاً ﴿لِّمَنْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿إرصاداً﴾. ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بحارب.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ الواو: استئنافية. ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يحلفن﴾: فعل مضارع مرفوع، لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أَرَدْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة، جواب لجواب القسم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ جواب لقوله: ﴿ليحلفن﴾ فوقع جواب القسم المقدر فعل قسم مجاب بقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ انتهى. أو الجملة مقول لقول محذوف تقديره: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ قائلين ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: صفة لموصوف محذوف، واقع مفعولاً به ﴿لأردنا﴾ تقديره: إن أردنا إلا الخصلة الحسنى. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَشْهَدُ﴾ خبره والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب. والهاء: اسمها. ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿كاذبون﴾: خبر إن مرفوع بالواو، وجملة إن في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يَشْهَدُ﴾؛ لأنه بمعنى، يعلم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿لَا﴾: ناهية جازمة ﴿تَقُمْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وفاعله

ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ ﴿تَقُمْ﴾ ﴿لَمَسْجِدٌ﴾ اللام: حرف ابتداء أو لام قسم ﴿مسجد﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده، ﴿أُسِّسَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على مسجد، والجملة الفعلية صفة ﴿لَمَسْجِدٌ﴾. ﴿عَلَى التَّقْوَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿أُسِّسَ﴾. ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أُسِّسَ﴾. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو جواب لقسم محذوف. ﴿أَن تَقُومَ﴾: فعل وناصب، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: أحق بالقيام فيه ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم. ﴿رِجَالٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُحِبُّونَ﴾ صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾: والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ فعل وفاعل، وناصب، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليحبون، تقديره يحبون الطهارة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾.

﴿أَفَمَنْ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أبعد ما علم حالهم فمن أسس بنيانه على تقوى من الله إلخ. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿أَسَّسَ﴾: أو حال من فاعل ﴿أَسَّسَ﴾؛ أي: حالة كونه قاصداً تقوى الله ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: صفة لتقوى. ﴿وَرِضْوَانٍ﴾: معطوف على ﴿تقوى﴾. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة المذكورة آنفاً.

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿أَمْ﴾: متصلة عاطفة. ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَسَّسَ﴾ ﴿جُرُفٍ﴾ مضاف إليه ﴿هَارٍ﴾: صفة لـ ﴿جُرُفٍ﴾ مجرور بكسرة ظاهرة، أو مقدرة، كما سيأتي البحث عنه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى ﴿فَٱنْهَارَ﴾ الفاء: عاطفة ﴿انهار﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على البنيان. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿انهار﴾ والضمير يعود على الباني، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَسَّسَ﴾، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾: فاعله إما ضمير البنيان، والهاء في ﴿بِهِۦ﴾ على هذا. . ضمير المؤسس الباني؛ أي: فسقط بنيان الباني على شفا جرف هار، وإما ضمير الشفا، وإما ضمير الجرف؛ أي: فسقط الشفا أو سقط الجرف، والهاء في به للبنيان، ويجوز أن تكون للباني المؤسس، والأولى أن يكون الفاعل ضمير الجرف؛ لأنه يلزم من انهياره انهيار الشفا والبنيان جميعاً، ولا يلزم من انهيارهما أو انهيار أحدهما انهياره، والباء في ﴿بِهِۦ﴾: يجوز أن تكون للتعدية، وأن تكون للمصاحبة، وقد تقدم لك خلاف أول هذا الموضوع أن التعدية عند بعضهم، تستلزم المصاحبة، وإذا قيل: إنها للمصاحبة هنا فتتعلق بمحذوف؛ لأنها: حال؛ أي: فانهار مصاحباً له، ا هـ «سمين». ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿انهار﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: صفة للقوم، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿لَا يَزَالُ﴾: فعل مضارع ناقص من أخوات كان ﴿بُنْيَـٰنُهُمُ﴾: اسمها. ﴿ٱلَّذِى﴾: في محل الرفع، صفة لـ ﴿بُنْيَـٰنُهُمُ﴾. ﴿بَنَوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: الذي بنوه. ﴿رِيبَةً﴾: خبر زال، منصوب به ولكنه على حذف مضاف، تقديره: سبب ريبة وشك في الدين. ﴿فِى

قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿رِيبَةً﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من أعم الأوقات، أو ﴿إِلَّآ﴾ حرف بمعنى: إلى الجارة، كما قيل، ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مجرور بإضافة المستثنى المحذوف إليه، تقديره: لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم في جميع الأوقات، إلا وقت تقطع قلوبهم وتمزقها بالموت، أو في تأويل مصدر، مجرور بإلا بمعنى، إلى تقديره: لا يزال بنيانهم ريبة في قلوبهم إلى تقطع قلوبهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَزَالُ﴾ وجملة يزال مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿اشْتَرَىٰ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ ﴿اشْتَرَىٰ﴾ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَأَمْوَالَهُم﴾: معطوف عليه. ﴿بِأَنَّ﴾: الباء: حرف جرٍ و (أن): حرف نصب ومصدر ﴿لَهُمُ﴾: خبر أن مقدم على اسمها. ﴿الْجَنَّةَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة أن في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: بكون الجنة لهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿اشْتَرَىٰ﴾ ودخلت الباء هنا على المتروك على بابها، وسماها أبو البقاء: باء المقابلة، كقولهم: باء العوض، ذكره: في «الفتوحات». ﴿يُقَاتِلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان الاشتراء، ذكره: أبو السعود. ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿يقتلون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان البيع الذي يستلزمه الشراء، أو لبيان تسليم المبيع. ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿يَقْتُلُون﴾. ﴿وَعْدًا﴾: منصوب على المصدرية بفعل محذوف، تقديره: وعدهم ذلك وعداً، والجملة المحذوفة مستأنفة. مسوقة

لتأكيد ما قبلها. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿وَعْدًا﴾ ﴿حَقًّا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف، تقديره وحق ذلك الوعد حقاً، أي: تحقق، وثبت والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتأكيد ما قبلها، ويصح كون ﴿حَقًّا﴾ صفة لـ ﴿وَعْدًا﴾. ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿اشْتَرَى﴾ أو صفة لـ ﴿وَعْدًا﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه متعلق باشترى، وعلى هذا فتكون كل أمة قد أمرت بالجهاد، ووعدت عليه الجنة.

والثاني: أنه متعلق بمحذوف؛ لأنه صفة الوعد؛ أي: وعداً مذكوراً وكائناً في التوراة، وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكوراً في كتب الله المنزلة، اهـ «سمين». ﴿وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾: معطوفان على التوراة. ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾: الواو اعتراضية. ﴿من﴾: اسم استفهام، للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ ﴿أَوْفَى﴾ خبره مرفوع بضمة مقدرة، والجملة اعتراضية، مقررة لمضمون ما قبلها، من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه أوفى بالعهد من كل وافٍ، فإن إخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم، فكيف بجانب الخالق، اهـ أبو السعود. ﴿بِعَهْدِهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَوْفَى﴾ وكذلك يتعلق به قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾. ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾: الفاء: عاطفة. ﴿استبشروا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾. ﴿بِبَيْعِكُمُ﴾: متعلق به. ﴿الَّذِي﴾ صفة للبيع. ﴿بَايَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِ﴾: متعلق به والجملة صلة الموصول. ﴿وَذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿الْفَوْزُ﴾: خبر. ﴿الْعَظِيمُ﴾: صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

﴿التَّائِبُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أولئك المؤمنون هم التائبون، والجملة في محل الجر، صفة للمؤمنين في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ﴾: أخبار بعد خبر لذلك المبتدأ المحذوف. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ﴾ ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: متعلق به ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ﴾: معطوف على الآمرون أيضاً. ﴿لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾: متعلق به. ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان والجملة مستأنفة.

فائدة: وإنما عُطف قولهُ: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ على ما قبله للمضادة بينهما، إذ الأول طلب فعل، والثاني طلب ترك كما مر. وقيل: إنما عطفه بالواو إشارة إلى أن مدخولها هو الوصف الثامن، وذلك؛ لأنها عندهم تسمى: واو الثمانية وتدخل على ما يكون ثامناً، ا هـ شيخنا. وفي «أبي السعود»: والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة، كأنه قال: الجامعون بين الوصفين ا هـ ذكره في «الفتوحات».

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لِلنَّبِيِّ﴾: جار ومجرور. خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على النبي. وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلة الموصول. ﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن المصدرية ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً، تقديره: ما كان جائزاً للنبي، والذين آمنوا استغفارهم للمشركين، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله تقديره: ولو كانوا أولى ما يجوز استغفارهم لهم، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على جملة محذوفة، واقعة حالاً من المشركين، تقديرها: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين إن كانوا غير أولي قربى، ولو كانوا أولي قربى؛ أي: حالة كونهم مغايرين لأولي قربى، وموصوفين بالقرابة. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَانَ﴾: أو متعلق بـ ﴿يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾. ﴿مَا﴾

مصدرية. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿تَبَيَّنَ﴾ تقديره: من بعد ما تبين كونهم من أصحاب الجحيم، وجملة ﴿تَبَيَّنَ﴾ في تأويل مصدر، مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد تبين كونهم من أصحاب الجحيم.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

﴿وَمَآ﴾: الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿لِأَبِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱسْتِغْفَارُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة الفعلية صفة لـ ﴿مَّوْعِدَةٍ﴾، والتقدير: وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا كائنا عن موعدة وعدها إياه.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾، الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق به ﴿أَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر أن. ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿عَدُوٌّ﴾ وجملة، أن في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية، لـ ﴿تَبَيَّنَ﴾ تقديره: فلما تبين له كونه عدواً لله، والجملة الفعلية فعل شرط للما، لا محل لها من الإعراب. ﴿تَبَرَّأَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به، وجملة ﴿تَبَرَّأَ﴾ جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿أواه﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿حَلِيمٌ﴾: صفة ﴿أواه﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص،

واسمه. ﴿لِيُضِلَّ﴾، اللام: حرف جر وجحود. ﴿يضل﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير مستتر فيه، يعود على الله. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: وما كان الله لإضلاله قوما، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف، لوقوعه خبراً لـ ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الله مريداً لإضلاله قوماً، هذا على مذهب البصريين. وعند الكوفيين. فاللام زائدة، والتقدير: وما كان الله مضلاً قوماً وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿بَعْدَ﴾ منصوب على الظرفية ﴿إِذْ﴾: حرف بمعنى أن المصدرية. ﴿هَدَىٰهُمْ﴾: فعل ومفعول في محل النصب بإذ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: بعد هدايته إياهم، والظرف متعلق بـ ﴿يضل﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن إذ بمعنى أن.

الثاني: أنها ظرف بمعنى وقت، أي: بعد أن هداهم أو بعد وقت هداهم فيه، اهـ. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُبَيِّنَ﴾: منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى، بمعنى إلى، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُم﴾: متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما يتقونه، وجملة ﴿يُبَيِّنَ﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، بمعنى، إلى تقديره: حتى تبيينه لهم ما يتقون الجار والمجرور متعلق بيضل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ

ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع، خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿يُحْيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على الجملة الاسمية على كونها خبراً ﴿لإن﴾. وجملة قوله: ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوفة على ﴿يُحْيِۦ﴾. ﴿وَمَا لَكُم﴾، الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور، خبر مقدم. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿مِن﴾: زائدة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿لَّقَد﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿تَّابَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾: متعلق بـ ﴿تَّابَ﴾. ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾: معطوفان على النبي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة لكل من ﴿المهاجرين والأنصار﴾. ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ أيضاً. ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿كَادَ﴾: زائدة لفظاً، لا عمل لها وإن كان معناها مراداً بدليل قراءة ابن مسعود ﴿من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم﴾ ﴿يَزِيغُ﴾: فعل مضارع. ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾: فاعل، ومضاف إليه. ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لفريق، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾: المصدرية ﴿مَا﴾: مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد مقاربة زيغ قلوب فريق منهم. ﴿ثُمَّ تَابَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْهِمْ﴾. متعلق به. والجملة معطوفة على جملة تاب الأول ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِهِمْ﴾ تنازع فيه ما بعده؛ لأن التنازع يكون في المتأخر كما يكون في المتقدم. ﴿رَءُوفٌ﴾: خبر أول

لـ﴿إنَّ﴾ ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ له، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾: جار ومجرور، معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؛ أي لقد تاب الله على النبي والمهاجرين وعلى الثلاثة، أو معطوف على عليهم؛ أي: ثم تاب عليهم وعلى الثلاثة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للثلاثة. ﴿خُلِّفُواْ﴾: فعل، ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: زائدة. ﴿ضَاقَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بحتى بمعنى: إلى؛ لأن أن المصدرية مقدرة بعدها إذا جعلنا إذا زائدة، تقديره: خلفوا وأخروا عن التوبة إلى ضيق الأرض ﴿عَلَيْهِمُ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خُلِّفُواْ﴾. ﴿بِمَا﴾ الباء: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿رَحُبَتْ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الأرض، والجملة في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: برحبها، الجار والمجرور متعلق بضاقت. ﴿وَضَاقَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة قوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّا﴾: نافية للجنس. ﴿مَلْجَأَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر ﴿لَّا﴾: تقديره: إنه لا ملجأ موجود من الله، ويحتمل تعلق الجار والمجرور بملجأ، وخبر ﴿لَّا﴾: محذوف، تقديره: لا ملجأ من الله موجود وجملة ﴿لَّا﴾: من اسمها وخبرها، في محل الرفع خبر أن المخففة وجملة أن المخففة سادة مسد مفعولي ظن. ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾: ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور، بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ على كونه خبر ﴿لَّا﴾ مثل قولنا «لا إله إلا الله» كما ذكره أبو البقاء. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إلا إليه﴾

مستثنى من مقدر؛ أي: لا ملجأ لأحد ولا اعتماد على أحد إلا إليه تعالى، ا هـ من «السمين». ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: معطوف على ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ على كونه مجروراً بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾. ﴿لِيَتُوبُوٓا۟﴾ اللام: لام كي. ﴿يتوبوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: ثم تاب عليهم لتوبتهم، الجار والمجرور متعلق بتاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبر أول لإن. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة إن مستأنفة. مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع، صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكُونُوا۟﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿كونوا﴾ تقديره: وكونوا مصاحبين بالصادقين؛ أي: من الصادقين، وجملة كونوا معطوفة على جملة ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ على كونها جواب النداء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: الضرار والمضارة محاولة إيقاع الضرر، ﴿والإرصاد﴾: الانتظار والترقب مع العداوة، يقال: رصدته؛ أي: قعدت له على طريقه أترقبه، وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الحسنى مؤنث الأحسن، وهو صفة لموصوف محذوف، تقديره: إلا الخصلة الحسنى، أو إلا الحالة الحسنى، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لا تصل فيه.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾: أسس[1] على وزن فعل مضعف العين، وآسس على وزن فاعل، إذا وضع الأساس وهو معروف، ويقال فيه: أس والتأسيس وضع

---

(١) البحر المحيط.

الأساس للبناء ليقوم عليه ويرفع، والتقوى اسم لما يرضي الله ويقي من سخطه.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: أحق اسم التفضيل على غير بابه، أو المفاضلة باعتبار زعمهم، أو بالنظر له في ذاته فإن المحظور قصدهم ونيتهم، ا هـ «جمل». ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾: والبنيان مصدر، كالغفران، أطلق على المبنى كالخلق بمعنى، المخلوق، وقيل: هو جمع، واحده بنيانة، ذكره أبو حيان. ﴿شَفَا﴾، أي: حرف وفي «المصباح» وشفا كل شيء طرفه وحرفه مثل النوى، ا هـ. ﴿جُرُفٍ﴾، والجرف بضمتين جانب الوادي ونحوه، والجرف أيضاً البئر التي لم تطو. وقال أبو عبيدة: الجرف الهوة وما يجرفه السيل من الأودية. ﴿هَارٍ﴾: والهار والهائر كالشاك والشائك، الضعيف المتداعي للسقوط، يتداعى بعضه إثر بعض. وأصله[1] هاير أو هاور فقلبت الياء أو الواو همزة ثم حذفت الهمزة اعتباطاً فوزنه فال، فهو محذوف العين. وقيل: إنه منقوص، كقاض وأصله هاور، ثم نقلت الواو بعد الراء، ثم قلبت ياءً فصار كقاض، ثم حذفت الياء فإعرابه بحركات مقدرة عليها، ا هـ شيخنا. وفي «المختار» هار الجرف، من باب قال، وهوراً أيضاً، فهو هائر ويقال: أيضاً جرف هار، ا هـ. وفي «السمين» هار الجرف، فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو المشهور أنه مقلوب بتقديم لامه على عينه، وذلك أن أصله هاور أو هاير بالواو أو بالياء لأنه سمع فيه الحرفان قالوا: هار يهور ويهار وهار يهير، وتهور البناء وتهير فقدمت اللام وهي الراء على العين وهي الواو أو الياء، فصار كغاز ورام فأعل بالنقص كإعلالهما، فوزنه بعد القلب فالع ثم نزنه بعد الحذف على فال.

القول الثاني: أنه حذف عينه اعتباطاً؛ أي: لغير موجب، وعلى هذا فتجري وجوه الإعراب على لامه فيقال هذا هار ورأيت هاراً ومررت بهار ووزنه أيضاً فال.

(١) الفتوحات.

القول الثالث: أنه لا قلب فيه ولا حذف وأن أصله هور أو هير بوزن كتف فتحرك حرف العلة وانفتح ما قبله فقلب ألفاً، وعلى هذا فتجري عليه وجوه الإعراب أيضاً كالذي قبله، كما تقول هذا باب، ورأيت باباً، ومررت بباب ٍ وهذا أعدل الوجوه لاستراحته من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الأصل لولا أنه غير مشهور عند أهل التصريف، ومعنى هار؛ أي: ساقط متداع منهال ا هـ ﴿فَٱنْهَارَ﴾؛ أي: سقط. ﴿رِيبَةً﴾؛ أي: سبب ريبة وشك في الدين، والريبة من الريب. وهو اضطراب النفس وتردد الوهم والحيرة. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: يقال تقطع الشيء إذا تفرقت أجزاؤه، وتمزقت، وهو من باب تفعل الخماسي ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ﴾: والاستبشار: إظهار السرور، والسين: ليست للطلب بل للمطاوعة، كاستوقد وأوقد. وفي «الكرخي»، ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ﴾؛ أي: إفرحوا به غاية الفرح، واستفعل هنا، ليس للطلب، بل بمعنى، أفعل كاستوقد وأوقد، ا هـ. ﴿لأواه﴾؛ أي: يكثر التأوه وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه، ا هـ «بيضاوي». والتأوه، أن يقول الرجل عند الشكاية والتوجع: آه، ا هـ «زاده». وفي «المختار» وقد أوه الرجل تأويهاً وتأوه تأوهاً، إذا قال أَوَّهُ ا هـ. وفي «المراغي» الأواه الكثير التأوه والتحسر، أو الخاشع الكثير الدعاء والتضرع إلى ربه، وقيل: إنها كلمة حبشية الأصل، ومعناها: المؤمن أو الموقن، ا هـ.

وفي «السمين» والأواه الكثير التأوه، وهو من يقول أواه. وقيل: من يقول، أوه، وهو أنسب؛ لأن: أوه بمعنى، أتوجع فالأواه، فعال، مثال مبالغة من ذلك، وقياس فعله أن يكون ثلاثياً؛ لأن: أمثلة المبالغة إنما تطرد في الثلاثي، وقد حكى: قطرب فيه فعله ثلاثياً، فقال: يقال، آه يؤوه أوهاً، كقال يقول قولاً، وأنكر النحويون: هذا القول على قطرب، وقالوا: لا يقال من أوه بمعنى، أتوجع فعل ثلاثي، وإنما يقال: أوه تأويهاً، وتأوه تأوهاً ا هـ.

وعبارة الخازن: جاء في الحديث أن الأواه الخاشع المتضرع. وقال ابن مسعود: الأواه الكثير الدعاء. وقال ابن عباس: هو المؤمن التواب. وقال الحسن وقتادة: الأواه الرحيم بعباد الله. وقال مجاهد: الأواه الموقن وقال كعب

الأحبار: هو الذي يكثر التأوه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: أوه من النار، قبل أن لا ينفع أوه. وقال عقبة بن عامر: الأواه الكثير الذكر لله. وقال سعيد بن جبير: هو المسبح، وعنه: أنه المعلم للخير. وقال عطاء: هو الراجع عما يكره الله، الخائف من النار. وقال أبو عبيدة: هو المتأوه شفقاً وفرقاً، المتضرع يقيناً ولزوماً للطاعة. وقال الزجاج: انتظم في قول أبي عبيدة، جميع ما قيل، في الأواه، وأصله من التأوه، وهو أن يسمع للصدر صوت بتنفس الصعداء، والفعل منه أوه، وهو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه، والسبب فيه أنه عند الحزن تحمى الروح داخل القلب، ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخفف بعض ما به من الحزن والشدة.

وأما ﴿الحليم﴾: فمعناه ظاهر، وهو الصفوح عمن سبه، أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل إبراهيم مع أبيه حين قال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فأجابه إبراهيم بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ وقال ابن عباس: الحليم السيد ا هـ.

وعبارة المراغي: ﴿والحليم﴾ هو الذي لا يستفزه الغضب، ولا يعبث به الطيش، ولا يستخفه هوى النفس، ومن لوازم ذلك: الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور، واتقاء العجلة في الرغبة والرهبة، ا هـ.

﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾: الشدة والضيق ﴿تزيغ قلوب﴾ من زاغ القلب، مال عن الحق من زاغ يزيغ زيغاً، كباع يبيع بيعاً، ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾، يقال: رحب من باب ظرف رحباً، والرحب بضم الراء السعة، وبفتحها المكان المتسع، فمضمومها مصدر ومفتوحها مكان، ومنه يقال: فلان رحب الصدر، بضم الراء، واسعه وقولهم مرحباً وأهلاً؛ أي: أتيت سعة وأتيت أهلاً، فاستأنس ولا تستوحش ورحب به ترحيباً إذا قال له مرحباً. ﴿مَلْجَأً﴾، الملجأ؛ اسم مكان من لجأ إلى الحصن، أو غيره، من باب قطع، إذا لاذ إليه واعتصم به.

﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: الرأفة، العناية بالضعيف والرفق به، والرحمة: السعي في إيصال المنفعة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿أُسِّسَ﴾.

ومنها: جناس المحرف في قوله: ﴿أسس وأسس﴾ لاختلافهما في الشكل.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للتنبيه على علة الحكم، أي: سبب استحقاقهم الجنة هو إيمانهم، وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان، وهو الجنة ذكره أبو السعود، وفي قوله: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، لأن مقتضى السياق أن يقول أم من أسسه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾، وفي قوله: ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، وفي قوله: ﴿لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿تَابَ﴾.

ومنها: الجناس المحرف في قوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ لاختلافهما في الشكل سمي محرفاً لانحراف إحدى الهيئتين عن هيئة الآخر.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء؛ تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل، فهو مستعمل في معناه الحقيقي، أو مجاز، فتأسيس لبنيان بمعنى، إحكام أمور دينه أو تمثيل لحال من أخلص لله، وعمل الأعمال الصالحة، بحال من بنى شيئاً محكماً، مؤسساً يستوطنه، ويتحصن فيه، أو البنيان: استعارة أصلية والتأسيس: ترشيح، ا هـ «شهاب».

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾ هو كناية عن إحكام أمور دينه وترتيبها على ضلال وكفر ونفاق، وقوله: ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ المراد به هنا، الضلال وعدم التقوى.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ شبه بذلهم الأموال والأنفس، وإثابتهم عليها بالجنة، بالبيع والشراء بجامع المعاوضة في كل.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾ تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرورهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما.

ومنها: الطباق بين ﴿لِيُضِلَّ﴾ و ﴿إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ وكذلك بين ﴿يحيي ويميت﴾ وبين ﴿ضاقت ورحبت﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ إعتناءً بشأنه وإظهاراً لفضله.

ومنها: الاستفهام والحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟
بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا
يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ
لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا
رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ
يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما ذكر توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.. أكد هنا وجوب متابعة الرسول، والغزو معه لما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه.

وقال أبو حيان[2]: مناسبتها لما قبلها: أنه لما أمر المؤمنين بتقوى الله،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وأمر بكينونتهم مع الصادقين، وأفضل الصادقين رسول الله، ﷺ، ثم المهاجرون والأنصار. اقتضى ذلك موافقة الرسول وصحبته، أنى توجه من الغزوات والمشاهد، فعوتب العتاب الشديد من تخلف عن الرسول، ﷺ، في غزوة تبوك، واقتضى ذلك الأمر بصحبته، وبذل النفوس دونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد، مع بيان حكم العلم والتفقه في الدين، من قبل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان، وهو الركن الركين في الدعوة إلى الإيمان، وإقامة دعائم الإسلام، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حمايةً وسياجاً لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدي المعاندين والمعتدين من الكافرين والمنافقين.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن كلا النفيرين هو في سبيل الله، وإحياء دينه، هذا بالعلم، وهذا بالقتال، انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما حض المؤمنين على التفقه في الدين، وحرض على رحلة طائفة من المؤمنين فيه.. أمر تعالى المؤمنين كافة بقتال من يليهم من الكفار، فجمع من الجهاد جهاد الحجة وجهاد السيف. وقال بعض الشعراء في ذلك:

مَنْ لاَ يَعُدَّ لَهُ ٱلْقُرْآنَ كَانَ لَهُ ... مِنَ ٱلصَّغَارِ وَبِيْضِ ٱلْهِنْدِ تَعْدِيْلُ

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر فيما سبق بقتال المشركين كافة.. أرشدهم في هذه الآية إلى طريق السداد في هذا الباب، وهو أن يبدؤوا بقتال من يليهم، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد، وهكذا، وقد فعل النبي، ﷺ، وصحابته كذلك، فقد حارب قومه ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم إلى غزو الشام، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق، وكذلك

---

(١) البحر المحيط.

في أمر الدعوة، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ثم أمر بالدعوة العامة وقتال من يقف في طريقها من المشركين فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله[١] سبحانه وتعالى لما ذكر ضروباً من مخازي المنافقين، كتخلفهم عن غزوة تبوك وتعلقهم لذلك بالأيمان الفاجرة.. ذكر هنا ضروباً أخرى من تلك المثالب، كتهكمهم بالقرآن، وتسللهم لواذاً حين سماعه، وهذا آخر ما نزل مما يبين تأثير القرآن فيهم، وفي المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ...﴾ الآية، مناسبتها: أنه تعالىٰ لما ذكر أنهم[٢] بموتهم على الكفر رائحون إلى عذاب الآخرة.. ذكر أنهم أيضاً في الدنيا لا يخلصون من عذابها.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[٣] بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وقص فيها أحوال المنافقين شيئاً فشيئاً خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم، والمن عليهم بكونهم جاءهم رسول من جنسهم، أو من نسبهم، عربياً قرشياً يبلغهم عن الله، متصف بالأوصاف الجميلة، من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم.

وعبارة المراغي: مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما أمر رسوله في هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة.. ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف، فبين أن هذا الرسول منهم، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم، إلا أنه يشق عليه ضررهم وتعظم رغبته في إيصال خيري الدنيا والآخرة إليهم، فهو كالطبيب المشفق، والأب الرحيم عليهم، والطبيب الحاذق، ربما أقدم على علاج يصعب تحمله، والأب الرحيم

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ...﴾ الآية، أخرج[1] ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: لما نزلت آية ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد كان تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم، فقال المنافقون: قد بقي ناس في البوادي، هلك أصحاب البوادي فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾. وأخرج عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد إذا بعث رسول الله، ﷺ، سرية خرجوا فيها، وتركوا النبي، ﷺ، بالمدينة في رقة من الناس فنزلت.

التفسير وأوجه القراءة

وفي قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله، ﷺ؛ أي: ما صح ولا جاز لأهل المدينة عاصمة الإسلام ومقر رسول الله، ﷺ، ولا ينبغي لساكنيها من المهاجرين والأنصار، ﴿و﴾ لا لـ ﴿من حولهم من الأعراب﴾؛ أي: من سكان البوادي، كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم، ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، ﷺ، ويتأخروا عنه في الخروج للغزو في سبيل الله، كما فعل بعضهم في غزوة تبوك، ولا في غيره من شؤون الأمة ومصالح الملة، فإن السمع والطاعة لرسول الله ﷺ، واجب وكذلك غيره من الولاة والأئمة إذا ندبوا وعينوا. وإنما[2] خصهم الله سبحانه وتعالى بالذكر؛ لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ، ﴿وَلَا﴾ أن، ﴿يَرْغَبُوا۟﴾ ويتخلفوا، ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن﴾ صيانة وحفظ، ﴿نفسه﴾ ﷺ، الشريفة فيشحون بأنفسهم ويصونونها، ولا يشحون بنفس رسول الله، ﷺ، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ويجاهدوا بين يديه

---

(١) لباب النقول.

(٢) الشوكاني.

أهل الشقاق، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه؛ أي[1]؛ لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد، بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء، ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شدة.

والمعنى[2]: ولا ينبغي لهم أن يفضلوا أنفسهم على نفسه، فيرغبوا في الراحة والسلامة، ولا يبذلوها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة، بل عليهم أن يصحبوه في البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها فضلاً عن أن يربؤوا بأنفسهم عن متابعتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه.

والخلاصة: أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله، ﷺ، التي لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه.

وفي ذلك نهي شديد عن عملهم، وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته، ﷺ، بأنفة وحمية، والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما يفيده السياق من وجوب متابعته، ﷺ، والنهي عن التخلف عنه؛ أي: ذلك الوجوب والنهى عن التخلف عنه، ﷺ، ﴿بـ﴾ سبب، ﴿أنهم لا يصيبهم﴾ ولا ينالهم في سفرهم ولا غزواتهم، ﴿ظَمَأٌ﴾ ولا عطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعب. وقرأ عبيد بن عمير: ﴿ظماأ﴾ بالمد مثل سفه وسفاها. وقرأ غيره: بالقصر وهما لغتان، مثل خطأ وخطاء. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ ولا مجاعة ولو يسيراً، وكذا يقال، فيما قبله، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته والجهاد لإعلاء كلمته، ﴿ولا يطئون﴾؛ أي: ولا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف بعيرهم ﴿مَوْطِئًا﴾؛ أي: دوساً ووطئاً، ﴿يَغِيظُ﴾ ويغضب، ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ ويضيق صدورهم أو لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار يغيظهم الدوس فيها، يعني: ولا يضعون قدماً على الأرض يكون ذلك القدم سبباً لغيظ الكفار، وغمهم وحزنهم. وقرأ زيد بن علي: ﴿يغيظ﴾ بضم الياء ﴿وَلَا

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.

يَنَالُونَ﴾؛ أي: ولا يصيبون ﴿من عدو﴾ وكفار، ﴿نيلا﴾؛ أي: إصابة أسراً أو قتلاً أو هزيمةً أو غنيمةً، أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: إلا حالة كونهم يكتب لهم بكل واحد من الأمور الخمسة، ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وثواب حسن جزيل؛ لأن من قصد طاعة الله تعالى، كان جميع حركاته وسكناته حسنات مكتوبةً له عند الله تعالى. وجملة[1] كتب، حالية فهذا التركيب نظير قولك: ما جاء زيد إلا راكباً، ا هـ شيخنا. وفي «أبي السعود» ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: بكل واحد من الأمور المعدودة عمل صالح، وحسنة مقبولة، مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى، ا هـ.

والمعنى: أي لم[2] يكن لهم حق التخلف، بل يجب عليهم الاتباع بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذًى وإن كان قليلاً كظمأ لقلة الماء أو نصب لبعد الشُّقَّة أو لقلة الظهر، أو مجاعة لقلة الزاد، ومن إيذاء للعدو وإن صغر كوطء أرضه الذي يعده استهانة بقوته، فيغيظه أن تمسه أقدام المؤمنين، أو حوافر خيولهم، أو النيل منه بجرح، أو قتل أو أسر أو هزيمة، أو غنيمة إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يجزى عليه بالثواب العظيم، وما أكثر هذه الأعمال الصالحة التي تشمل كل حركة من بطشة يد، أو وطأة قدم، أو عروض جوع، أو عطش أو نحو ذلك، ولما كان الظمأ أشق الأشياء المؤذية للمسافر بكثرة الحركة وإزعاج النفس وخصوصاً في شدة الحر كغزوة تبوك، بدىء به أولاً، وثنى بالنصب وهو التعب؛ لأنه الكلال الذي يلحق المسافر والإعياء الناشىء من العطش والسير، وأتى ثالثاً بالجوع لأنه حالة يمكن الصبر عليها الأوقات العديدة، بخلاف العطش والنصب المفضيين إلى الخلود والانقطاع عن السفر، فكان الإخبار بما يعرض للمسافر أولاً فثانياً فثالثاً، ذكره أبو حيان.

وفي الآية إيماء إلى أن من قصد خيراً كان سعيه فيه من قيام أو قعود أو مشي أو كلام، أو نحو ذلك مشكوراً مثاباً عليه وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.

الحرب يشارك الجيش في الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغيظهم، ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لا يضيع أجر المحسنين﴾؛ أي: لا يبطل ولا يترك ثوابهم؛ أي: لا يترك إثابتهم على إحسانهم وهو تعليل[1] لكتب، وتنبيه على أن الجهاد إحسان، أما في حق الكفار؛ فلأنه سعى في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب المداوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين؛ فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم؛ أي: إن الله تعالى لا يضيع محسناً أحسن في عمله، فأطاعه فيما أمره به، وانتهى عما نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه، ويثيبه على صالح عمله، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة، ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل ما فعلوا، فلم يضع لهم أجراً على عمل عملوه.

والخلاصة: أن هؤلاء محسنون ولا يبطل ثوابهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله، ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة أو علاقة سوط، ﴿وَلَا﴾ نفقة ﴿كبيرة﴾ كما أنفق عثمان في جيش العسرة، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ من الأودية؛ أي: ولا يجاوزون في مسيرهم في سبيل الله وادياً مقبلين، أو مدبرين فيه، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾؛ أي: إلا كتب الله لهم آثارهم وخطاهم، ونفقاتهم في صحائف أعمالهم، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لكي يجزيهم الله تعالى الجزاء الحسن؛ والثواب الوافر على جميع ما يعملونه في سبيل الله تعالى، قليلاً أو كثيراً.

والمعنى: أي كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أو كبر، قل أو كثر، وفي كل وادٍ يقعطونه في سيرهم غادين، أو رائحين إلا كتب لهم أجرهم على ذلك جزاءً لهم على عملهم، ولا يترك شيء منه أو ينسى ليجزيهم بكتابته في صحف أعمالهم، كأحسن ما يجزيهم على خير أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر، جزاءً أحسن من

---

(١) البيضاوي.

جزائهم على أعمالهم الجليلة، في غير الجهاد بالمال والنفس، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من أنواع المبرات، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحة.

فصل في ذكر الأحاديث المناسبة للآية

عن سهل بن سعد الساعدي، أن رسول الله، ﷺ، قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»، وفي رواية «وما فيها» متفق عليه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ، «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيل الله، وإيماناً بي وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنّة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل». متفق عليه، هذا لفظ مسلم وللبخاري بمعناه.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: أتى رجل رسول الله، ﷺ، فقال: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»، قال: ثم من؟ قال: «ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله». متفق عليه. وفي رواية، «يتقي الله ويدع الناس من شره».

وعن أبي هريرة، أن رسول الله، ﷺ، قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات» أخرجه البخاري.

وعن ابن عباس، أن رسول الله، ﷺ، قال: «ما اغبرت قدما عبد في سبيل

الله فتمسه النار». أخرجه البخاري.

وعن أبي مسعود الأنصاري البدري، قال: جاء رجل بناقة مخطومة إلى رسول الله، ﷺ، فقال: «هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة كلها مخطومة» أخرجه مسلم.

وعن خريم بن فاتك، قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله، كتب الله له سبع مئة ضعف» أخرجه الترمذي والنسائي.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى[1]: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾. فذهب جماعة: إلى أنه من بنية أحكام الجهاد؛ لأنه سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد، والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله، ﷺ، سريَّة إلى الكفار، ينفرون جميعاً، ويتركون المدينة خاليةً، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك؛ أي: أن ينفروا جميعاً. وذهب آخرون: إلى أن هذه الآية، ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والنفقة في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دل على وجوب الخروج للجهاد، فيكون السفر نوعين:

الأول: سفر الجهاد.

والثاني: السفر لطلب العلم، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر، والفقه هو العلم بالأحكام الشرعية، وبما يتوصل به إلى العلم بها، من لغة ونحو وصرف وبيان، وأصول؛ أي: وما كان ينبغي أن يفعل المؤمنون النفر والخروج للجهاد جميعاً، ويتركوا المدينة خالية، ورسول الله، ﷺ، منفرد وحده؛ لأن ذلك يخل بأمر المعاش ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾؛ أي: فهلا خرج للجهاد، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من كل قبيلة منهم، ﴿طَآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة ليقوموا بواجب الجهاد، وبقيت طائفة أخرى منهم، في المدينة مع رسول الله، ﷺ، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لتتعلم

---

(١) الشوكاني.

تلك الباقية أحكام دينهم من النبي، ﷺ، ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ ويبشروا، ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين خرجوا للجهاد بما تعلموا من النبي، ﷺ، ﴿إِذَا رَجَعُوٓا﴾؛ أي: إذا رجع الخارجون من الغزو، ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى الباقين في المدينة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾؛ أي: لكي يحذر الخارجون بسبب تعليمهم إياهم، ويخافوا عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

فالمعنى[1]: ما ينبغي ولا يجوز للمؤمنين أن ينفروا جميعاً، ويتركوا النبي، ﷺ، وحده، بل يجب أن ينقسموا قسمين: طائفة تكون مع رسول الله، ﷺ، وطائفة تنفر إلى الجهاد؛ لأن ذلك هو المناسب للوقت إذ كانت الحاجة داعية إلى هذا الانقسام، قسم للجهاد، وقسم لتعلم العلم والفقه في الدين؛ لأن أحكام الشريعة كانت تتجدد شيئاً بعد شيء، والماكثون يحفظون ما تجدد، فإذا قدم الغزاة علموهم ما تجدد في غيبتهم.

وفي قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد، والتبسط في البلاد، كما هو دأب أبناء الزمان، ا هـ «أبو السعود».

والخلاصة: وما كان من شأن المؤمنين، ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط عن الباقين، لا فرض على كل شخص، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد. فهلا خرج، ونفر من كل فرقة كبيرة منهم، كأهل بلد، أو قبيلة طائفة وجماعة منهم، وتبقى طائفة أخرى للتفقه في الدين، بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين، بما يتجدد نزوله على الرسول، ﷺ من الآيات، وما يكون منه ﷺ، من بيانها بالقول والعمل، فيعرف الحكم مع حكمته ويوضح المجمل بالعمل به، ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم؛ أي: ليجعلوا أهم قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم، وإنذارهم عاقبة

---

(١) الفتوحات.

الجهل، وترك العمل بما علموا رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته، والحجاج عنه وبيان أسراره للناس، لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية، والترفع عن سواد الناس وكسب المال والتشبه بالظلمة والجبارين في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً.

وفي الآية، إشارة إلى وجوب التفقه في الدين، والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة، وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد، لهم عند الله تعالى من سامي المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال، والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله، والذود عن الدين والملة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون الدفاع فيها واجباً عينياً على كل شخص.

فصل في ذكر الأحاديث الدالة على فضل التفقه في الدين

وعن معاوية بن أبي سفيان، قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطي الله، ولم يزل أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي أمر الله» متفق عليه.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» متفق عليه. وعن ابن عباس، أن رسول الله، ﷺ، قال: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» أخرجه الترمذي.

وعن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» أخرجه الترمذي. وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» أخرجه الترمذي.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» أخرجه الترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي، ﷺ، قال: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة». أخرجه أبو داود.

والآية المحكمة: هي التي لا اشتباه فيها، ولا اختلاف في حكمها أو ما ليس بمنسوخ، والسنة القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك، والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في قضائها.

قال الفضيل بن عياض: عالم عامل معلم يدعى عظيماً في ملكوت السموات، وأخرجه الترمذي موقوفاً. وقال الإمام الشافعي: طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة.

ولما أمرهم الله سبحانه وتعالى بقتال المشركين كافة، أرشدهم إلى الطريق الأصلح، وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله، ﴿قَٰتِلُواْ﴾ الأقوام، ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ ويقربونكم، ﴿مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ أي: قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام في الدار والبلاد والنسب. وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة؛ لأن قتالهم دفعة واحدة لا يتصور؛ ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين، والدفاع عن أهله، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

وهذا الترتيب أولى، لوجوه كثيرة:

منها: قلة النفقات والحاجة فيه إلى الدواب والآلات، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذراري والضعفاء، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع في الدعوة والنفقات والصدقات، وما يدار في المجالس من شراب ونحوه، فكان النبي، ﷺ، يعطي من على يمينه، وإن لم يكن أفضل الجالسين، ثم الذي يليه ثم الذي يليه، وقال للأعرابي الذي كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة: «كل مما يليك».

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ﴾؛ أي: وليدرك الكفار فيكم أيها المؤمنون ﴿غِلْظَةً﴾؛ أي: شدةً عظيمةً وخشونة، وجرأة وصبراً على القتال وعنفاً في القتال والأسر ونحو ذلك، كما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. والغلظة في زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة، لما فيها من شدة الزجر والمنع عن القبيح.

وفي الآية إيماءٌ إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين وآخر إلى العنف والشدة، لا أن يقتصر على الغلظة فحسب، فإن ذلك مما ينفر، ويوجب تفرق الناس عنهم. وإنما أمروا بذلك في القتال، وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام للإرشاد، إلا أنه يجب أن تكون حالهم في الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة في المعاملة، ومن ثم صار ذلك من أخص صفات المسلمين. وقرأ الجمهور: ﴿غِلْظَةً﴾ بكسر الغين، وهي لغة أسد. وقرأ الأعمش، وأبان بن تغلب، و المفضل، كلاهما عن عاصم، بفتحها، وهي لغة الحجاز. وأبو حيوة، والسلمي، وابن أبي عبلة، والمفضل، وأبان أيضاً، بضمها وهي لغة تميم. وعن أبي عمرو ثلاث اللغات ذكره أبو حيان.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الله بالمعونة، والنصرة على أعدائهم، والمراد أن يكون الإقدام على الجهاد بسبب تقوى الله، لا بسبب طلب المال والجاه؛ أي: واعلموا أن الله سبحانه وتعالى معكم أيها المؤمنون بالمعونة والنصر، إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه وابتعدتم عن التقصير في أسباب النصر والغلب، من إعداد العدة المناسبة للزمان والمكان التي عناها الله تعالى بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ومن الثبات والصبر والطاعة وحسن النظام وترك التنازع والاختلاف وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن، والحال أن المنافقين ليسوا حاضرين مجلس نزولها، وليس في السورة فضيحة لهم، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾؛ أي: فمن المنافقين فريق، يقول لأصحابه استهزاءً أو للمؤمنين: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ﴾ السورة، ﴿إِيمَـٰنًا﴾؛ أي: تصديقاً ويقيناً. وقرأ الجمهور: ﴿أَيُّكُمْ﴾ بالرفع. وقرأ

زيد بن علي، وعبيد بن عمير، ﴿أَيُّكُمْ﴾ بالنصب على الاشتغال، والنصب فيه عند الأخفش أفصح، كما هو بعد أداة الاستفهام نحو: أزيداً ضربته؛ أي: وإذا أنزل الله تعالى على رسوله، ﷺ، سورة من سور كتابه الكريم، فمن المنافقين من يقول لإخوانه، على سبيل الاستهزاء والسخرية هذه المقالة، ليثبتوا على النفاق، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككاً لهم، ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: من الذي زادته هذه السورة يقيناً بحقية القرآن والإسلام وصدق الرسول محمد، ﷺ؛ أي: أيكم زادته تصديقاً جازماً مقترناً بإذعان النفس، وخضوعاً وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذي أنزلت عليه.

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول، ﷺ ولا سيما من يحضر نزوله ويسمعه منه، وكذا يزيد بسماعه من غيره في قلب المؤمن قوة إذعان، ورغبة في العمل والقرب من الله تعالى قال تعالى مجيباً عن هذا السؤال مبيناً حالهم وحال المؤمنين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله تعالى، وبما جاء من عنده، ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾ بانضمام إيمانهم، بما فيها بإيمانهم السابق؛ لأنهم يقرون عند نزولها بأنها حق من عند الله تعالى، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية.

أي: فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين، واطمئنان القلب، ويزيدهم قوة في العمل به، والتقرب إلى ربهم وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب، وكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله، وإن النّفاق يبدو لمعة سوداء في القلب، وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله، وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود، ا هـ «خازن».

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نفاق وسوء عقيدة، ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه السورة، ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: عقيدة باطلة إلى عقيدتهم الباطلة، فإنهم

كانوا مكذبين بالسور النازلة قبل ذلك، والآن صاروا مكذبين بهذه السورة الجديدة، فقد انضم كفر إلى كفر، وإنهم كانوا في العداوة واستنباط وجوه المكر، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة، ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ وهذه الحالة أقبح من الحالة الأولى، فإن الأولى ازدياد الرجاسة، وهذه مداومة الكفر وموتهم عليه؛ أي وأما[1] الذين في قلوبهم شك وارتياب دعاهم إلى النفاق بإسرار الكفر، وإظهار الإسلام فزادتهم كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق، واستحوذ ذلك عليهم واستحكم فيهم إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق، على مقتضى سننه تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس، وتغيير هواجس الفكر، ثم عجب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ والهمزة[2]: فيه للاستفهام التوبيخي على قراءة الياء في يرون وللاستفهام التعجيبي على قراءة التاء فيه. والخطاب فيه للمؤمنين، وهي داخلة على محذوف والواو عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أيجهلون ولا يرون؛ أي؛ يجهل المنافقون ولا يرون أنهم يختبرون في كل عام بأنواع البليات، من المرض والجوع، ومن إظهار الفضيحة على نفاقهم، وعلى تخلفهم من الغزو مرة أو مرتين فأكثر، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: يتعظون بتلك الفتن الموجبة للتوبة، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ وما بعده معطوف على لا يرون على قراءة الياء التحتية داخل تحت الإنكار والتوبيخ، وعطف على ﴿يُفْتَنُونَ﴾ على قراءة التاء الفوقية.

أي: أيجهلون[3] هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاماً بعد عام، من ضروب الابتلاء والاختبار التي تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر، والتفرقة بين الحق والباطل، ولا ينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول، ﷺ، في كل ما أخبر به، من نصر الله لمن اتبعه، وخذلان أعدائه،

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

ووقوع ما أنذرهم به، ومن إنباء الله بما في قلوبهم، وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم.

ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام بعد الأعوام، ولا يتوبون من نفاقهم، ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان، وانطفاء نور الفطرة؛ ولله در القائل:

قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ منْ رمدِ ... وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سقمِ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء والضمير فيه يعود على الذين في قلوبهم مرض. وقرأ حمزة ﴿ترون﴾ بالتاء، خطاباً للمؤمنين. والرؤية يحتمل أن تكون من رؤية القلب ومن رؤية البصر. وقرأ أبي وابن مسعود والأعمش: ﴿أو لا ترى﴾؛ أي: أنت يا محمد. وعن الأعمش أيضاً: ﴿أولم تروا﴾. وقال أبو حاتم عنه: ﴿أولم يروا﴾. وقرأ ابن مسعود ﴿ولا هم يتذكرون﴾.

وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة في المنافقين، وهم غائبون عن مجلس الرسول ﷺ بين حالهم وهم في مجلسه، ﷺ، حين نزولها واستماع تلاوته لها، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها بيان حالهم، وكانوا حاضرين مجلس نزولها ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تغامزوا بالعيون، يدبرون الهرب ليتخلصوا عن تأذي سماعها، يقولون بطريق الإشارة: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين إن قمتم من المجلس، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا۟﴾ جميعاً عن مجلس نزول الوحي؛ خوفاً من الافتضاح أو غير ذلك. والمعنى؛ أي: وإذا أنزلت سورة وهم في المجلس، تسارقوا النظر وتغامزوا بالعيون على حين تخشع أبصار المؤمنين، وتنحني رؤوسهم، وتشاوروا في الانسلال من المجلس، خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار قائلاً بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: هل يراكم الرسول، ﷺ، أو المؤمنون إذ قمتم من المجلس، ثم انصرفوا جميعاً عن مجلس نزول الوحي، متسللين لواذاً، كراهة منهم لسماعه، وانتظاراً لسنوح

(١) البحر المحيط.

فرصة الغفلة عنهم، فكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان وعن استماع القرآن ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم قوم لا يفقهون﴾ ولا يفهمون ما يسمعون من الآيات لسوء فهمهم وعدم تدبرهم؛ أي: صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق، والاسترشاد بآيات كتابه، إلى ما في ملكوت السموات والأرض، من دلائل قدرته، وهذه الجملة إما إخبار بذلك، أو دعاء عليهم به، والمآل في هذه واحد في كلامه تعالى.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق، وما يترتب عليها من الأعمال، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل في معانيها، مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل؛ لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به، من غير بحث ولا تأمل، أحق هو أم باطل، أخير هو أم شر، وأنى لمثل هؤلاء، وتلك حالهم أن يهتدوا بنزول الآيات والسور؛ وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ وبعث إليكم يا معشر العرب، ﴿رسولٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم بشر عربي قرشي مثلكم. وقرىء[١]: بفتح الفاء؛ أي: من أشرفكم وأفضلكم. قيل: هذه قرءاة فاطمة وعائشة رضي الله عنهما.

وإلى[٢] كون هذه الآية خطاباً للعرب، ذهب جمهور المفسرين؛ وقال الزجاج: هي خطاب لجميع العالم، والمعنى، لقد جاءكم ﴿رَسُولٌ مِّنْ﴾ جنسكم في البشرية، إذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه، والأخذ عنه.

وحاصل المعنى على القول الأول: أي[٣] لقد جاءكم يا معشر العرب رسول من جنسكم ونسبكم، والآية بمعنى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

ذاك أن منته على قومه أعظم وحجته بكتابه أنهض، وأولى قومه به قبيلته قريش ثم عشيرته الأقربين، بنو هاشم وبنو المطلب، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب، فآمن العرب بدعوته مباشرة، وآمن العجم بدعوة العرب، والعرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه، ﷺ له، بالتبليغ والعمل، وبما شاهدوا من آيات الله في شخصه، وقد امتن عليه[1] وعلى قومه بالقرآن المجيد فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي: وإنه لشرف لك ولهم، تُذْكَرُون به في العالم، ويدون لكم في بطون الكتب والدفاتر وإنما قاومه أكابر قومه أنفةً واستكباراً عن اتباعه، إذ هم يرونه دونهم، إلَّا أنَّ في اتباعه إقراراً بكفرهم وكفر أبائهم الذين يفاخرون بهم، إلَّا أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتِّباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة. ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: شاق شديد، ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على هذا الرسول الكريم، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: ما أثمتم وأذنبتم فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب، لكونه من جنسكم ومبعوثاً لهدايتكم، والعنت التعب لهم، والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه، أو بعذاب الآخرة في النار أو بمجموعهما. والظاهر[2]، أن ما مصدرية، في موضع الفاعل بعزيز، أي: يعز عليه عنتكم ومشقتكم، كما قال الشاعر:

يَسُرُّ ٱلْمَرْءَ مَا ذَهَبَ ٱللَّيَالِيْ ... وَكَانَ ذَهَابُهُنَّ لَهُ ذَهَابَا

أي: يسر المرء ذهابُ الليالي؛ أي: شديدٌ عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه؛ لأنه منكم، فليس من الهين عليه أن تكونوا في الدنيا أمة ذليلة يعنتها أعداؤها بالسيطرة عليها، والتحكم فيها، ولا أن تكونوا في الآخرة من أصحاب النار التي وقودها الناس والحجارة.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾؛ أي: شديد الحرص والرغبة في اهتدائكم، وإيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة، أو حريصٌ

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وشحيح عليكم بأن تدخلوا النار. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبرسوله؛ أي: بجميعهم، ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: شديد الرأفة والشفقة بالمطيعين وكثير الرحمة والإصلاح بالمذنبين. وقيل: رؤوف بمن رآه، رحيم بمن لم يره. وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بغيرهم، ذكره في «البحر». فكل ما يدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له، وكل شاق منها، كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه.

وقال الحسن بن المفضل: لم يجمع الله سبحانه وتعالى لنبي من أنبيائه اسمين من أسمائه، إلا لنبينا محمد، ﷺ، فإنه قال فيه؛ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال تعالى في حق نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقرأ ابن عباس[١]، وأبو العالية والضحاك وابن محيصن، ومحبوب عن أبي عمرو، وعبد الله بن قسيط، المكي، ويعقوب من بعض طرقه: ﴿من أنفسكم﴾ بفتح الفاء. ورويت هذه القراءة عن رسول الله، ﷺ، وعن فاطمة وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ كما مر، والمعنى، من أشرفكم وأعزكم، وذلك من النفاسة، وهو راجع لمعنى النفس، فإنها أعز الأشياء. وقرىء «رؤوف» بالمد؛ أي: بزيادة واو بعد الهمزة وبالقصر؛ أي: بحذف الواو قراءتان سبعيتان في هذه الكلمة حيثما وقعت في القرآن.

ثم قال الله سبحانه وتعالى[٢] مخاطباً لرسوله محمد ﷺ، ومسلياً له ومرشداً له، إلى ما يقوله عندما يعصى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: فإن[٣] تولى هؤلاء المنافقون والكفار عن الإيمان والتوبة، وناصبوك الحرب؛ أي: فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك، والاهتداء بما جئتهم به، ولم يعملوا به، ولا قبلوه بعد هذه الحالة التي منّ الله سبحانه وتعالى عليهم بها، من إرسالك إليهم، واتصافك بهذه الأوصاف الجميلة، ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد: ﴿حَسْبِيَ﴾ وكافيَّ، ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

المنفرد بالألوهية؛ أي: فالله سبحانه وتعالى هو كافيَّ من شرهم، فإنه يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم، وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله فقد بلغت وما قصرت، ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ولا حافظ ولا ناصر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة، وهو الكافي والمعين، ﴿عَلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره، ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾ واعتمدت، وإليه أموري فوضت لا إلى غيره، فلا أكل أمري فيما عجزت عنه إلى غيره، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: مالك وخالق العرش، ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ وصفه بالعظم؛ لأنه أعظم المخلوقات، ولأجل عظمه خصه بالذكر، مع أن الله سبحانه وتعالى رب كل شيء، فذكره أمدح للباري. وقد قرأ[1] الجمهور: ﴿العظيم﴾ بالجر على أنه صفة للعرش، ومعنى عظمه، كبر جرمه واتساع جوانبه. وقرأ ابن محيصن: ﴿العظيم﴾ برفع الميم على أنه صفة لرب. وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير. ومعنى عظمه تعالى، تنزهه عن جميع النقائص واتصافه بجميع الكمالات. وقال أبو[2] بكر الأصم: وهذه القراءة أعجب إليّ؛ لأن جعل العظيم صفةً لله تعالى أولى من جعله صفة للعرش، اهـ والعرش[3]، مركز تدبير أمور الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ وعظمته بعظمة الرب الذي استوى عليه، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره، وعظمة العرش والملك في الملأ الأعلى، وفيما دونه، هي مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى. ودليل على أنه وحده الإله الحق، الذي لا ينبغي أن يعبد غيره، ولا يتوكل على سواه وهو المالك للعالم كله والمدبر لهم.

روى[4] أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم، عن زيد بن ثابت، في جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر، أنه قال: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ...﴾ إلى آخرها، يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

في الرقاع والأكتاف والعُسُب إلا عنده، وقد كانتا محفوظتين معروفتين للكثير كما صُرح ذلك في الروايات الأخرى.

فقد أخرج ابن أبي داود في «المصاحف»، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إلى عمر، فقال: من معك على هذا؟ فقال: لا أدري، والله إني أشهد لسمعتهما من رسول الله، ﷺ، ووعيتهما وحفظتهما، فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله، ﷺ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة، فانظروا سورةً من القرآن فألحقوها بها، فألحقت في آخر براءة وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، أن رجلاً من الأنصار جاء بهما عمر، فقال عمر: لا أسألك عليها بينة أبداً، كذلك كان رسول الله، ﷺ، يقرؤها.

ومن هذه الروايات يعلم، أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين، إلا أنهم اختلفوا في موضعهما، ففي بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي، ﷺ. وفي بعضها أنهما وضعتا بالرأي والاجتهاد، ولكن المعتمد هو الأول؛ لأن من حفظ بالتوقيف حجة على من لم يحفظ. قال الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»: إن زيداً لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه، ولا يقتصر على حفظه، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره، وحسبك دليلاً على ذلك قوله: إنهم كانوا يسمعون رسول الله، ﷺ، يقرؤها فهو صريح في أن البحث عمن كتبها فقط، ا هـ فجملة القول أن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة، وإنما اختلفوا حين الجمع، في موضع كتابتهما، حتى شهد من شهد أن النبي، ﷺ، هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقاً لقول أبيّ بن كعب، وهو أحد الذين تلقوا القرآنَ كُلَّه مرتباً عن النبي، ﷺ، وكذا زيد بن ثابت، وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلاً، فلما كتبتا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا، ولم يروا أيَّ اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم، كابن مسعود رضي الله عنه.

فائدة: وفي كتاب أبي داود عن أبي الدرداء، قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، كفاه الله تعالى ما أهمه، ذكره في «البحر».

الإعراب

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماضٍ ناقص. ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ على اسمها. ﴿وَمَنْ﴾ اسم موصول، معطوف على أهل المدينة. ﴿حَوْلَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستقر في الظرف. ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً، تقديره: ما كان التخلف عن رسول الله جائزاً لأهل المدينة ومن حولهم، ولا لائقاً بهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟﴾: الواو: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرْغَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَتَخَلَّفُوا۟﴾ ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وكذلك، يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ والتقدير: ولا الرغبة بأنفسهم عن نفسه كائناً. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾، الباء: حرف جر وسبب. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ معطوفان على ظمأ. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بيصيب، أو حال من ضمير المفعول في ﴿يُصِيبُهُم﴾ وجملة يصيب، في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، ولكنه خبر سببي، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره؛ ذلك بسبب عدم إصابة ظمأ ولا نصب ولا مخمصة ﴿في سبيل الله﴾، الجار والمجرور، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك النهي عن التخلف،

كائن بسبب عدم إصابتهم ظمأ ولا نصب، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿مَوْطِئًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَوْطِئًا﴾ والجملة في محل النصب، صفة لـ ﴿مَوْطِئًا﴾. ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف أيضاً على ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ متعلق به. ﴿نَّيْلًا﴾ منصوب على المصدرية. ﴿إِلَّا كُتِبَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وكذا يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ ﴿عَمَلٌ﴾: نائب فاعل ﴿صَـٰلِحٌ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من مفعول ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ ومن فاعل ﴿يطئون وينالون﴾ وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾: جملة ﴿كُتِبَ﴾ حالية، فهذا التركيب نظير قولك: ما جاء زيد إلا راكباً، ا هـ شيخنا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الجلالة، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر إن، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، في محل الرفع معطوف على قوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿نَفَقَةً﴾: مفعول به ﴿صَغِيرَةً﴾: صفة لها ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾: معطوف على ﴿صَغِيرَةً﴾ ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿وَادِيًا﴾ مفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على المذكور من كل واحد من الأمرين، النفقة وقطع الوادي. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من النفقة، وقطع الوادي؛ أي: إلا حالة كونهما مكتوبين لهم.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول أول وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿أَحْسَنَ مَا﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل، تقديره: لجزاء الله إياهم أحسن ما كانوا يعملون، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كُتِبَ﴾ ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يعملونه.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: الواو: استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيَنفِرُوا۟﴾؛ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿ينفروا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، لوقوعه بعد ﴿كَانَ﴾ المنفية بما. ﴿كَآفَّةً﴾: حال من واو ينفروا؛ أي: حالة كونهم مجتمعين، وجملة ينفروا، صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور باللام المتعلقة بمحذوف خبر كان، تقديره: وما كان المؤمنون مريدين النفر كافة، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة؛ أي: ما صح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعاً، ويتركوا المدينة خالية، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة. وقال النحاس: هذه الجملة لفظها خبر ومعناها أمر؛ أي: نهي؛ أي: لا تنفروا كافةً. ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لولا﴾: حرف تحضيض، بمعنى، هلا ﴿نَفَرَ﴾: فعل ماض ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿نفر﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لـ ﴿فِرْقَةٍ﴾ ﴿طَآئِفَةٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتفقههم في الدين والجار والمجرور متعلق بمحذوف معطوف على نفر، تقديره: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة؛ وبقيت طائفة في المدينة لتفقههم في الدين ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول منصوب بأن مضمرة، معطوف على قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ عطف علة على علة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط متعلق بينذروا، ﴿رَجَعُوٓا۟﴾ فعل وفاعل

﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلق به والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ حرف نصب واسمه. وجملة ﴿يَحۡذَرُونَ﴾: في محل الرفع خبر، لعل، وجملة، لعل مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول، صفة لأي، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء ﴿يَلُونَكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾: جار ومجرور، حال من واو ﴿يَلُونَكُم﴾.

﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ الواو: عاطفة ﴿اللام﴾: لام الأمر ﴿يَجِدُواْ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر ﴿فِيكُمۡ﴾: متعلق به ﴿غِلۡظَةٗۚ﴾: مفعول به؛ لأن وجد هنا بمعنى أصاب وأدرك، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿قَٰتِلُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قَٰتِلُواْ﴾ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ظرف ومضاف إليه، خبر أن وجملة أن في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم، تقديره: واعلموا كون الله مع المتقين.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿مَآ﴾: زائدة ﴿أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿فَمِنۡهُم﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَّن﴾: اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ مؤخر ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَّن﴾ والجملة الفعلية صلة من الموصولة، والجملة الاسمية جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾: مقول محكي،

ليقول، وإن شئت قلت: ﴿أَيُّكُمْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، مبتدأ مرفوع، والكاف: مضاف إليه ﴿زَادَتْهُ﴾: فعل ومفعول أول ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ فاعل ﴿إِيمَٰنًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت قولهم هذا، وأردت بيان ما يترتب على نزول السورة، فأقول لك: ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على سورة ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: خبره، والجملة الإسمية في محل النصب، حال من هاء ﴿زادتهم﴾ وجملة ﴿زادتهم﴾ في محل الرفع خبر الموصول، ولكنه خبر سببي، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ الواو: عاطفة ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾: فعل ومفعولان، والفاء: رابطة لجواب ﴿أما﴾ والفاعل ضمير مستتر، يعود على السورة ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾: جار ومجرور، صفة لـ ﴿رِجْسًا﴾ تقديره: رجسا منضماً إلى رجسهم، و جملة ﴿زادتهم﴾ جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى ﴿وَمَاتُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿زادتهم﴾ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿ماتوا﴾.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿أَوَلَا﴾: الهمزة فيه: للاستفهام التوبيخي، على قراءة الياء التحتية في يرون، وللتعجبي على قراءة التاء الفوقية، داخلة على محذوف تقديره: أيجهلون، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، كما مر في مبحث التفسير. ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَرَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والرؤية يحتمل كونها قلبية، وكونها بصرية ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿يُفْتَنُونَ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿فِي كُلِّ عَامٍ﴾: متعلق به ﴿مَّرَّةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾: معطوف عليه، وجملة يفتنون في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿يرى﴾ إن كانت بصرية، أو ساد مسد مفعولي ﴿يرى﴾ إن كانت قلبية، تقديره: أوَلا يرون افتتانهم مرة أو مرتين في كل عام، وجملة ﴿يَرَوْنَ﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يُفْتَنُونَ﴾ ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ خبره والجملة الاسمية معطوفة على جملة لا يتوبون.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿مَا﴾: زائدة ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الاستخباري ﴿يَرَىٰكُم﴾: فعل ومفعول به ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، حال من فاعل نظر، تقديره: نظر بعضهم إلى بعض حالة كونهم قائلين: هل يراكم من أحد ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على نظر ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، مسوقة للدعاء عليهم أو للإخبار عن حالهم، قولان، كما ذكره أبو السعود ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: حرف جر وسبب ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿قَوْمٌ﴾: خبره. وجملة ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ صفة لقوم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر

مجرور بالباء المتعلقة بـ﴿صَرَفَ﴾ تقديره: صرف الله قلوبهم بسبب كونهم قوماً لا يفقهون.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: اللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾: فعل، ومفعول، وفاعل، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ صفة أولى للرسول ﴿عَزِيزٌ﴾: صفة ثانية له، ولكنها سببية ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿مَا﴾؛ مصدرية ﴿عَنِتُّمْ﴾: فعل وفاعل، صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، مرفوع على كونه فاعلاً لعزيز، تقديره: عزيز عليه عنتكم ومشقتكم. ﴿حَرِيصٌ﴾ صفة ثالثة له ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تنازع فيه كل من ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿رَءُوفٌ﴾ صفة رابعة له ﴿رَّحِيمٌ﴾ صفة خامسة له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلته لك، وأردت ما إذا تولوا عنك فأقول لك. ﴿إن تولوا﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بإن الشرطية، على كونه فعل شرط لها ﴿فَقُل﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب، إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قل﴾ وإن شئت قلت: ﴿حَسْبِيَ﴾ خبر مقدم، ومضاف إليه. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبرها محذوف، تقديره: لا إله موجود ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة

والأنوثة، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾ المحذوف، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب مقول القول ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بما بعده ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: بالجر صفة للعرش، وبالرفع صفة للرب، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ يقال[1]: رغب في الشيء إذا أحبه، وآثره ورغب عنه إذا كرهه، وقد جمع بينهما في الآية ﴿ظَمَأٞ﴾ الظمأ: العطش الشديد، وهو مصدر ظمىء يظمأ، من باب فرح فهو ظمآن، وهي ظمأى ويمد ويقال: ظمآء ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ والنصب: الإعياء والتعب، ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ المخمصة الجوع الشديد. ﴿ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار﴾ والموطىء[2]: اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً، يغيظ: بفتح الياء باتفاق السبعة وإن كان يجوز لغة ضمها، إذ يقال: غاظه وأغاظه بمعنى واحد. ذكره «الجمل» والغيظ الغضب ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ في «المختار»[3]، و«المصباح»، نال خيراً، ينال نيلاً إذا أصابه، وأصله، نيل، ينيل من باب فهم، والأمر منه، نل وإذا أخبرت عن نفسك كسرت النون، فتقول: نلت اهـ. هذا لفظ الأول، ولفظ الثاني، نال من عدوه، ينال: من باب تعب نيلاً، بلغ منه مقصوده، ومنه قيل: نال من امرأته ماأراد اهـ.

﴿وَادِيًا﴾ الوادي في الأصل: المنفرج بين الجبال، أو الآكام؛ أي؛ المنفتح بينها الذي تجتمع وتمر فيه السيول، فهو اسم فاعل من ودي إذا سال، اهـ أبو السعود. والمراد به هنا، مطلق الأرض. وفي «المصباح» وودي الشيء: إذا سال، ومنه اشتقاق الوادي، وهو كل منفرج بين جبال أو آكام يكون منفذاً للسيل، والجمع أودية، ووادي القرى، موضع قريب من المدينة على طريق الحاج، من جهة الشام

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الفتوحات.

اهـ. وقال أبو حيان: الوادي[1]: ما انخفض من الأصل مستطيلاً، كمجاري السيول ونحوها، وجمعته العرب على أودية، وليس بقياسه، قال تعالى:

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ وقياسه أوادي على زنة فواعل، لكنهم استثقلوه لجمع الواوين. وقال النحاس: ولا أعرف فاعلاً وأفعلة سواه، وذكر غيره: ناد، وأندية. قال الشاعر:

وَفِيْهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ   وَأَنْدِيَةٌ يَتَشَابَهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

والنادي: المجلس، وحكى الفراء في جمعه: أوداء، كصاحب وأصحاب. قال جرير:

عَرَفْتُ بِبُرْقَةِ ٱلْأَوْدَاءِ رَسْمَا   مُجِيْلاً طَالَ عَهْدُكَ مِنْ رُسُوْمِ

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ نفر: بمعنى خرج للقتال. ﴿ولولا﴾[2]: كلمة تفيد التحضيض، والحث على ما يدخل عليها إذا كان مستقبلاً، واللوم على تركه إذا كان ماضياً فإن كان مما يمكن تلاقيه.. فربما أفاد الأمر به كما هنا؛ لأن المعنى على الطلب، كأنه قيل: لتخرج طائفة وتبقى أخرى.

﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ والفرقة: الجماعة الكثيرة، والطائفة: الجماعة القليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ يقال: تفقه إذا تكلف الفقاهه والفهم، وتجشم مشاق تحصيلها. ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ يقال: أنذره إذا خوفه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يقال: حذره، من باب فهم إذا تحرز منه.

وقد[3] جعل الله سبحانه وتعالى الغرض من هذا، هو التفقه في الدين، وإنذار من لم يتفقه، فجمع بين المقصدين الصالحين، والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين فهو.. طالب لغرض دنيوي، لا لغرض ديني فهو كما قلت:

وَطَالِبُ ٱلدُّنْيَا بِعِلْـ   ـمِ ٱلدِّيْنِ أَيُّ بَائِسِ!
كَمَنْ غَدَا لِنَعْلِهِ   يَمْسَحُ بِٱلْقَلَانِسِ

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.   (٣) الشوكاني.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ في «المصباح» الولى: مثل فلس القرب، وفي الفعل لغتان: أكثرهما، وليه يليه، بالكسر فيهما، والثانية من باب وعد، وهي قليلة الاستعمال، وجلست مما يليه؛ أي: يقاربه، انتهى. وكأنَّ[1] الآي جاءت على اللغة الثانية، وأصله يليون بوزن يعدون، فنقلت ضمة الياء إلى اللام بعد سلب حركتها، ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع الواو.

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة: تجمع الجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة.

﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ والرجس: القذر والعذاب وزيادته عبارة عن تعمقهم في الكفر وخبطهم في الضلال، وإذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم واستحكم، وتزايد عقابهم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بضم الفاء؛ أي: من جنسكم. وقرىء بفتح الفاء؛ أي: من أفضلكم ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: شاق. ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ والعنت: المشقة ولقاء المكروه الشديد. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ والحرص: شدة الرغبة في الحصول على مفقود، وشدة عناية بموجود، والرأفة: الشفقة والرحمة والإحسان فالرؤوف أخص من الرحيم، وإنما قدم عليه رعاية للفواصل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾؛ لأن القطع حقيقة في فصل الأجزاء المتصلة، كالحبل.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿غِلْظَةً﴾؛ لأن الغلظة حقيقة في الأجرام، فاستعيرت هنا للشدة والصبر والتجلد كما في «السمين»، وفيه

---

(١) الفتوحات.

المجاز المرسل، لما فيه من استعمال المسبب في السبب، فإن وجدان الكفار لغلظة المسلمين، سببه إغلاظ المسلمين عليهم ذكره: في «الفتوحات».

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ أي عمى وضلالة لأن الرجس حقيقة في الشيء المستقذر، فاستعاره لعمى قلوبهم وضلالتها. قال في «تلخيص البيان» السورة لا تزيد الأرجاس رجساً ولا القلوب مرضاً، بل هي شفاءٌ للصدور وجلاء للقلوب، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمى، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة، ا هـ.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم ما يسره الله سبحانه لنا من تفسير سورة التوبة في تاريخ: ٢٠/ ١١/ ١٤١٠هـ. في اليوم العشرين، من شهر ذي القعدة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وعشر، من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

اللهم كما وفقتنا بابتداء تفسير كتابك الكريم، فأكرمنا بانتهائه واجعل لنا البركة في أعمارنا إلى إكماله، ووفقنا لما هو المعنى عندك يا إلهنا، واجعله في ميزان حسناتنا وذخيرةً عندك يا ربنا، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد، خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين آمين. والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة يونس

مكية كلها إلا ثلاث آيات: ٤٠، ٩٤، ٩٦ نزلت بعد سورة الإسراء، وقبل سورة هود. وعدد آياتها تسع ومئة آية. وكلماتها ألف وثمان مئة واثنتان وثلاثون كلمة. وحروفها سبعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفاً. وسميت بذلك لذكر اسمه فيها وقصته. وقد جرت العادة بتسمية السورة ببعض أجزائها.

ووجه مناسبتها لما قبلها(١): أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبي، ﷺ، واختتمت بها هذه، وأن جل تلك في أحوال المنافقين، وما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن، وهذه في أحوال الكفار وما كانوا يقولونه في القرآن.

وليس التناسب بين السور سبباً في هذا الترتيب الذي بينهما، فكثيراً ما نرى سورتين بينهما أقوى تناسب في موضوع الآيات، وقد فصل بينهما كما فعل بسورتي الهمزة واللهب، وموضوعهما واحد، وقد يجمع بينهما تارة أخرى، كما فعل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وسورتي المرسلات والنبأ. ومن الحكمة في الفصل بين القوية التناسب في المعاني، أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن وأبعد به عن الملل وأدعى له إلى التدبر، ولهذه الحكمة عينها تفرق مقاصد القرآن في السورة الواحدة، كالعقائد والأحكام العملية، والحكم الأدبية والترغيب والترهيب والأمثال، والقصص والعمدة في كل ذلك التوقيف والسماع.

وقال أبو حيان(٢): مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه تعالى لما أنزل ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وذكر تكذيب المنافقين ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ. أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أنزل، والنبي الذي

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أرسل، وأن ديدن الضالين واحد، متابعيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية، وبمن جاء بها، ولما كان ذكر القرآن مقدماً على ذكر الرسول في آخر السورة جاء في أول هذه السورة كذلك فقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول، انتهى.

وموضوع[1] هذه السورة يدور على إثبات أصول التوحيد، وهدم الشرك وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين وأصوله، وهي موضوعات السور المكية.

الناسخ والمنسوخ من هذه السورة: قال محمد بن حزم: جملة المنسوخ في هذه السورة أربع آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (١٥)، نسخت بقوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية (٢) من سورة الفتح.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ الآية (١٠٢) نسخت بآية السيف.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ الآية (٤١) نسخت بآية السيف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ الآية (١٠٨) نسخت بآية السيف انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ
أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ
﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا
مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ
ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ
قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما افتتح السورة بذكر آيات الكتاب، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وينذرهم على الكفر والمعاصي بالعقاب.. أردف ذلك بذكر أمرين:

١ـ إثبات أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي، يفعل ما يشاء، وهو العليم الخبير.

٢ـ إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال، من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء.

وقال أبو حيان مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن من كان قادراً على إيجاد هذا الخلق العلوي والسفلي العظيمين، وهو ربكم الناظر في مصالحكم، فلا يتعجب أن يبعث إلى خلقه من يحذر من مخالفته، ويبشر على طاعته، إذ ليس خلقهم عبثاً، بل على ما اقتضته حكمته وسبقت به إرادته، إذ القادر العظيم قادر على ما دونه بطريق الأولى، ا هـ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الآيات الدالة على وجوده، وهو خلق السموات والأرض على ذلك النظام المحكم... ذكر هنا أنواعاً من آياته الكونية، الدالة على ذلك، وعلى أنه خلقها على غاية من الإحكام والإتقان، وهو تفصيل لما تقدم، وبيان له على وجه بديع وأسلوب عجيب. وقال أبو حيان مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر الدلائل على ربوبيته من إيجاد هذا العالم العلوي والسفلي، ذكر ما أودع في العالم العلوي، من هذين الجوهرين النيرين المشرقين، فجعل الشمس ضياءً، انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأدلة على وجوده تعالى، من خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وأثبت بذلك البعث والجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب.. أردف ذلك بذكر حال من كفر به، وأعرض عن البينات الدالة عليه، وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات موقنين بلقاء ربهم، ثم ذكر جزاء كل من الفريقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تعجب القوم، من

تخصيص محمد بالنبوة، وأزال هذا التعجب بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ ثم ذكر دلائل التوحيد والبعث والجزاء.. ذكر هنا جواباً عن شبهة كانوا يقولونها أبدا، وهي: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً في أداء الرسالة، فأمطر علينا حجارة من السماء.

وخلاصة الجواب: أنه لا مصلحة لهم في إيصال الشر إليهم، إذ لو أوصله إليهم لماتوا وهلكوا، ولا صلاح في إماتتهم، فربما آمنوا بعد ذلك، أو خرج من صلبهم من يكون مؤمناً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنهم لما استدعوا حلول الشر بهم، وأنه تعالى لا يفعل ذلك بطلبهم، بل يترك من لا يرجو لقائه يعمه في طغيانه.. بين شدة افتقار الناس إليه واضطرارهم إلى استمطار إحسانه، مسيئهم ومحسنهم، وأن من لا يرجو لقاءه مضطر إليه حالة مس الضر له، فكل يلجأ إليه حينئذٍ، ويفرده بأنه القادر على كشف الضر، ذكره في «البحر».

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[١] ابن جرير، من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً، ﷺ، رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب، فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓر﴾ هذه[٢] الحروف تقرأ ساكنة غير معربة هكذا: ألف لام را والأخير منها غير مهموز.

---

(١) لباب النقول والخازن. (٢) المراغي.

والحكمة في مجيئها أول السورة: تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها، لأجل العناية بفهمه، حتى لا يفوته شيء مما يسمع، فهي من وادي حروف التنبيه نحو ﴿لا﴾ و ﴿ها﴾ الداخلة على اسم الإشارة.

قال ابن الجوزي[1]: فأما قوله: ﴿الٓر﴾ قرأ ابن كثير: ﴿آلر﴾ بفتح الراء. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿الر﴾ على الهجاء مكسورة، وقد ذكرنا في أول سورة البقرة ما يشتمل على بيان هذا الجنس، وقد خصت هذه الكلمة بستة أقوال:

أحدها: أن معناها، أنا الله أرى، رواه الضحاك، عن ابن عباس.

والثاني: أنا الله الرحمن، رواه عطاء، عن ابن عباس.

والثالث: أنه بعض اسم من أسماء الله، روى عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿الٓر﴾ و ﴿حمٓ ۝١﴾ و ﴿نون﴾ حروف الرحمن، فالراء والحاء والميم والنون بعض حروف الرحمن.

والرابع: أنه قسم أقسم الله به، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس.

والخامس: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله مجاهد وقتادة.

والسادس: أنه اسم لسورة قاله ابن زيد.

وقد[2] اتفق القراء على أن ﴿الٓر﴾ ليس بآية وعلى أن طه آية. وفي «مقنع» أبي عمرو الداني، أن العادّين لطه آية هم الكوفيون فقط. قيل: ولعل الفرق بينهما أن ﴿الٓر﴾ لا يشاكل مقاطع الآية التي بعده.

والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تضمنته هذه السورة من الآيات، وأتى باسم إشارة البعيد مع كونها قريبة تنزيلاً لبعدها الرتبي منزلة البعد الحسي، وهو مبتدأ خبره ما بعده؛ أي: هذه الآيات المذكورة في هذه السورة هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: آيات من القرآن المحكم بمعنى، المبين في مبانيه الموضح في

---

(١) زاد المسير. (٢) الشوكاني.

معانيه، والعرب تضع فعيلاً بمعنى، مفعل، أو بمعنى: المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام، قاله أبو عبيدة وغيره، وقيل: الحكيم معناه الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فهو فعيل، بمعنى: فاعل. وقيل الحكيم، يعني: المحكوم فيه، فهو فعيل، بمعنى: مفعول؛ أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان، قاله: الحسن وغيره. وقيل: الحكيم، ذو الحكمة لاشتماله عليها وتعلقه بها.

والاستفهام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ؛ أي: لا ينبغي ولا يليق لهم أن يتعجبوا من إرسال هذا الرسول لهم، فهذا رد عليهم في قولهم: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهم من فرط حماقتهم، وقصر نظرهم على الأمور العاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحي، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال مع أن خفة المال أليق بحاله، ﷺ، وما هو بصدده، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم السلام قبله كذلك، اهـ «بيضاوي». والعجب: حالةٌ تعتري الإنسان من رؤية شيءٍ على خلاف العادة، وقيل: العجب حالة تعتري الإنسان عند الجهل بسبب الشيء، اهـ «خازن». وقيل: هو استعظام أمر خفي اهـ.

واسم كان ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾؛ أي إيحاؤنا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ محمد، ﷺ، وخبره ﴿عَجَبًا﴾؛ أي: هل كان عجباً لأهل مكة إيحاؤنا، وإرسالنا إلى رجل من جنسهم ونسبهم بـ ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: بأن خوف الكافرين من عذاب الله؛ أي: لا ينبغي لهم العجب من ذلك؛ لأنه ليس في إيحائنا إلى رجل من جنسهم ما يقتضي العجب، فإنه لا يلابس الجنس ويرشده، ويخبره عن الله سبحانه إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن، ويتعذر المقصود من الإرسال حينئذٍ؛ لأنهم لا يأنسون إليه ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره، فإما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم، أو في الشكل الإنساني، فلا بد من إنكارهم

لكونه في الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وأما إن كان لكونه يتيماً، أو فقيراً، فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف، ما لم يجمعه غيره، وبالغاً في كمال الصفات إلى حد يقصر عنه من كان غنياً أو كان غير يتيم.

وقد كان لرسول الله، ﷺ، قبل أن يصطفيه الله تعالى بإرساله، من خصال الكمال عند قريش، ما هو أشهر من الشمس، وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين.

وقرأ ابن مسعود[1]: ﴿عجب﴾ بالرفع على أن كان تامة وعجب فاعلها، والمعنى: أحدث للناس عجب لأن أوحينا إلى رجل منهم، ومعنى: كونه للناس عجباً، أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم. وقرأ رؤبة: ﴿إلى رَجْلٍ﴾ بسكون الجيم، وهي لغة تميمية، يسكنون فعلاً، نحو: سبع وعضد، في سبع وعضد. ولما كان الإنذار عاماً، كان متعلقه ـ وهو الناس ـ عاماً، ولما كانت البشارة خاصة كان متعلقها خاصاً، وهو الذين آمنوا.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ معطوف على ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ والمعنى: أكان للناس عجباً إيحاؤنا إلى رجل منهم، بأن أنذر[2] الناس كافة، وأعلمهم بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين، مع التخويف بعاقبة ما هم عليه، من كفر وضلال، وبشر الذين آمنوا منهم بما أوحيناه إليك، بأن لهم قدم صدق؛ أي: أعمالاً صالحةً استوجبوا بها الثواب منه تعالى، ومنزلة رفيعة نالوها بصدق القول وحسن النية.

وفي «الخازن»: واختلفت[3] عبارة المفسرين وأهل اللغة في معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ فقال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. وقال الضحاك:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

ثواب صدق. وقال مجاهد: الأعمال الصالحة، صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. وفي رواية أخرى عن ابن عباس، أنه قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، يعني: في اللوح المحفوظ.

وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة محمد، ﷺ، وهو قول قتادة. وقيل: لهم منزلة رفيعة عند ربهم، وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقولهم: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، وحب الحصيد. والفائدة في هذه الإضافة: التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم؛ لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح، ومثله في مقعد صدق ومدخل صدق.

وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر، فهو عند العرب قدم، يقال: لفلان قدم في الإسلام وقدم في الخير، ولفلان عندي قدم صدق وقدم سوء. وقال الليث وأبو الهيثم: القدم: السابقة، والمعنى: أنه قد سبق لهم عند الله خير، والسبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم، فسمى المسبب باسم السبب، كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد ا هـ.

وجملة قوله: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مستأنفة[1] استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجب. وقال القفال: قبله إضمار، تقديره: فلما أتاهم[2] بوحي الله وتلاه عليهم، قال الكافرون المتعجبون من إيحاء الله تعالى إليه، المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القرآن الذي جاء به محمد، ﷺ، ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر واضح، يبين لكم أنه مبطل فيما يدعيه. وجعلوه سحراً؛ لأنه خارق للعادة في تأثيره في القلوب، وجذبه النفوس إلى الإيمان به، واحتقار الحياة، ولذاتها في سبيل الله.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنه كلام مزخرف حسن الظاهر، لكنه واضح البطلان في الحقيقة. وقد كذبوا في تسميته سحراً؛ لأن السحر ما يكون بأسباب خفية يتعلمها بعض الناس من بعض، إما بالحيل والشعوذة، وإما باستخدام خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير، وإما بتأثير قوى النفس وتوجيه الإرادة وجميعها من الأمور التي يشترك فيها الكثير من العارفين بها، والقرآن ليس بسحر يؤثر بالعلم والصناعة، بل هو أقوال مشتملة على آداب عالية، وتشريع حكيم فيه مصلحة للناس، ولم يكن ليقدر على شيء من مثله، وبهذا ثبت أنه نبي من عند الله تعالى، وأن ما جاء به وحي من لدنه تعالى.

قال ابن عطية[1]: وقولهم في الإنذار والبشارة سحر، إنما هو بسبب أنه: فرق كلمتهم وحال بين القريب وقريبه. فأشبه ذلك ما يفعله الساحر، وظنوه من ذلك الباب. وقال الزمخشري: وهذا دليل عجزهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً وقرأ[2] الجمهور، وأبو عمرو وابن عامر ونافع: ﴿لسحر﴾ إشارة إلى الوحي أو القرآن. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف والأعمش وابن محيصن وابن مسعود وأبو رزين ومسروق وابن جبير ومجاهد وابن وثاب وطلحة وابن كثير وعيسى بن عمرو، بخلاف عنهما ﴿لساحر﴾ إشارة إلى الرسول، ﷺ، وفي مصحف أبيّ ﴿ما هذا إلا سحر﴾. وقرأ الأعمش أيضاً ﴿ما هذا إلا ساحر﴾.

وحاصل المعنى على القراءة الثانية أعني القراءة على صيغة اسم الفاعل؛ أي[3]: إن الكافرين لما جاءهم رسول منهم فأنذرهم وبشرهم، قالوا متعجبين: إن هذا الذي يدعي أنه رسول وهو محمد، ﷺ، ساحر ظاهر. وعلى القراءة الأولى، أعني؛ قراءة المصدر؛ أي: إن هذا القرآن لكذب ظاهر ووصف الكفار القرآن بكونه سحراً، يدل على عظم القرآن عندهم من حيث تعذر المعارضة عليهم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

فيه، فأرادوا بهذا الكلام أن القرآن كلام مزخرف، حسن الظاهر، ولكنه باطل في الحقيقة، وهذا ذم له، أو أرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله جار مجرى السحر وهذا مدح له وإنما لم يؤمنوا به عناداً.

ثم إن الله سبحانه وتعالى جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار، من الإيحاء إلى رجل منهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ ومالككم ومعبودكم الذي يستحق منكم العبادة هو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: هو المعبود بحق الذي لا يعبد معه سواه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿السموات والأرض﴾ واخترعهما على غير مثال سابق ﴿فِى﴾ مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ معلومة التي أولها الأحد، وآخرها الجمعة ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم المخلوق قبلهما استواء يليق بعظمته وجلاله، لا يكيف ولا يمثل ولا يعطل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ حالة كونه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يدبر أمر ملكوت السموات والأرض ويصرفها على الوجه الأكمل، ويقدرها ويقضيها بحسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به إرادته.

أي: من[١] كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم، محلاً للتعجب؟ مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول؟.

وحاصل المعنى: أي إن[٢] ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم، وهذه الأرض التي تعيشون على ظهرها في ستة أزمنة، قد تم في كل زمن منها، طور من أطوارها، وقدرها بمقادير أرادها، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم، استواء يليق بعظمته وجلاله، حالة كونه يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، واقتضته حكمته من الأحكام، ولا يستنكر من هو رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده، أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به، لما فيه كمالهم من

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

عبادته، وشكره، وبذلك تصلح أنفسهم، وتطهر قلوبهم، وتستنير أفئدتهم، لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عزّ وجلّ، إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه سواه. وترك العاطف في قوله؛ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ لأن جملته كالتفسير والتفصيل لما قبلها. وقيل: هي في محل نصب على الحال من ضمير استوى، كما أشرنا إليه في الحل. وقيل: مستأنفة استئنافاً بيانياً، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتقع على الوجه المقبول، واشتقاقه من الدبر كما سيأتي في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى. وقال مجاهد معناه: يقضيه ويقدره وحده. وقيل: يبعث الأمر. وقيل: ينزل الأمر. وقيل: يأمر به ويمضيه، والمعنى متقارب، والأمر: الشأن، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق. وقال أبو السعود: والمراد بالأمر: ملكوت السموات والأرض والعرش، وغير ذلك من الجزئيات الحادثة، شيئاً فشيئاً على أطوار شتى لا تكاد تحصى، اهـ.

قال الزجاج[1]: إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية، كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله.

فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه بشيء إلا بعد إذنه؛ لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب فقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾؛ أي، لا يوجد[2] شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه، والآية بمعنى، قوله سبحانه؛ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. وقد جاء في كتابه تعالى، أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة كما قال ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضي له الرحمن، لإيمانه وصالح عمله كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾. وفي هذا إيماء لدحض العقيدة التي كان يعتقدها مشركو العرب، ومقلدوهم من أهل الكتاب من أن الأصنام والأوثان وعباده المقربين من الملائكة والبشر، يشفعون

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر، ويجلب لهم النفع، كما حكى الله تعالى عن عبدة الأصنام قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. وفي هذه العقيدة حجة عليهم؛ إذ يقال لهم: إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أولياء. وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى، وهو قول عليه تعالى بغير علم، فما بالكم تنكرون وتعجبون، أن يوحي إلى من يشاء، ويصطفي من عباده من يعلمهم ما يهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة، والهادي إلى طريق الرشاد.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الرب، الموصوف بالصفات السابقة، من الخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف في أمر الشفاعة، يأذن بها لمن يشاء هو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق في الوجود ﴿رَبُّكُمْ﴾ المتولي شؤونكم ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً، ولا تشركوا معه أحداً، لا في شفاعة، ولا في غيرها، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً، بل هو الذي يملك ذلك وحده، وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضر الكسبية بالعقول والمشاعر التي سخرها لكم، وإلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه، فلا تطلبوا نفعاً ولا ضراً إلا بالأسباب التي سخرها لكم، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه فادعوه فيه تعالى وحده يحصل لكم ما فيه ترغبون، أو يدفع عنكم ما تكرهون وهذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ للاستفهام الإنكاري المضمن للتوبيخ والتقريع، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتجهلون هذا الحق الواضح، فلا تتذكرون أن الذي خلق السموات والأرض، وانفرد بتدبير هذا العالم، هو الذي يجب أن يعبد، ولا يعبد سواه، وذلك هو مقتضى الفطرة، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها. ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: رجوعكم أيها الخلائق بالبعث بعد الموت، للمجازاة على أعمالكم؛ أي: إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون ﴿جَمِيعًاۖ﴾ بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه، لا يتخلف منكم أحد، فلا حكم إلا حكمه، ولا نافذ إلا أمره ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه

وتعالى ذلك الرجوع وعداً ﴿حَقًّا﴾؛ أي: ثابتاً لا خلف فيه، فهو تأكيد لتأكيد، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك. وقرأ[1] ابن أبي عبلة ﴿حق﴾ بالرفع على الاستئناف، فهو مبتدأ، خبره أنه يبدأ الخلق قاله أبو الفتح، وكون حق خبراً مقدماً، ﴿إنه﴾ مبتدأ مؤخراً، هو الوجه في الإعراب، كما تقول صحيح أنك تخرج، لأن اسم إن معرفة، والذي تقدمها في نحو هذا المثال نكرة.

﴿إنه﴾ تعالى ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾؛ أي: المخلوق فالمصدر بمعنى المفعول، وينشئه من العدم المحض حين التكوين، ليأمرهم بالعبادة ثم يميتهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: ينشؤه نشأة أخرى، من العدم بالبعث بعد انحلاله وفنائه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي لا جور فيه لا ينقص من أجورهم شيئاً. وقال البيضاوي: قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بعدله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم؛ لأنه العدل القويم، كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلخ. والجزاء[2] بالعدل لا يمنع أن يزيدهم ربهم شيئاً من فضله، ويضاعف لهم كما وعد على ذلك في آيات أخرى، منها قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وفي هذه الجملة[3] إيماء إلى أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة، هو الإثابة وإيصال الرحمة، وأما عقاب الكفرة، فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم؛ أي: إنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل، فيعطي كل عامل حقه من الثواب الذي جعله لعمله، وهذا المعنى، قد جاء في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ وقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

والعدل في الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

---

(1) البحر المحيط.

(2) المراغي.

(3) المراح.

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ وقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾.

وقد اتفق[1] العلماء جميعاً، ماديهم وروحيهم على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية، قد وجدت بعد أن لم تكن، وإن كانوا لا يزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة والقوة المتصرفة في أصل مادتها، وهم جميعاً متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها في هذا النظام الشمسي الجامع لها، بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بساً، فتكون هباءً منبثاً. وهَا هُوَذَا، قد حمل البدء بالفعل، والإعادة أهون من البدء، فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة، كما قال في سورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقرأ[2] عبد الله، وأبو جعفر والأعمش وسهل بن شعيب ويزيد بن القعقاع: ﴿أنه يبدأ الخلق﴾ بفتح الهمزة. قال الزمخشري: هو منصوب بالفعل الذي نصب ﴿وعد الله﴾، والتقدير: وعد الله تعالى بدأ الخلق، ثم إعادته والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه، ﴿وعد الله﴾ على لفظ الفعل، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً؛ أي: حق حقاً بدء الخلق ثم إعادته كقوله:

أَحَقّاً عِبَادَ ٱللَّهِ أَنْ لَسْتُ جَائِيًا وَلاَ ذَاهِباً إِلاَّ عَلَيَّ رَقِيْبُ

انتهى. وقال ابن عطية: وموضعها النصب على تقدير، أحق أنه. وقال الفراء: موضعها رفع على تقدير، لحق إنه قال ابن عطية ويجوز عندي أن يكون أنه بدلاً من قوله: وعد الله وقرأ طلحة: ﴿يبدىء﴾ بضم الياء من أبدأ الرباعي، وبدأ، وأبدأ بمعنى واحد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله محمد، ﷺ، وبالقرآن ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: من ماء حار قد انتهى حره ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع يبلغ وجعه إلى قلوبهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم بالله ورسوله؛ أي: إن

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم، وعذاب شديد الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر، المستمرة إلى الموت، كدعاء غير الله تعالى من الأوثان، والأصنام، وسائر المعاصي التي يزينها لهم الشيطان، ويصدهم بها عن الإيمان.

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجزاء المؤمنين الصالحين، بيان منه، بأنه المقصود بالذات، إذ هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري، للذين زكوا أنفسهم، وطهروا قلوبهم وأخبتوا إلى ربهم، فيلقى من عمل الصالحات من النعيم المادي، ما هو خال من الشوائب التي تخالطه في نعيم الدنيا، ومن النعيم الروحي، وهو رضوان الله الأكبر مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحدٌ، كما قال: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ وجاء في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه البخاري.

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم، وللناس على تدسيتهم لأنفسهم، بالكفر والخطايا، فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ولكنها مقتضى العدل، ومقتضى مشيئته تعالى في ارتباط الأسباب بالمسببات، والعلل بالمعلولات.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾؛ أي: ذات ضياء أو مضيئة ﴿و﴾ جعل ﴿القمر نورا﴾ أي: ذا نور أو منيراً؛ إن ربكم الذي خلق السموات والأرض هوالذي جعل الشمس مضيئة نهاراً، والقمر منيراً ليلاً، ودبر أمور معاشكم هذا التدبير البديع، فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادكم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب. والضوء والنور، بمعنى واحد، لغة، والضوء أقوى من النور، استعمالاً بدليل هذه الآية. وقيل: الضوء: لما كان من ذاته، كالشمس والنار، والنور: لما كان مكتسباً من غيره ويدل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾. والسراج: نوره من ذاته، والضياء والضوء: ما أضاء لك.

﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾؛ أي: وقدر سير القمر في فلكه وجعله ﴿مَنَازِلَ﴾؛ أي: في منازل وأماكن ينزل فيها كل ليلة في واحد منها، لا يجاوزها ولا يقصر دونها، يرى القمر فيها بالأبصار، وليلة أو ليلتان يحتجب فيهما فلا يرى. ومنازل القمر هي: المسافة التي يقطعها في يوم وليلة، بحركته الخاصة به. وأسماء تلك المنازل هي، السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرفة والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة والسعد الذابح وسعد البلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر، وبطن الحوت ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوماً. وهذه المنازل منقسمة على اثني عشر برجاً وهي، الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، لكل برج منها منزلتان وثلث. فيكون إقامة القمر في كل برج ستة وخمسين ساعة وانتقالات الشمس في هذه الأبراج مرتبة على الشهور القبطية، لكن الشهر نصفه الأول من آخر برج، ونصفه الآخر من أول برج آخر، فيكون نصفه الأول من نصف السنبلة الأخير، ونصفه الأخير من نصف الميزان الأول وهكذا، وخص[1] القمر بالذكر، وإن كانت الشمس لها منازل أيضاً؛ لأن سير القمر في المنازل أسرع، وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين؛ لأن المعتبر في مثل الصيام والحج السنة القمرية، لا الشمسية. وفي «الخازن» قوله ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ قيل: الضمير[2] في قدره يرجع إلى الشمس والقمر، والمعنى: وقدر لهما منازل، أو وقدر لسيرهما منازل لا يجاوزانها في السير، ولا يقصران عنها وإنما وحد الضمير في وقدره للإيجاز، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر، فهو كقوله تعالى؛ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾. وقيل: الضمير في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ يرجع للقمر فقط؛ لأن سير القمر في المنازل أسرع، وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين، وذلك؛ لأن الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الأهلة، والسنة المعتبرة في الشرع هي السنة القمرية لا الشمسية اهـ.

---

(١) الصاوي. (٢) الخازن.

ثم ذكر سبحانه بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾؛ أي: قدر هذه المنازل لتعلموا بها، أيها العباد، عدد السنين والأعوام وقت دخولها وانقضائها ﴿و﴾ لتعلموا ﴿الحساب﴾؛ أي: حساب الشهور والأيام والساعات، ونقصانها وزيادتها، فيمكنكم ترتيب مهمات المعاش، من الزراعة والحراثة، ومهمات الشتاء والصيف.

فإن[1] في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية؛ والدنيوية ما لا يحصى، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه.. لم يعلم الناس بذلك، ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم، والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً، إن كان كاملاً، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي: أربع وعشرون ساعة للّيل والنهار، وقد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة والنقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف.

والمعنى: قدره منازل لتعلموا بتلك المنازل حساب الأوقات، من الأشهر والأيام، لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية، ولولا هذا النظام المشاهد.. لتعذر العلم بذلك على الأميين، من أهل البدو والحضر، إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمري، الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة، ولعبادتي الصوم والحج حكمة أخرى وهي: دورانهما في جميع فصول السنة، فيعبد المسلمون ربهم في جميع الأوقات من حارة وباردة وطويلة وقصير ومعتدلة.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ المذكور من جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وتقديره: منازل ﴿إِلَّا﴾ خلقاً ملابساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصواب والحكمة البالغة ومطابقة المصلحة في أمور المعاملات، والعبادات، ولم يخلق ذلك باطلاً ولا عبثاً؛ أي: ما خلق

(١) الشوكاني.

الله الشمس[1] ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها، فتنبعث الحرارة في جميع الأحياء، وبها يبصر الناس جميع المبصرات، ويقومون بأمور معايشهم وسائر شؤونهم، وما خلق الله القمر ذا نور مستمد من الشمس، تنتفع به السيارة في سيرهم، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور، ما خلق ذلك إلا خلقاً مقترناً بالحق، الذي تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معايشهم، فلا عبث فيه ولا خلل. فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان ويعلمه البيان، ويعطيه من كمال الاستعداد ما لم يعط غيره، ثم يتركه بعد ذلك سدًى يموت ويفنى ولا يعاد ويبعث لتجزى كل نفس بما كسبت، فيُجزى المتقون بصالح أعمالهم، والمشركون والظالمون المجرمون بكفرهم وجرائمهم؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾. ﴿يُفَصِّلُ﴾ الله سبحانه وتعالى ويبين ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: دلائل قدرته ووحدانيته على لسان رسوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها، من الوحدانية وكمال القدرة والعلم؛ أي: يبين الدلائل من حكم الخلق على رسوله، ﷺ، مفصلة منوعة، من كونية وعقلية، لقوم يعلمون دلالة الأدلة، ويميزون بين الحق والباطل، باستعمال عقولهم في فهم تلك الآيات، فيجزمون بأن من خلق النيرين على هذا النظام البديع لايمكن أن يخلق الإنسان سدًى.

وخص من يعلم بتفصيل الآيات لهم؛ لأنهم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات، ويتدبرون بها في الاستدلال والنظر الصحيح. وقرأ قنبل[2] ﴿ضئاء﴾ هنا وفي الأنبياء والقصص، بهمزة قبل الألف، بدل الياء. وقرأ ابن مصرف: ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ بفتح الحاء، ورواه أبو توبة: عن العرب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص: ﴿يفصل﴾ بالياء جرياً على لفظة الله، وباقي السبعة بالنون على سبيل الالتفات، والإخبار بنون العظمة.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: في تعاقبهما، أو في تفاوتهما بازدياد

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وانتقاص، أو في تفاوتهما بحسب الأمكنة في الطول والقصر ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من أنواع الموجودات ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ أي: لعلامات دالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وخص العلامات بالمتقين؛ لأن الداعي إلى التدبر والنظر إنما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة؛ أي: إن في اختلاف الليل والنهار وحدوثهما وتعاقبهما بمجيء كل منهما خلفة للآخر، وفي طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ومالهما من نظام دقيق، بحسب حركة الشمس اليومية والسنوية، وفي طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون، وعمل دنيوي وديني ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من أحوال الجماد والنبات والحيوان، ويدخل في ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار وأحوال البحار، من مد وجزر، وأحوال المعادن العجيبة في تركيبها، وأوضاعها المختلفة إلى نحو ذلك.

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لدلائل[1] عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته، وحكمته في الإبداع والإتقان، وفي تشريع العقائد والأحكام ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة سننه تعالى في التكوين، وسننه في التشريع، فلله سنن في حفظ الصحة، من خالفها مرض، وله سنن في تزكية الأنفس، من خالفها، وأفسدها بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، جوزي على ذلك في الآخرة أشد الجزاء. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يخافون لقاءنا يوم القيامة لتكذيبهم بالبعث والمجازاة، فهم مكذبون بالثواب والعقاب، أو لا يطمعون ثوابنا؛ لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واختاروها بدل الآخرة، وعملوا في طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾؛ أي: سكنوا ومالوا إليها مطمئنين فيها. وهذه الطمأنينة التي حصلت في قلوب الكفار، من الميل إلى الدنيا ولذاتها، أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف، فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم يصل ذلك إلى قلوبهم. والمعنى؛ أي: إن الذين لا يتوقعون

---

(١) المراغي.

لقاءنا في الآخرة للحساب، والجزاء على الأعمال لإنكارهم للبعث، ورضوا بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة، فقصروا كل همهم من الحياة على الحصول على أغراضهم منها، وسكنت نفوسهم إلى شهواتها ولذاتها. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ ودلائل قدرتنا ﴿غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: ساهون ومعرضون عنها، فلا يتدبرون منها ما نزل على رسولنا، وما حوته من عبر ومواعظ ومعاد وحكم، ولا يتفكرون في أحوال الكون وما فيها من حكمته وسننه في الخلق، وبهذا شاركوا الفريق الأول في الشغل بالدنيا عن الآخرة، ومن ثم لم يستعدوا لحسابنا وما يعقبه من نعيم مقيم، وعذاب أليم.

والعطف[1] إما لتغاير الوصفين، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلا، وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين، من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا، وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والاستعداد له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ ومسكنهم في الآخرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ جزاء ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: جزاءً على ما كانوا يقترفون من السيئات طول حياتهم، فهم قد دنسوا أنفسهم بشرور الوثنية، وظلمات الشهوات الحيوانية، فلم يبق لنور الحق والخير مكان فيها، ومن ثم لا يجدون ملجأً بعد هول الحساب إلا جهنم دار العذاب.

وبعد[2] أن أبان جزاء الفريق الأول.. كان من الواضح أن تستشرف نفس القارىء والسامع إلى جزاء الفريق الثاني فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: شغلوا جوارحهم بالخدمة، فعينهم مشغولة بالاعتبار، وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى، ولسانهم مشغول بذكر الله ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: يهديهم إلى الجنة ثواباً لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وإنما لم يذكر الجنة تعويلاً على ظهورها،

---

(1) البيضاوي. (2) المراغي.

وانسياق النفس إليها كما ذكره «أبو السعود»؛ أي: إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، ولم يغفلوا عن الآيات التي غفل عنها الغافلون، ورجوا لقاء ربهم، وخافوا حسابه وعقابه يهديهم ربهم بسبب إيمانهم إلى صراطه المستقيم في كل ما يعملون، وينتهي بهم ذلك إلى دخول الجنة التي أعدها لعباده المخبتين، وفي هذا إيماء إلى أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفيع الدرجات والوصول إلى أقصى الغايات.

وقوله: ﴿تجري﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾؛ أي: من تحت قصورهم وأشجارهم ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الأربعة الماء واللبن والخمر والعسل، جملة مستأنفة أو خبر ثانٍ؛ لأن، أو: حال من مفعول يهديهم. وقوله: ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر آخر، أو حال أخرى من الأنهار أو متعلق بتجرى؛ أي: إنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار التي تجرى من بين أيديهم.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: دعاؤهم ونداؤهم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: نسبحك يا الله تسبيحاً، ونقدسك تقديساً من كل النقائص ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾؛ أي: تحية بعضهم لبعض ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة؛ أي: أو تحية الله، أو الملائكة لهم فيها ﴿سَلَـٰمٌ﴾؛ أي: قول سلام عليكم، الدال على السلامة من كل مكروه، وهي تحية المؤمنين في الدنيا ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: وخاتمة دعائهم وثنائهم الذي هو التسبيح ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: أن يقولوا الحمد لله رب العالمين؛ أي: خاتمة تسبيحهم في كل مجلس، أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين لا أن معناه: انقطاعه؛ أي: الحمد، فإن أقوال أهل الجنة وأحوالها لا آخر لها، اهـ «كرخي».

أي[1]: أن أهل الجنة لما عاينوا ما هم فيه من السلامة عن الآفات، والمخافات، علموا أن كل هذه الأحوال السنية إنما كانت بإحسان الله تعالى عليهم، فاشتغلوا بالثناء على الله تعالى، فقالوا الحمد لله رب العالمين وإنما وقع

(١) المراح.

الختم على الحمد؛ لأن الاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة.
والمعنى: أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله، ووجدوا فيها النعم العظيمة، وعرفوا أنه تعالى كان صادقاً في وعده إياهم بتلك النعم، مجدوه تعالى، ونعتوه بنعوت الجلال، فقالوا سبحانك اللهم؛ أي: نسبحك عن الخلف في الوعد، والكذب في القول، وعما لا يليق بحضرتك العلية، ولما حياهم الله والملائكة بالسلامة عن الآفات، وبالفوز بأنواع الكرامات.. أثنوا عليه تعالى بصفات الإكرام. وهذه[1] التحية تكون منه عزّ وجلّ حين لقائه، كما قال في سورة الأحزاب: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة كما قال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وتكون منهم بعضهم لبعض كما قال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾.

وإن آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ كما أنه أول ثناء عليه، حين دخولها كما قال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ كما أنه آخر كلام الملائكة كما قال: وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فعلى كل مؤمن أن يستعد لها بتزكية نفسه، وترقية روحه، ويعلم أنه لن يكون أهلاً لها إلا بالعمل، ومجاهدة النفس والهوى، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

وقال أهل[2] التفسير: كلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ علامة بين أهل الجنة والخدم

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم، فيأتونهم في الوقت، بما يشتهون على الموائد، كل مائدة: ميل في ميل على كل مائدة: سبعون ألف صحيفة، في كل صحيفة: لون من الطعام، لا يشبه بعضها بعضاً، فإذا فرغوا من الطعام، حمدوا الله عزّ وجلّ على ما أعطاهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد، والتقديس لله عزّ وجلّ، والثناء عليه بما هو أهله، وفي هذا الذكر والتحميد سرورهم، وابتهاجهم، وكمال لذتهم، ويدل عليه ما روي عن جابر قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يشغلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون»، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس» وفي رواية «التسبيح والحمد» أخرجه مسلم. قوله: جشاء؛ أي: يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقاً.

وقال الزجاج: أعلم الله أن أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه، ويختمون بشكره والثناء عليه، انتهى. وقرأ[1] عكرمة، ومجاهد وقتادة وابن يعمر وبلال بن أبي بردة وأبو مجلز وأبو حيوة وابن محيصن، ويعقوب: ﴿إن الحمد لله﴾ بالتشديد ونصب الحمد. قال ابن جني: ودلت قراءة الجمهور بالتخفيف ورفع الحمد على أن ﴿أن﴾ هي المخففة كقول الأعشى:

فِيْ فِتْيَةٍ كَسُيُوْفِ ٱلْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوْا   إِنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ

يريد إنه هالك، فإذا خففت لم تعمل في غير ضمير شأن محذوف.

ونزل لما استعجل المشركون رسول الله، ﷺ، بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم، كما حكى الله عنهم في نحو قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ

(١) البحر المحيط.

وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ أي: ولو يعجل الله سبحانه وتعالى للناس إجابة الدعاء في طلب الشر، وفيما عليهم فيه مضرة في نفس، أو مال، أو ولد عند الغضب، أو الضجر من البلاء ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: تعجيلاً مثل استعجالهم إجابة الدعاء في طلب الخير، الذي يدعونه من الله، أو حصول الخير الذي يرجونه بعلاج الأسباب، التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: لحكم عليهم حلول أجلهم قبل أوانه، ووقته الطبيعي وفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً كما هلك الذين كذّبوا الرسل من قبلهم، واستعجلوهم بالعذاب، ولكن الله أرحم بهم من أنفسهم. وقد بعث محمداً، ﷺ، بالهداية الدائمة، وقضى بأن يؤمن به قومه العرب، ويحملوا دينهم إلى العجم، وأنه يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا، بما فيه تأديب لهم، كما بين ذلك بقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ويؤخر عذاب سائر الكافرين إلى يوم القيامة، ولم يقض بإهلاكهم واستئصالهم بل يذرهم إلى نهاية آجالهم كما قال: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الخ.

وقال ابن قتيبة[١]: إن الناس عند الغضب والضجر، قد يدعون على أنفهسم وأهلهم وأولادهم، بالموت وتعجيل البلاء، كما يدعون بالرزق والرحمة وإعطاء السؤال، يقول: لو أجابهم الله إذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير. لقضى إليهم أجلهم، يعنى: لفرغ من هلاكهم، ولكن الله عزّ وجلّ بفضله وكرمه يستجيب للداعي بالخير، ولا يستجيب له في الشر.

وقرأ ابن عامر[٢]: ﴿لقضى﴾ مبنياً للفاعل ﴿أجلهم﴾ بالنصب. وقرأ الأعمش ﴿لقضينا﴾ وباقي السبعة مبنياً للمفعول ﴿وأجلهم﴾ بالرفع. وقوله:

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

﴿فنذر الذين لا يرجون لقائنا﴾ معطوف[1] على فعل محذوف، دلت عليه الشرطية تقديره: ولكن لا نعجل ولا نقضي، فنذرهم ونتركهم إمهالاً لهم واستدراجاً بهم؛ أي: فنترك الذين لا يخافون عقابنا، ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ وتمردهم وعتوهم وضلالتهم حالة كونهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ ويترددون ويتحيرون فيها. روى الشيخان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم إني اتخذت عندك عهداً، لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة، واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة».

وحاصل المعنى[2]: أي فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكره، فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلاً للخروج منه، ولا نعجل لهم العذاب في الدنيا بالاستئصال، حتى يأتي أمر الله في جماعتهم بنصر رسوله، ﷺ، عليهم وفي أفرادهم بقتل بعضهم، وموت بعض، ومأواهم النار وبئس القرار، إلا من تاب وآمن منهم.

وقد يكون المراد ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه، بما يقترفونه من ظلم وفساد في الأرض، لأهلكهم كما جاء في قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾. ومن هذا دعاؤهم على أنفسهم حين اليأس، ودعاء بعضهم على بعض حين الغضب، كما قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾؛ أي: وما دعاء الكافرين بربهم أو بنعمه فيما يخالف شرعه بسننه في خلقه، إلا في ضياع، لا يستجيبه الله لهم، لحلمه عليهم ورحمته بهم.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أنهم كاذبون في استعجال الشر، ولو أصابهم ما طلبوه.. لأظهروا العجز والجزع فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ أي: وإذا أصاب جنس الإنسان، مسلماً كان أو كافراً. وقيل: المراد به، الكافر ﴿ٱلضُّرُّ﴾؛ أي:

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

الشدة والجهد والمشقة والفقر والمرض، وهو كل ما يشعر فيه شدة ألم، أو فيه خطر على نفسه كغرق ومسغبة وداء عضال ﴿دَعَانَا﴾ في كشفه وإزالته، ملحاً في الدعاء حالة كونه مضطجعاً ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾؛ أي: على جنبه وشقه ﴿أَوۡ﴾ حالة كونه ﴿قَاعِدًا﴾ على إسته ﴿أَوۡ﴾ حالة كونه ﴿قَآئِمٗا﴾ على قدميه حائراً في أمره، ولا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر بمس الضر ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه. والمعنى: إن المضرور لا يزال داعياً في جميع حالاته إلى أن ينكشف ضره، سواء كان مضطجعاً أو قاعداً، أو قائماً، وإنما خص هذه الحالات الثلاث؛ لأن الإنسان لا ينفك عن إحدى هذه الحالات غالباً، وما عداها نادر، كالركوع والسجود، وقدم منها، ما يكون الإنسان فيه أشد عجزاً، وشعوره بالحاجة إلى ربه أقوى، ثم التي تليها ثم التي تليها.

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾ وأزلنا ﴿عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ وجهده الذي دعانا إليه، حال شعوره بعجزه، عن كشفه بنفسه، أو بغيره من الأسباب ﴿مَرَّ﴾ ومضى واستمر في طريقته التي كان عليها قبل مس الضر، من الغفلة عن ربه، والكفر به ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾؛ أي: وكان كأنه لم يدعنا إلى كشف ضر، وجهد مسّه، وأصابه ولم نكشف عنه ضراً. والمعنى: أنه استمر على حالته الأولى، قبل أن يمسه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر، وهذه[1] الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنتهم بالدعاء، وقلوبهم بالخشوع والتذلل، عند نزول ما يكرهون بهم، فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء، والتضرع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم، ورفع ما نزل بهم من الضر، ودفع ما أصابهم من المكروه، وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمتك، وأذْكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر

---

(١) الشوكاني.

الذي لا نطيق سواه، ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وهذه الآية[1]، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء، مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً مجتهداً في ذلك الدعاء، طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة وتبديلها بالمنحة، فإذا كشف الله تعالى عنه بالعافية، أعرض عن الشكر ولم يتذكر ذلك الضر، ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، فالواجب على العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء، شاكراً عند الفوز بالنعماء، وأن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة. وعن رسول الله، ﷺ، أنه قال: «من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء».

والإشارة[2] بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مر غير مرة؛ أي: مثل ذلك التزيين العجيب الذي حصل لمن مسه الضر ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: زين لهم عملهم الخبيث، والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، وشرعاً من باع دينه بدنياه واستبدلها عن آخرته. والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريق التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. والمعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات.

وعبارة الجلال ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما زين له الدعاء عند الضر، والإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: للمشركين ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كما زين لهذا الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء، زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام والإشراك، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الشكر والإيمان

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

والانهماك في الشرك والمعاصي. وعبارة المراغي؛ أي: مثل هذا الطريق من معرفة الله، والإخلاص في دعائه وحده في الشدة ونسيانه والكفر به، بعد كشفها زين للمشركين، من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك، حتى بلغ من عنادهم للرسول، ﷺ، واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب، أن استعجلوه به، فقالوا: اللهم ربنا أمطر علينا حجارة من السماء انتهت.

الإعراب

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

﴿الٓرۚ﴾: ليس بمعرب ولا مبني، فلا محل له من الإعراب، إن قلنا: إنه مما استأثر الله تعالى بعلمه؛ لأن الإعراب فرع عن إدراك المعنى، وإن قلنا: إنه علم للسورة.. فتجري فيه الأوجه الخمسة، أو السبعة التي تجري، في أسماء التراجم، ولكن إعرابه لا يظهر لتعذره بسكون الوقف. ﴿تِلۡكَ﴾: مبتدأ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ صفة للكتاب والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أَكَانَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿عَجَبًا﴾ أو حال منه؛ لأن التقدير: أكان عجباً للناس، أو متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ كما ذكره: أبو البقاء. ﴿عَجَبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمه ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ ناصب وفعل وفاعل ﴿إِلَىٰ رَجُلٖ﴾: متعلق به ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ صفة لرجل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، تقديره: أكان إيحاؤنا إلى رجل منهم عجباً للناس، وجملة ﴿كَانَ﴾ جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: ﴿أَنۡ﴾ مصدرية، أو مفسرة بمعنى: أي ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: فعل أمر، ومفعول في محل النصب بـ ﴿أَنۡ﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَجُلٖ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب بـ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ تقديره: أن أوحينا إلى رجل منهم إنذار الناس، أو الجملة مفسرة ﴿لأوحينا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول، معطوف على ﴿أَنۡ أَنذِرِ﴾

على كلا التقديرين، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَجُلٍ﴾ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أَنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ اسمها مؤخر. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة؛ لأن حذف الجار، مطرد مع، أن، وأن، تقديره: وبشر الذين آمنوا، بكون قدم صدق كائناً لهم حالة كونه كائناً عند ربهم، والباء المحذوفة متعلقة بـ ﴿بَشِّرِ﴾ ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ واللام حرف ابتداء ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿سَٰحِرٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾: ناصب واسمه ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة للجلالة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿السموات﴾ ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بخلق.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة خلق ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ أو في محل الرفع خبر ثانٍ؛ لـ﴿إِنَّ﴾، أو، مستأنفة لا محل لها من الإعراب، كما ذكره في «الفتوحات» ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِن﴾: زائدة ﴿شَفِيعٍ﴾: مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة دخول ﴿مِن﴾ الاستغراقية عليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره ﴿رَبُّكُمْ﴾: بدل من الجلالة، أو خبر

ثانٍ لاسم الإشارة، والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره؛ إذا عرفتم أيها العباد ذلكم الله ربكم وأردتم بيان ما هو الواجب عليكم: فأقول لكم ﴿اعبدوه﴾ ﴿اعبدوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول، لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، المضمن للإنكار داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، تقديره: أتجهلون هذا الحق الواضح فلا تذكرون، والجملة المحذوفة مستأنفة.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير، المخاطبين، والجملة مستأنفة. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المصدرية، بفعل محذوف، تقديره: وعدكم بالرجوع إليه وعداً، والجملة مستأنفة، مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿حَقًّا﴾: منصوب أيضاً على المصدرية، بفعل محذوف، تقديره، حق ذلك الوعد حقاً، والجملة مؤكدة لـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المقدر؛ أي: وعدكم بالرجوع إليه وعدا، وحق ذلك الوعد حقاً، لكن الأول مؤكد لنفسه؛ لأن قوله: إليه مرجعكم جميعاً، صريح في الوعد لا يحتمل غيره، والثاني مؤكد لغيره، فإن الوعد يحتمل الحق وغيره، ا هـ «بيضاوي»، وفي «زاده» المصدر إذا أكد مضمون جملة تدل على معناه، فإن كان نصاً فيه لا تحتمل غيره.. فهو مؤكد لنفسه، كما هنا فإن إليه مرجعكم لا يحتمل غير الوعد، وإن احتملته وغيره كان مؤكداً لغيره، مثل ﴿حَقًّا﴾ فإن الوعد يحتمل الحقية والتخلف، والعامل فيهما محذوف ا هـ ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾

مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، هذا على قراءة كسر همزة إن وأما على فتحها فعلى تقدير لام التعليل. وجملة قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ على كونها خبراً لـ﴿أن﴾. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: لجزائه الذين آمنوا الجار والمجرور متعلق بـ﴿يعيده﴾ ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يجزي﴾. وفي «السمين» ويجوز أن يكون قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ حالاً إما من الفاعل، وإما من المفعول؛ أي: يجزيهم ملتبساً بالحق، أو ملتبسين به، والقسط: العدل ا هـ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول ويجوز أن يكون الموصول في محل النصب، معطوفاً على الموصول قبله، وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿شَرَابٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر. ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾: صفة لشراب. ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: معطوف على شراب، والجملة الاسمية في محل الرفع، خبر للمبتدأ الأول، وجملة المبتدأ الأول مستأنفة ﴿بِمَا﴾، الباء: حرف جر ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ في تأويل مصدر، مجرور بالباء تقديره: لهم شراب من حميم، بسبب كفرهم، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار، الذي تعلق به الخبر. وقال أبو البقاء: الجار والمجرور في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ في موضع رفع صفة أخرى لعذاب، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ا هـ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾: فعل ومفعولان. ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾: معطوف على المفعولين، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير

يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ ﴿مَنَازِلَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿قدر﴾ ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول منصوب بأن مضمرة، بعد لام كي ﴿وَٱلْحِسَابَۚ﴾: معطوف على ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ والجملة في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل، الجار والمجرور متعلق ﴿بقدر﴾ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾: ذلك فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة مستأنفة ﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿يُفَصِّلُ﴾ وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة لقوم.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ﴾: جار ومجرور، و مضاف إليه خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيْلِ﴾ ﴿وَمَا﴾ في محل الجر معطوف على اختلاف الليل ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق به ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السموات﴾ والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها والعائد أو الرابط، محذوف تقديره: وما خلقه الله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر واللام حرف ابتداء ﴿لِقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾ ﴿يَتَّقُونَ﴾: صفة ﴿لِقَوْمٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿وَرَضُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ﴾ متعلق بـ ﴿رضوا﴾ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الحياة﴾ ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿رضوا﴾ ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿اطمأنوا﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ ﴿غَٰفِلُونَ﴾. ﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾، مبتدأ أول ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ مبتدأ ثانٍ. ﴿ٱلنَّارُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من الأول وخبره خبر، لـ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾: الباء حرف جر وسبب ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة أو مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما كانوا يكسبونه، أو صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية تقديره: بكسبهم، الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف، دل عليه الكلام، تقديره: جوزوا ذلك بما كانوا يكسبون، ذكره أبو البقاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾: متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فاعل والجملة في محل الرفع خبر ثانٍ لـ﴿إن﴾ أو مستأنفة أو حال من مفعول ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ كما في «أبي السعود» ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جار ومجرور خبر ثالث لـ﴿إن﴾ أو حال ثانية من مفعول ﴿يَهْدِيهِمْ﴾، أو حال من ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أو متعلق بـ ﴿تَجْرِى﴾: كما في «الخازن».

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ضمير ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾. ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: خبر محكي؛ أي: دعواهم هذا اللفظ، والجملة مستأنفة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ حال من ضمير ﴿تحيتُهم﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ، ومضاف إليه ﴿أَنِ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

مبتدأ وخبر ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ صفة للجلالة، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿أَنِ﴾ المخففة وجملة ﴿أَنِ﴾ المخففة في محل الرفع خبر المبتدأ.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم ﴿يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به ﴿ٱلشَّرَّ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ منصوب على المصدر التشبيهي، تقديره: تعجيلاً مثل استعجالهم، ثم حذف الموصوف وهو تعجيل، وأقيمت صفته مقامه وهي مثل فبقي ولو يعجل الله للناس مثل استعجالهم، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه فصار استعجالهم. ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾: متعلق به ﴿لَقُضِىَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متلعق به ﴿أَجَلُهُمْ﴾ نائب فاعل ﴿لقضي﴾ وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿فَنَذَرُ﴾: الفاء عاطفة على محذوف تقديره: ولكن نمهل، ولا نقضي إليهم أجلهم ﴿نذر الذين﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول. وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب، حال من ضمير طغيانهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾ ظرفية شرطية ﴿مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿دَعَانَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿دَعَانَا﴾ تقديره: دعانا حالة كونه مضطجعاً على جنبه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾: معطوفان على تلك الحال

المحذوفة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: عاطفة ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿كَشَفْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به ﴿ضُرَّهُۥ﴾ مفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿مَرَّ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، تقديره: كأنه ﴿لَّمْ يَدْعُنَآ﴾: جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾: متعلق به. وجملة ﴿مَّسَّهُۥ﴾ صفة لضر، وجملة ﴿يَدْعُنَآ﴾ في محل الرفع خبر، ﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب، حال من فاعل مر، تقديره: استمر هو على كفره حالة كونه مشبهاً بمن ﴿لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أصلاً؛ أي: رجع إلى حالته الأولى، وترك الالتجاء إلى ربه ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف منصوب بـ ﴿ما﴾ بعده تقديره: تزييناً مثل ذلك التزيين الذي حصل لمن مسه الضر ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: متعلق به ﴿مَا كَانُواْ﴾: ما موصولة أو موصوفة، في محل الرفع نائب فاعل، لـ ﴿زُيِّنَ﴾ أو مصدرية ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يعملونه، أو صلة ما المصدرية تقديره، كذلك زين للمسرفين عملهم الخبيث وجملة زين مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: هو القرآن العظيم و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذو الحكمة، لاشتمال الكتاب عليها ﴿عَجَبًا﴾: وفي «المختار»، والعجب: مصدر عجب من باب طرب، وتعجب واستعجب بمعنى، وعجب غيره تعجيباً، والعجب والعجاب: الشيء الذي يتعجب منه، وكذا العجاب بتشديد الجيم، وهو الأكثر وكذا الأعجوبة ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾: والوحي الإعلام الخفي لامرىء بما يخفى على

غيره. ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ والإنذار: الإخبار بما فيه تخويف ﴿وَبَشِّرِ﴾ التبشير: الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ والصدق[1]: يكون في الأقوال، ويستعمل في الأفعال، فيقال: صدق في القتال، إذا وفاه حقه، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل، وجاء في التنزيل ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ و﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ ويراد بالقدم هنا: السابقة والتقدم، والمنزلة الرفيعة. قال[2] الليث وأبو الهيثم: القدم: السابقة. قال ذو الرمة:

وَأَنْتَ آمْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ   لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ

وقال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق في خير أو شر، فهو قدم. وقال الأخفش: سابقة إخلاص، كما في قول حسان:

لَنَا ٱلْقَدَمُ ٱلْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفَنَا   لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ ٱللَّهِ تَابِعُ

وقال أحمد بن يحيى: كل ما قدمت من خير. وقال ابن الأنباري: العمل الذي يتقدم فيه، ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء. ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: يؤثر في القلوب، ويجذب النفوس فهو جار مجرى السحر. ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر واضح ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرش: مركز التدبير، ولا نعلم كنهه ولا صفته ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ والتدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود، وتدبير الأمر أو القول هو التفكر فيما وراءه، وما يراد منه وينتهي إليه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والقسط: العدل ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ والحميم: الماء الشديد الحرارة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ والشمس: كوكب نهاري يزيل ظهوره ظلمة الليل، ولها السلطنة على سائر الكواكب. والقمر: كوكب ليلي له السلطنة على سائر النجوم. والضوء: ما كان من ذاته. والنور: ما كان مكتسباً من غيره كما مر. والضياء: يحتمل كونه مصدراً، وكونه جمع ضوء، كسوط وسياط ﴿مَنَازِلَ﴾: جمع منزل، وهو اسم لمكان النزول ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.

وقال[1] في «المصباح»: رجوته أملته أو أردته، قال تعالى ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: لا يريدونه. ويستعمل بمعنى، الخوف؛ لأن الراجي يخاف أن لا يدرك ما يرجوه. وقيل: الرجاء مجرد التوقع الذي يشمل ما يسر وما يسوء. واللقاء: الاستقبال والمواجهة ﴿واطمأنوا﴾ والاطمئنان سكون النفس إلى الشيء وارتياحها به ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ والمأوى: الملجأ الذي يأوي إليه المتعب، أو الخائف، أو المحتاج من مكان آمن، أو إنسان نافع. وقد أطلق على الجنة في ثلاث آيات، وعلى النار في بضع عشرة آية. ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ والدعوى، مصدر بمعنى الدعاء، وهو للناس النداء، والطلب المعتاد بينهم في دائرة الأسباب المسخرة لهم، ولله هو دعاؤه وسؤاله، والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه، والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه، من دفع ضر أو جلب نفع ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً، وهو اسم مصدر، لسبح تسبيحاً.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ والتحية: التكرمة بقولهم: حياك الله؛ أي: أطال عمرك وحياتك. وفي «الفتوحات» التحية: التكرمة بالحالة الجليلة، أصلها: أحياك الله حياة طيبة؛ أي: ما يحيي به بعضهم بعضاً، فعلى هذا فهو مصدر مضاف لفاعله، أو تحية الملائكة إياهم كما في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أو تحية الله لهم، كما في قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ وعلى هذين الأخيرين، فهو مصدر مضاف لمفعوله كما في «الشهاب» ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ أي سلامة من كل مكروه ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ عجل يعجل تعجيلاً، من باب فعل الرباعي، والاستعجال: مصدر استعجل السداسي، وتعجيل الشيء تقديمه على أوانه المقدر له، أو الموعود به. والاستعجال به طلب التعجيل له. والعجلة من غرائز الإنسان، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه، بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز، أو للنجاة مما هو شر منه وقال الزمخشري[2]: أصله: ولو يعجل الله

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

للناس الشر تعجيله لهم بالخير، فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله بالخير، إشعاراً بسرعة إجابته لهم، وإسعافه بطلبتهم، فإن استعجالهم بالخير تعجيل لهم. قال الشيخ[1]: عجل مدلوله: غير مدلول استعجل؛ لأن عجل يدل على الوقوع، واستعجل يدل على طلب التعجيل، وذاك واقع من الله تعالى، وهذا مضاف إليهم، فلا يكون التقدير على ما قاله الزمخشري.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ وقضاء الأجل: انتهاؤه، والأجل: المدة التي أجلها الله لعباده في دار الفناء. ﴿ونذر﴾: نترك، والطغيان: مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان، والعمه: التردد والتحير في الأمر أو الشر ﴿مَرَّ﴾؛ أي: مضى في طريقته التي كان عليها من الكفر بربه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً وضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿أَنذِرِ﴾ و ﴿بشِّر﴾.

ومنها: المبالغة في المدح في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ لأن الإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة، كمسجد الجامع، ففائدة هذه الإضافة عندهم التنبيه على زيادة الفضل، ومدح القدم؛ لأن كل شيء أضيف إلى الصدق، فهو ممدوح، وفيه أيضاً المجاز المرسل؛ حيث أطلق القدم الذي هو سبب في السبق، وأراد به السابقة في الخير، والعلاقة السببية.

ومنها: إطلاق المضارع، بمعنى: الماضي في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ استحضاراً للصورة الغريبة، وفيه أيضاً إطلاق المصدر بمعنى: اسم المفعول؛ لأن الخلق هنا، بمعنى: المخلوق.

---

(١) الشيخ إذا أطلق في الفتوحات الشهاب الرملي الشافعي ا هـ مؤلفه.

ومنها: الطباق بين كلمتي البدء والإعادة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ حيث وحد الضمير، إن قلنا إن الضمير يرجع إلى الشمس والقمر كما في «الفتوحات».

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على قراءة النون وفي قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ لأن مقتضى السياق لا يرجون لقاءه، أضافه إلى ضمير الجلالة، لتعظيم الأمر وتهويله.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: كاستعجالهم أو مثل استعجالهم، ففيه تشبيه مؤكد مجمل.

ومنها: الطباق بين كلمتي الشر والخير.

ومنها: تغيير الأسلوب في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة، هو الإثابة، والعذاب إنما وقع بالعرض.

ومنها: الإشارة بالبعيد إلى القريب في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي.

ومنها: الطباق بين الليل والنهار، وبين السموات والأرض في قوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ
هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم
بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً
فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾
وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ
مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى
ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟
أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ
أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما بين في الآيات السالفة أنهم كانوا يتعجلون العذاب، وذكر أنه لا صلاح لهم في إجابة دعائهم ثم ذكر أنهم كاذبون

---

(١) المراغي.

في هذا الطلب إذ لو نزل بهم الضرّ جاؤوا وتضرعوا إلى الله في كشفه وإزالته.. بين هنا ما يجري مجرى التهديد، وهو أنه تعالى، قد ينزّل بهم عذاب الاستئصال، كما حدث للأمم قبلهم، حتى يكون ذلك رادعاً لهم وزاجراً عن هذا الطلب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى لما بدأ السورة بذكر الكتاب الحكيم، وإنكار المشركين الوحي على رجل منهم، ثم أقام الحجة على الوحي والتوحيد والبعث، بخلق العالم علويه وسفليه وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه.. أعاد هنا الكلام في شأن الكتاب نفسه، وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول، ﷺ، بشأنه وحجته البالغة عليهم، في كونه وحياً من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى، لما بين في الآيات السالفة أنهم طلبوا منه أحد أمرين، إما الإتيان بقرآن غير هذا، أو تبديله؛ لأن فيه نبذاً لآلهتهم، وطعناً فيها وتسفيهاً لآرائهم في عبادتها.. نعى عليهم هنا عبادة الأصنام، وبين لهم حقارة شأنها، إذ لا تستطيع نفعاً ولا ضراً، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله تعالى؟ ويجعل لها الشفاعة عنده تعالى، وليس لديهم برهان على ما يدّعون، سبحانه وتعالى عما يشركون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام، وبين سبب هذه العبادة.. ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة في الدين، وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ...﴾ الآية، مناسبة[1]

(١) البحر المحيط.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية، ثم ذكر قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وذلك على سبيل التعنت.. أخبر أن هؤلاء إنما يصيرون لهذه المقالات عند ما يكونون في رخاء من العيش وخلو بال، وأن إحسان الله تعالى قابلوه بما لا يجوز من ابتغاء المكر لآياته، وكان خليقاً بهم أن يكونوا أول من صدق بآياته، وإعراضهم عن الآيات نظير قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أن الناس إذا أصابهم الضر.. لجؤوا إلى الله، فإذا أذاقهم الرحمة عادوا إلى عادتهم، من إهمال جانب الله تعالى، والمكر في آياته، وكان قبل ذلك قد ذكر نحواً من هذا في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ...﴾ الآية، وكان المذكور في الآيتين أمراً كلياً أوضح تعالى ذلك الأمر الكلي بمثال جلي كاشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي، ينقطع فيه رجاء الإنسان عن كل متعلق به، إلا الله تعالى، فيخلص له الدعاء وحده في كشف هذه النازلة التي لا يكشفها إلا هو تعالى، ويتبين بطلان عبادته ما لا يضر ولا ينفع ودعواه أنه شفيعه عند الله، ثم بعد كشف هذه النازلة عاد إلى عادته من بغيه في الأرض، فإنجاؤه تعالى إياهم، هو مثال من أذاقه الرحمة، وما كانوا فيه قبل من إشرافهم على الهلاك، هو مثال من الضر الذي مسهم.

وعبارة المراغي: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] أن القوم طلبوا من الرسول ﷺ آية أخرى سوى القرآن، وذكر جواباً عن هذا، بأنه لا يملك ذلك؛ لأن هذا من الغيب الذي استأثر بعلمه.. أردف ذلك بجواب آخر، وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم، بل يكابرون حسهم، ولا يؤمنون؛ إذ من عاداتهم اللجاج والعناد، فكثيراً ما جاءتهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الآيات الكونية، الدالة على وحدانية الله تعالى في أفعاله، ثم هم يمكرون فيها، ولا تزيدهم إلا ضلالاً انتهت.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ الآية، قال ابن عباس[1] والكلبي: نزلت في المستهزئين بالقرآن، من أهل مكة، قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا، فيه ما نسألك.

وقال مجاهد وقتادة: نزلت في جماعة من مشركي مكة، وقال مقاتل: نزلت في خمسة نفر، عبد بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن وائل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: أنه لما دعا رسول الله، ﷺ، على أهل مكة بالجدب.. قحطوا سبع سنين، فأتاه أبو سفيان فقال: ادع لنا بالخصب فإن أخصبنا صدقنا، فسأل الله لهم، فسقوا ولم يؤمنوا.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾، أي: وعزتي وجلالي لقد أهلكنا واستأصلنا بالعذاب الشديد ﴿ٱلْقُرُونَ﴾؛ أي: الأمم الماضية ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: من قبل زمانكم يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: حين ظلموا أنفسهم بالإشراك والتكذيب لرسلهم وباستعمال القوى والجوارح فيما لا ينبغي ﴿و﴾ الحال أنه قد ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم فيما أخبروا به عن الله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾؛ أي: وما كان تلك الأمم الماضية ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ برسلهم ويصدقوهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى، لو أبقيناهم وأمهلناهم ولم نهلكهم؛

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

لأن الله سبحانه وتعالى، علم منهم أنهم يصرون على كفرهم والواو[1] في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ للعطف على ظلموا، أو الجملة اعتراضية لاعتراضها بين أهلكنا وبين قوله الآتي: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ واللام لتأكيد النفي يعني: أن السبب في إهلاكهم، تكذيبهم للرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم، بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل؛ أي: ولقد أهلكنا كثيراً من الأمم الماضية من قبل زمانكم، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، حين ظلموا بالتكذيب لرسلهم، والحال أنه قد جاءتهم رسلهم بالبينات، الدالة على صدقهم، وما كانوا ليؤمنوا؛ أي: وما كان من شأنهم، ولا من مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا؛ لأنهم قد مرنوا على الكفر، وصار ديدنهم حب الشهوات واللذات، من الجاه والرياسة والظلم والفسق والفجور.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: نجزي القوم المجرمين، بالإشراك والتكذيب لك يا محمد، جزاءً مثل الجزاء الذي جزيناه الأمم الماضية، وهو العذاب الشديد بالاستئصال إن لم يؤمنوا بك. وقرأت فرقة: ﴿يجزي﴾ بالياء؛ أي؛ يجزى الله، وهو التفات ذكره أبو حيان. وفي هذا وعيد شديد لأهل مكة، على تكذيبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وإهلاك الله تعالى للأمم، بالظلم ضربان:

١ ـ ضرب بعذاب الاستئصال، للأقوام الذين بعث الله تعالى فيهم رسلاً لهدايتهم، بالإيمان والعمل الصالح، كقوم نوح فعاندوا الرسل، فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيئهم بالآيات الدالة على صدقهم.

٢ ـ ضرب بعذاب، هو مقتضى سنته تعالى، في نظم الاجتماع البشري، فالظلم مثلاً سبب لفساد العمران، وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية على الضعيفة كما قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ وهو إما ظلم الأفراد لأنفسهم، بالفسوق والإسراف، في الشهوات المضعفة

---

(١) النسفي.

للأبدان، المفسدة للأخلاق، وإما ظلم الحكام، الذي يفسد بأس الأمة ويهن من قوتها.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاك تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيتها الأمة المحمدية ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون عن تلك الأمم ﴿فِى﴾ سكنى الأرض، وإحيائها ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: من بعد تلك القرون الماضية ﴿لِنَنظُرَ﴾ أي: لكي ننظر ونعلم ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عمل تعملونه من خير أو شر، فنجازيكم بحسبه. والمعنى[1]: استخلفناكم في الأرض بعد القرون المهلكة، لننظر أتعملون خيراً أم شراً، فنعاملكم على حسب عملكم. ومعنى: لننظر، أي: لنظهر في الوجود ما علمناه أزلاً، أو ليظهر متعلق علمنا، فالنظر مجاز عن هذا، وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: لينظر رسلنا وأولياؤنا، وأسند النظر إلى الله مجازاً، وهو لغيره. وقرأ يحيى بن الحارث الزماري: ﴿لنظر﴾ بنون واحدة وتشديد الظاء، وقال: هكذا رأيته في مصحف عثمان. ووجهها أن[2] النون الثانية قلبت ظاء وأدغمت في الظاء. والاستفهام في كيف لطلب تعيين أحد الأمرين؛ لأن المعنى، لنعلم جواب كيف تعملون؛ أي: أي عمل تعملونه أخير أم شر، وهي معمولة لتعملون، والجملة في موضع نصب لننظر؛ لأنها معلقة، وجاز التعليق في نظر إن لم يكن من أفعال القلوب؛ لأنها وصلة فعل القلب الذي هو العلم. ومعنى الآية: ثم[3] جعلناكم خلائف في الأرض، من بعد أولئك الأقوام، بما آتيناكم في هذا الدين، من أسباب الملك والحكم، إذ في شريعتكم، ما به سعادة الأمة في دينها ودنياها.

وفي الآية: بشارة لهذه الأمة، بأنها ستخلفهم في الأرض، إذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه، كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقد صدق الله وعده، فملكهم ملك الأكاسرة، والقياصرة، والفراعنة، وكثير من الأمم غيرها ﴿لِنَنظُرَ

(١) البحر المحيط.
(٢) العكبري.
(٣) المراغي.

﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لنرى ماذا تعملون في خلافتكم، فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله، ﷺ، قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء». أخرجه مسلم، وقوله: فاتقوا الدنيا، معناه: احذروا فتنة الدنيا، واحذروا فتنة النساء.

وقال قتادة: صدق الله ربنا، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل، أو النهار. وفي هذا إيماء، إلى أن هذه الخلافة، منوطة بالأعمال، حتى لا يغتروا بما سينالونه، ويظنوا أنه باقٍ لهم، وأنهم يتفلتون من سننه تعالى في الظالمين.

ثم حكى[1] الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم؛ أي: وإذا تلا التالي عليهم آياتنا، الدالة على إثبات التوحيد، وإبطال الشرك، حالة كونها بينات؛ أي: واضحات الدلالة على المطلوب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يخافون ﴿لقاءنا﴾ يوم القيامة بالبعث، وهم المنكرون للمعاد؛ أي: قالوا: لمن يتلوه عليهم - وهو محمد، ﷺ، حين سمعوا ما يغيظهم فيما تلاه عليهم، من القرآن، من ذم عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾؛ أي: بدل ما فيه مما نكره كسبِّ آلهتنا، وذكر البعث، وليس طلبهم تبديل جميعه؛ أي: طلبوا منه أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن، مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما تبديل هذا القرآن، بنسخ بعض آياته، أو كلها، ووضع أخرى مكانها، مما يطابق هواهم ويلائم غرضهم. والمعنى: ائت بقرآن غير هذا، مع بقاء هذا القرآن، أو بدله؛ أي: أزله بالكلية، وائت ببدله، فيكون المطلوب أحد أمرين، إما إزالته بالكلية وهو التبديل في الذات، أو الإتيان بغيره مع بقائه، فيحصل

(١) الشوكاني.

التغاير بين المطلوبين، ذكره أبو حيان.

وحاصل المعنى[1]: وإذا تتلى علىٰ هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذي أنزل إليك، حال كونها بارزات في أعلى أسلوب من البيان، دالاَّت على الحق، ساطعات الحجة والبرهان، قالوا: لمن يتلوها عليهم - وهو الرسول ﷺ - ائت بقرآن غير هذا، أو بدله؛ أي: ائت بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما لا نؤمن به، من البعث والجزاء على الأعمال، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا، والوعيد على عبادتها، أو بدله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد، آية أخرى، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله، بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره، في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها، ونظمها، أو بالتصرف فيه، بالتغيير والتبديل لما يكرهونه، منه من تحقير آلهتهم وتكفير آبائهم حتى إذا فعل هذا أو ذاك، كانت دعواه أنه كلام الله، أوحاه إليه دعوى باطلة، لا يعول عليها، وكان قصارى أمره، أنه امتاز عنهم بنوع من البيان خفيت علهيم أسباب معرفته، ولم يكن بوحي من الله كما يزعمه. فأمره الله تعالى أن يقول لهم في جوابهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يحل لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾؛ أي: من قبل نفسي. وقرىء ﴿تلقاء﴾ بفتح التاء؛ أي: قل لهم، أيها الرسول: إنه ليس من شأني، ولا مما تجيزه لي رسالتي، أن أبدله من تلقاء نفسي، ومحض رأيي، وخالص اجتهادي.

فنفى عن نفسه أحد القسمين، وهو التبديل؛ لأنه الذي يمكنه، لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر، وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه، ولا يقدر عليه. وقيل: إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين، ليكون دليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأولى.

وهذا منه[2] ﷺ، من باب مجاراة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء، بعد أن أمره الله سبحانه بذلك، وهو أعلم بمصالح عباده، وبما

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة، والسؤالات الباردة. قال الزجاج: سألوه إسقاط ما فيه، من ذكر البعث والنشور. وقيل: سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم. وقيل: سألوه أن يحول الوعيد وعداً والحرام حلالاً، والحلال حراماً. ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم، من أنه ما صح ولا استقام أن يبدله، من تلقاء نفسه بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾؛ أي: ما أتبع شيئاً من الأشياء ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ في القرآن، أو في غيره من عند الله سبحانه وتعالى، من غير تبديل ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه؛ أي: ما علي إلا البلاغ، فإن بدل الله سبحانه منه شيئاً بنسخه، بلغت عنه ما أراد وإلا فلا. ثم أمره الله تعالى أن يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم، وتعليلاً للسابق منه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾؛ أي: لأني أخاف ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخالفت ما أوحي إليّ بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: شديد عذابه، وهو يوم القيامة؛ أي إني أخاف إن فعلت أي عصيان، عذاب يوم عظيم الشأن، ألا وهو يوم القيامة، فكيف بي إذا عصيته، بتبديل كلامه اتباعاً لأهوائكم. ثم أكد الله سبحانه وتعالى كون هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنه ﷺ إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه، لا يقدر على غير ذلك فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد، لهؤلاء الذين طلبوا منك تبديل القرآن وتغييره، إن هذا القرآن المتلو عليكم، هو بمشيئة الله تعالى وإرادته و ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى عدم تلاوتي لهذا القرآن عليكم، بأن لم ينزله عليّ، ولم يأمرني بتلاوته عليكم ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ وقرأته عليكم ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا القرآن؛ أي: لو شاء الله ما تلوته عليكم، وما أعلمكم الله به بواسطتي، فالأمر كله منوط بمشيئة الله، ليس لي في ذلك شيء. وقوله: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ معطوف على ما تلوته؛ أي: ولو شاء الله ما أدراكم بالقرآن؛ أي: ما أعلمكم به على لساني، يقال: دريت الشيء، وأدراني الله به؛ أي: علمته، وأعلمني الله به؛ أي: قل لهم[1] يا محمد: لو شاء الله أن لا أتلو عليكم هذا القرآن، ما تلوته عليكم، فإنما أتلوه عليكم بأمره، وتنفيذ

---

(١) المراغي.

مشيئته، ولو شاء الله أن لا يعلمكم به، بإرسالي إليكم، لما أرسلني، ولما أدراكم به، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم النافع، لتهتدوا به، وتكونوا بهدايته خلائف في الأرض، وهذا لن يكون بكتاب آخر كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فهو قد أنزله عالماً بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر، من الهداية وأسباب السعادة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ فـ ﴿لا﴾ مؤكدة وموضحة، بأن الفعل منفي، لكونه معطوفاً على منفي من أدراه، يدريه، بمعنى: أعلمه يعلمه. وقرأ ابن كثير وقنبل والبزيّ ﴿ولأدراكم﴾ بلام دخلت على فعل مثبت، معطوف على منفي، والمعنى: ولأعلمكم به من غير طريقي، وعلى لسان غيري، ولكنه يمن على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة، ورآني لها أهلاً دون الناس. وقرأ ابن عباس وابن سيرين والحسن وأبو رجاء وابن أبي عبلة وشيبة بن نصاح: ﴿ولا أدرأتكم﴾ بهمزة ساكنة، وتاء بعدها، ثم كاف؛ أي: ولا أجعلكم بتلاوته عليكم خصماء، تدرؤونني بالجدال، وتكذبونني، من الدرء، بمعنى: الدفع يقال: درأته دفعته، كما قال تعالى؛ ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ ودرأته، جعلته دارئاً؛ أي: خصماً. وقرأ شهر بن حوشب والأعمش ﴿ولا أنذرتكم به﴾ بالنون، والذال من الإنذار، وكذا هي في مصحف ابن مسعود. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿ولا أدريكم﴾ بالإمالة.

وقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة الله تعالى، ولم يكن من النبي، ﷺ إلا التبليغ، أي: فقد مكثت بين ظهرانيكم عمراً طويلاً، وهو أربعون سنة، من قبل تلاوة هذا القرآن عليكم، لم أتل عليكم سورةً من مثله. ولا آية تشبه آياته، لا في العلم والهداية، ولا في البيان والبراعة، تعرفونني بالصدق والأمانة، ولست ممن يقرأ ولا ممن يكتب. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتقريع[2] والتوبيخ داخلة على محذوف، تقديره: أعميتم عن الحق

(١) البحر المحيط وزاد المسير وغيرهما.

(٢) الشوكاني.

فلا تعقلون؛ أي: فلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي، لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدة الطويلة، بالصدق والأمانة مني، وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل، وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن، ولا حرصي عليه، ثم جئت بهذا الكتاب، الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته، وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة، المعترف لهم، بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؛ أي[1]: أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة، لم يقرأ كتاباً، ولم يلقن من أحد علماً، ولم يتقلد ديناً ولم يمارس أساليب البيان، وأفانين الكلام، من شعر ونثر وخطابة وفخر وعلم وحكمة، لا يمكنه أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان، فكيف تقترحون علي، أن آتي بقرآن غيره؟ وقد كان أكثر أنبياء بني إسرائيل، قبل نبوتهم على شيء من العلم، كما قال تعالى في موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقال في يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

والخلاصة[2]: أن كفار مكة، شاهدوا رسول الله ﷺ قبل مبعثه، وعلموا أحواله، وأنه كان أمياً لم يقرأ كتابا، ولا تعلم من أحد، وذلك مدة أربعين سنة، ثم بعدها جاءكم بكتاب عظيم الشأن، مشتمل على نفائس العلوم والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق، فكل من له عقل عليم، وفهم ثابت، يعلم أن هذا القرآن من عند الله تعالى، لا من عند نفسه.

وقرأ الحسن والأعمش[3]: ﴿عمرا﴾ بضم العين وسكون الميم. قال أبو عبيدة وفي العمر ثلاث لغات، عمر، بضم فسكون، وعمر بضمتين، وعمر بفتح فسكون.

---

(١) المراغي.
(٢) الصاوي.
(٣) زاد المسير.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في عمر النبي ﷺ

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزل على رسول الله ﷺ، وهو ابن أربعين سنة، فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي، ﷺ. متفق عليه. وفي رواية، أن رسول الله، ﷺ، أقام بمكة ثلاث عشرة سنة، يوحى إليه، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. وفي رواية أن النبي ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة، يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين، ولا يرى شيئاً، وثمان سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة. أخرجاه في «الصحيحين».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله، ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. متفق عليه. وعن أنس رضي الله عنه قال: قبض رسول الله ﷺ، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين سنة، وعمر وهو ابن ثلاث وستين سنة. أخرجه مسلم. وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن رضي الله عنه قال: سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله ﷺ يقول: كان ربعة من القوم، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ليس بجعد قطط، ولا سبط رجل، أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي، وبالمدينة عشراً، وتوفاه الله على رأس ستين سنة، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. متفق عليه.

وقال النووي رحمه الله: ورد في عمره ﷺ ثلاث روايات:

أحدها: أنه ﷺ توفي وهو ابن ستين سنة.

والثانية: خمس وستون سنة.

والثالثة: ثلاث وستون سنة، وهي أصحها وأشهرها، رواها مسلم، من حديث أنس وعائشة وابن عباس، واتفق العلماء، على أن أصحها رواية، ثلاث وستين، وحملوا الباقي عليها، فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود، وترك الكسر، ورواية الخمس متأولة أيضاً، بأنها حصل فيها اشتباه.

قوله: يسمع الصوت، أي: صوت الهاتف من الملائكة، ويرى الضوء؛

أي: نور الملائكة، أو نور آيات الله، حتى رأى الملك بعينه، وشافهه بالوحي من الله عزّ وجلّ. وقوله: ليس بالأمهق، المراد به: الشديد البياض، كلون الجص، وهو كريه المنظر، وربما توهم الناظر أنه برص، والمراد أنه كان أزهر اللون، بين البياض والحمرة.

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للإنكار[١]؛ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَذِبًا﴾ فزعم أن لله شريكاً وولداً.

والمعنى[٢]: أني لم أفتر على الله كذباً، ولم أكذب عليه في قولي: إن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنتم قد افتريتم على الله الكذب، فزعمتم أن له شريكاً وولداً، والله تعالى منزه عن الشريك والولد. وقيل معناه: إن هذا القرآن، لو لم يكن من عند الله، لما كان أحداً في الدنيا أظلم على نفسه مني، من حيث إني افتريته على الله، ولما كان هذا القرآن من عند الله، أوحاه إليّ، وجب أن يقال: ليس أحد في الدنيا أجهل، ولا أظلم على نفسه منكم، من حيث إنكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله، فقد كذبتم بآياته وهو قوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ تعالى القرآنية أو الكونية؛ أي: جحد بكون القرآن من عند الله تعالى، وأنكر دلائل توحيده. ففيه[٣] بيان أن الكاذب على الله، والمكذب بآياته في الكفر سواء.

وإنما زاد كذباً في قوله[٤]: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه، فربما يكون الافتراء كذباً في الإسناد فقط، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو، ذكر معنى هذا أبو السعود في تفسيره. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بآياته؛ أي: إن الشأن والحال لا ينجو المشركون من عذاب الله، ولا يظفرون الخير في الدنيا والآخرة، لافترائهم الكذب على الله بنسبة الشريك، ولتكذيبهم بآيات الله تعالى، ثم نعى الله سبحانه

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) النسفي.

(٤) الشوكاني.

عليهم عبادة الأصنام، وبين أنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ويعبد هؤلاء المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي متجاوزين الله سبحانه وتعالى إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية؛ أي: ويعبدون معه تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ أي: ما ليس من شأنه الضرر، ولا النفع، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً لمن أطاعه، معاقباً لمن عصاه. والواو لعطف هذه الجملة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: ويعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً من الأصنام وغيرها. حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده، فهم يعبدونه ويعبدون معه غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ ونفي الضر والنفع هنا، باعتبار ذواتهم، وإثباتهما في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ باعتبار السبب، فلا يرد كيف نفى عن الأصنام هنا الضر والنفع، وأثبتهما لها في الحج، اهـ «كرخي».

وفي الآية: إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدعون، هو اعتقادهم فيها القدرة على الضر والنفع، فرد عليهم خطأهم بأنه هو القادر على نفع من يعبده، وضر من يشرك بعبادته غيره، في الدنيا والآخرة. وقد دل تاريخ البشر في كل طور من أطواره، على أن كل ما عبده البشر من دون الله تعالى، من صنم أو وثن، فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر، بسلطان له فوق الأسباب المعروفة، كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة، أو الخشب والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة، أو غير المصنوعة، كاللات، وهي صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق، عظمت حتى عبدت، أو الأشجار، كالعزى، معبودة قريش.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في حقها وشأنها، معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ويقول هؤلاء المشركون في سبب عبادتهم لها، مع اعتقادهم أنها لا تملك الضر، ولا النفع بأنفسها إيمانهم: بأن الرب الخالق، هو الله تعالى و ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى فإنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الدنيا، في إصلاح معايشهم، وكشف ما يهمهم، كالقحط؛ لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثاً بعد

الموت، أو تشفع لهم في الآخرة على تقدير أن يبعثوا؛ لأنهم كانوا شاكين في البعث؛ أي: ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ونطيبها بالعطر، ونقدم لها النذور ونهل لهم عند ذبح القرابين، بذكر أسمائهم، وبدعائهم والاستغاثة بهم؛ لأنهم يشفعون لنا عند الله تعالى، ويقربونا إليه زلفى، ويدفعون بجاههم عنا البلاء ويعطوننا ما نطلب من النعماء، والإخبار بهذا عن الكفار هو على سبيل التجهيل والتحقير لهم ولمعبوداتهم، والتنبيه على أنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة. وقال أهل المعاني: توهموا أن عبادتها أشد في تعظيم الله من عبادتهم إياه، وقالوا لسنا بأهلٍ أن نعبد الله، ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام، فإنها تكون شافعة لنا عند الله، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

فأساس عقيدة الشرك، أن جميع ما يطلب من الله تعالى، لا بد أن يكون بوساطة المقربين عندهم، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم؛ لأنها مدنسة بالمعاصي. أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده، تائباً إليه طالباً مغفرته ورحمته. والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ للتوبيخ والتقريع والإنكار والتهكم. وقرأ أبو السمال العدوي ﴿أتنبئون﴾ بالتخفيف من أنبأ، ينبىء. وقرأ من عداه: بالتشديد من نبأ، ينبىء؛ أي: قل لهم يا محمد تبكيتاً لهم، ومبيناً لهم كذبهم ومنكراً عليهم افتراءهم على ربهم، أتخبرون الله سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بالأمر الذي لم يعلم الله سبحانه وتعالى وجوده في السموات، وهو شفاعة الملائكة لهم، ولا وجوده في الأرض وهو شفاعة الأصنام، وإذا لم يعلم الله شيئاً من الأشياء، استحال وجود ذلك الشيء؛ لأنه تعالى لا يعزب عن علمه شيء. وقال الضحاك: أتخبرون الله أن له شريكاً، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض، انتهى. ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده، لكان أعلم بهم منكم، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذاً هؤلاء لا وجود لهم عنده، وأنكم قد اتخذتم ذلك قياساً على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم، والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم، بدون وساطة

الوزراء وذوي المكانة فيهم. وبهذا ثبت بطلان الشرك في الألوهية، وهو عبادة غير الله تعالى مهما يكن المعبود.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عن كل ما لا يليق به ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: ترفع وعلا ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: عن شركائهم، الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى. والمعنى: تنزه ربنا، وعلا علواً كبيراً، عما يشركون به من الشفعاء. والوسطاء، وما يفترونه عليه، من أن لأحد من خلقه وساطة عنده، وشفاعة لديه تقرب إليه زلفى، ففي هذا تحقير لمقام الربوبية و الألوهية، وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين. وفي هذا إيماء إلى أن شؤون الرب، وسائر ما في عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحي، ومن ذلك اتخاذ الشفعاء والوسطاء عنده فيكون كفراً صراحاً.

وقرأ العربيان[1]: أبو عمرو وابن عامر، والحرميان: نافع وابن كثير وعاصم: ﴿يشركون﴾ بالياء على الغيبة هنا، وفي حرفي النحل وحرف في الروم. وذكر أبو حاتم، أنه قرأها كذلك الحسن والأعرج، وابن القعقاع وشيبة وحميد وطلحة والأعمش، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: في النمل فقط، بالتاء على الخطاب. وعاصم وأبو عمرو بالياء على الغيبة. وقرأ حمزة والكسائي: الخمسة بالتاء على الخطاب. وأتى بالمضارع، ولم يقل عما أشركوا للدلالة على استمرار حالهم كما جاؤوا يعبدون، وأنهم على الشرك في المستقبل، كما كانوا عليه في الماضي ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ جميعاً ﴿إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ موحدة لله سبحانه وتعالى، مؤمنة به متفقة على فطرة الإسلام والتوحيد، من غير أن يختلفوا بينهم؛ لأن التوحيد والإسلام ملة قديمة اجتمعت عليها الناس قاطبةً فطرةً وتشريعاً وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة؛ أي: إنهم كانوا في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ﴿فَٱخۡتَلَفُواْ﴾؛ أي؛ ثم اختلفوا في الأديان، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه،

---

(١) البحر المحيط.

ثم اختلفوا في الكتاب أيضاً بغياً بينهم، واتباعاً لأهوائهم، وقيل المعنى: وما كان الناس إلا على دين واحد، هو دين الإسلام في عهد آدم عليه السلام، إلى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف وعبدت الأصنام والأوثان، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ حق ﴿سَبَقَتْ﴾ من الله تعالى وقضاء وقع ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أزلاً بتأخير الجزاء العام إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لعجل لهم الجزاء في الدنيا، بالقضاء بينهم ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: في الدين الذي يختلفون بسببه، ففي سببية بإهلاك المبطلين، وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلاً بينهم. وعبر بالمضارع عن الماضي حكايةً للحال الماضية. وفي الآية[1] وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدي إلى العدوان، والشقاق، ولا سيما الاختلاف في الكتاب الذي أنزل لإزالة الشقاق. وقرأ[2] عيسى بن عمر: ﴿لقضى﴾ بالبناء للفاعل. وقرأ من عداه: بالبناء للمفعول.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: وقال أهل مكة: مرة بعد مرة وكرة بعد كرة. وعبر بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه؛ أي: وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: هلا أنزل على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ﴾ أخرى كونية، سوى القرآن ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ دالة على صدق ما يقول، كما كان لصالح، من الناقة، ولموسى، من العصا. والقائلون[3] ذلك هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسول الله، ﷺ، من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة، التي لو لم يكن منها إلا القرآن، لكفى به دليلاً بيناً، ومصدقاً قاطعاً؛ أي: هلا أنزلت عليه آية من الآيات، التي نقترحها عليه، ونطلبها منه، كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهباً وغير ذلك.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الشوكاني.

ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في الجواب: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: إن نزول الآية غيب والله هو المختص بعلمه المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته، فإن كان قدر إنزال آية عليّ.. فهو يعلم وقتها وينزلها فيه، ولا أعلم إلا ما أوحاه إليّ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها. وقيل المعنى: انتظروا قضاء الله بيني وبينكم، بإظهار الحق على الباطل، أو انتظروا لما يفعل الله بكم، لاجترائكم على جحود الآيات القرآنية واقتراح غيرها. والآية بمعنى قوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. وقد جاء تفسير ما ينتظر وينتظرونه في قوله في آخر هذه السورة: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾. وفي الآية الإنذار بما سيحل بهم من العذاب، بخذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا، وما وراءها من عذاب الآخرة. ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: وإذا أعطينا ورزقنا كفار مكة ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: نعمة وخصباً ورخاءً وسعة العيش ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾؛ أي: من بعد فقر وقحط وشدة وبلاء، وضيق أصابهم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين، حتى هلكوا من الجوع والقحط، ثم إن الله سبحانه وتعالى رحمهم، فأنزل عليهم المطر الكثير، حتى أخصبت البلاد، وعاش الناس بعد ذلك الضر، فلم يتعظوا بذلك، بل رجعوا إلى الفساد والكفر والمكر، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ وتدبير ﴿فِيٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَاتِنَا﴾ القرآنية والكونية واستهزاء وتكذيب لها، وإذا الأولى شرطية، وجوابها ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ وهي فجائية، يستفاد منها السرعة؛ لأن المعنى: أنهم فاجؤوا المكر وسارعوا فيه؛ أي: أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة.

والمعنى[1]: وإذا رزقنا المشركين بالله فرجاً بعد كرب، ورخاء بعد شدة أصابتهم، بادروا إلى المكر وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر، فإذا كانت

(١) المراغي.

الرحمة مطراً أحيا الأرض، وأنبت الزرع، ودر به اللبن بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها، عللوها بالمصادفات، وإذا كان سببها دعاء نبي أنكروا إكرام الله له وتأييده بها، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ، ثم رفع عنهم بدعائه، عليه الصلاة والسلام، فما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً.

روى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن قريشاً، لما استعصوا على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام والميت، من الجهد، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان، من الجوع، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾ فجاء أبو سفيان، إلى رسول الله، ﷺ، فقال: يا محمد، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، فدعا لهم، فكشف الله عنهم العذاب، ومطروا، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول، يطعنون في آيات الله تعالى، ويعادون رسوله ﷺ، ويكذبونه.

﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَسْرَعُ﴾ وأعجل منكم ﴿مَكْرًا﴾؛ أي:[1] عقوبة على مكركم، وأشد أخذاً، وأقدر على الجزاء، وأن عذابه في هلاككم أسرع إليكم مما يقع منكم في دفع الحق؛ أي: إن هؤلاء[2] الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر، فالله تعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك، وهو إهلاكهم يوم بدر، وحصول الفضيحة والخزي في الدنيا، وعذاب شديد يوم القيامة. ومعنى الوصف بالأسرعية: أنه تعالى، قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم، والمكر من الله، إما الاستدراج، أو الجزاء على المكر، أي: إخفاء

(١) الخازن.

(٢) المراح.

الكيد. وتسمية[1] عقوبة الله مكراً، من باب المشاكلة، كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز.

والخلاصة: أي قل لهم: إنَّ الله أسرع منكم مكراً، فهو قد دبر عقابكم، وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون، في إطفاء نور الإسلام، وقد سبق في تدبيره لأمور العالم، وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة، وهو عليم بما تفعلون، لا تخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحفظة الذين يحفظون أعمالكم، ووكلهم الله تعالى بإحصاء أعمال الناس، وكتبها للحساب والمجازاة عليها في الآخرة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ به أو يكتبون مكركم، ويعرض عليكم يوم القيامة ما في بواطنكم الخبيثة. وفي ذلك تنبيه، إلى أن ما دبروا، ليس بخاف عليه تعالى، وإلى أن انتقامه حاصل واقع بهم لا محالة، وفيه وعيد لهم شديد، وهذه الجملة تعليلية للجملة التي قبلها، فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى، فعقوبة الله كائنة لا محالة. والمعنى: إن رسل الله، وهم الملائكة، يكتبون مكر الكفار، لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة، فكيف يخفى على العليم الخبير؟.

وقرأ الحسن[2]، وابن أبي إسحاق وأبو عمرو ﴿رسلنا﴾ بالتخفيف. وقرأ الحسن وقتادة ومجاهد والأعرج، ورويت عن نافع ويعقوب في رواية، وأبو عمرو في رواية ﴿يمكرون﴾ بالتحتية على الغيبة، جرياً على ما سبق. وقرأ أبو رجاء وشيبة وأبو جعفر وابن أبي إسحاق وعيسى وطلحة والأعمش والجحدري وأيوب بن المتوكل وابن محيصن وشبل وأهل مكة والسبعة: ﴿تمكرون﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب مبالغة لهم في الإعلام بحال مكرهم، والتفاتاً لقوله: ﴿قُلِ لِلَّهِ﴾؛ أي: قل لهم، فناسب الخطاب. وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات أيضاً إذ لم يأت إن رسله. وقال أيوب بن المتوكل في مصحف أبي ﴿ياأيها الناس إن الله

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

أسرع مكرا وإن رسله يكتبون ما تمكرون﴾. وينبغي أن يحمل هذا على التفسير؛ لأنه مخالف لما أجمع عليه المسلمون، من سواد المصحف، والمحفوظ عن أبي القراءة والإقراء بسواد المصحف.

وعلينا[١] أن نعتقد بأن الملائكة، تكتب الأعمال كتابة غيبية، لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها، وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكيماً في إحصاء أعمالنا؛ لأجل أن نراقبه فيها، فنلتزم الحق والعدل والخير، ونجتنب أضدادها.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان جناية أخرى لهم، مبنية على ما مر آنفاً، من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم، من السراء والضراء، ا هـ «أبو السعود»؛ أي: هو سبحانه وتعالى الإله الذي يسيركم، وينقلكم في نواحي البر وأرجائه مشاةً وركباناً، وفي أمواج البحر بالسفن والبواخر، وفي الجو بالطائرات. وقيل: يحملكم في البر على ظهور الدواب، وفي البحر على الفلك، أي: إنه تعالى هو الذي وهبكم القدرة على السير في البر، وسخر لكم الإبل والدواب، وفي البحر بما سخر لكم من السفن التي تجري في البحر، والقطر التجارية، والسيارات، وفي الهواء بالطائرات التي تسير في الجو.

وقرأ[٢] زيد بن ثابت والحسن وأبو العالية وزيد بن علي وأبو جعفر وعبد الله بن جبير وأبو عبد الرحمن وشيبة بن عامر: ﴿ينشركم﴾ من النشر والبث. وقرأ الحسن أيضاً: ﴿ينشركم﴾ من الإنشار وهو الإحياء، وهي قراءة عبد الله. وقرأ بعض الشاميين: ﴿ينشركم﴾ بالتشديد، للتكثير من النشر، الذي هو مطاوعة الانتشار. وقرأ باقي السبعة والجمهور: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من التسيير. قال أبو علي، هو تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية؛ لأن العرب تقول سرت الرجل وسيرته. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: في السفن.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ أبو الدرداء وأم الدرداء[1]: ﴿في الفُلْكِيِّ﴾ بزيادة ياء النسب، وخرج ذلك على زيادتها، كما زادوها في الصفة، في نحو أحمري وزواري. وقيل: إنه صفة لموصوف محذوف، تقديره: في اللج الفلكي؛ أي: في اللج، الذي لا تجرى السفن إلا فيه، واللج الماء الغمر العميق. وحتى غاية للتسيير في البحر.

قال صاحب[2] «الكشاف»: فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غايةً للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بعد الكون في الفلك؟

قلت: لم يجعل الكون في الفلك غايةً للتسيير، ولكن الغاية مضمون الجملة الشرطية، الواقعة بعد حتى بما في حيزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة، وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج، وظن الهلاك والدعاء بالإنجاء. ا هـ. وجواب إذا هو جاءتها.

فعلم أن الغاية: هي مضمون[3] الجملة الشرطية بكمالها، فالقيود المعتبرة في الشرط ثلاثة:

أولها: الكون في الفلك.

والثاني: جريها بهم بالريح الطيبة، التي ليست بعاصفة.

وثالثها: فرحهم.

والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة أيضاً:

الأول: جاءتها.

والثاني: وجاءهم الموج.

والثالث: ظنوا.

وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾، بدل من ظنوا بدل اشتمال، أو مستأنف مبني على سؤال، ينساق إليه الذهن، كأنه قيل: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعوا الله إلخ.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

(٣) الشوكاني.

وفي قوله: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾[1] دلالة على جواز ركوب البحر، ولما كان الخوف في البحر أغلب على الإنسان منه في البر، وقع به المثال لذلك المعنى الكلي به، من التجاء العبد لربه تعالى حالة الشدة، والإهمال لجانبه حالة الرخاء.

وفي قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ التفات[2] عن الخطاب في قوله، كنتم إلى الغيبة، وحكمة الالتفات هنا، هي أن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ خطاب فيه امتنان، وإظهار نعمة المخاطبين، والمسيرون في البر والبحر مؤمنون وكفار، والخطاب شامل، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة. ولما كان في آخر الآية ما يقتضي أنهم إذا نجوا بغوا في الأرض، عدل عن خطابهم بذلك إلى الغيبة، لئلا يخاطب المؤمنون بما لا يليق صدوره منهم، وهو البغي بغير الحق. ا هـ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ﴾ أيها المسيرون ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والسفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾؛ أي: السفن ملتبسة ﴿بِهِم﴾؛ أي: بالذين فيها، ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة كما مر ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ أي: لينة الهبوب إلى جهة المقصد ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الريح اللينة فرحاً تاماً وقوله: ﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب إذا، كما مر؛ أي: جاءت تلك الريح اللينة الطيبة وتلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾؛ أي: شديدة الهبوب أزعجت سفينتهم، أو المعنى: جاءت الفلك ريح عاصف، والعصوف: شدة هبوب الريح ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ العظيم الذي أرجف قلوبهم، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: من كل ناحية؛ أي: جاء الراكبين فيها الموج من جميع الجوانب للفلك. والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ أي: أحاط بهم الهلاك؛ أي: ظنوا القرب من الهلاك؛ أي: غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم، أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك، وإن كان بغير العدو كما هنا. وقوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، بدل من ظنوا، كما مر لكون هذا الدعاء الواقع، إنما كان عند ظن الهلاك، وهو الباعث عليه، فكان بدلاً منه بدل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

اشتمال، لاشتماله عليه، ويمكن أن تكون جملة دعوا مستأنفة، كأنه قيل: ماذا صنعوا، فقيل: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ كما مر ذلك كله آنفاً، حالة كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الدِّينَ﴾؛ أي: الدعاء من غير أن يشركوا معه تعالى شيئاً، من آلهتهم؛ أي[1]: وهم مقرون بوحدانية الله تعالى وربوبيته، لأجل علمهم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى، فيكون إيمانهم جارياً مجرى الإيمان الاضطراري، قائلين والله ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ وخلصتنا يا إلهنا ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ الشدائد التي نحن فيها، وهي الريح العاصفة، والأمواج المتلاطمة والله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ للنعم التي أنعمت بها علينا، التي من أجلها كشف هذه الشدائد عنا.

وحاصل المعنى: أي[2] حتى إذا كنتم في الفلك التي سخرناها لكم، وجرت بمن فيها بسبب ريح مؤاتية لهم في جهة سيرهم، وفرحوا بما هم فيه، من راحة وانتعاش، وتمتع بمنظره الجميل، وهوائه العليل، جاءت ريح شديدة قوية، فاضطرب البحر وتموج سطحه كله، فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحي، بتأثير الريح، واعتقدوا أنهم هالكون لا محالة، بإحاطة الموج بهم، فبينما يهبط الريح العاصف بهم في لجج البحر حتى كأنهم سقطوا في هاوية، إذا به يثب بهم إلى أعلى، كأنهم في قمة الجبل الشاهق. فإذا ما نزلت بهم نذر العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.. دعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ما حل بهم، ولا يتوجهون معه إلى وليّ، ولا شفيع ممن كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء، وقد صمموا العزيمة على طاعته، وقالوا: ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة، لنكون من جماعة الشاكرين، ولا نتوجه في تفريج كروبنا، وقضاء حوائجنا إلى وثن، ولا صنم.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾؛ أي: فلما أنجى الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم، وواعدوا له بالشكر على الإنجاء، إذا أنجاهم من تلك الشدائد التي أحاطت بهم، وأخرجهم إلى البر ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: فاجؤوا وأسرعوا البغي والفساد في الأرض، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

هذا شامل لأقطار الأرض؛ أي: فلما نجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة، فاجؤوا الناس في الأرض التي يعيشون فيها، بالبغي والاستطالة عليهم، والظلم لهم مع الإمعان في ذلك. والإصرار عليه، أو المعنى: أنهم أخلفوا الله ما وعدوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصي على ظهرها.

وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيداً للواقع، وتذكير بقبحه وسوء حال أهله، أو لبيان أنه بغير حق عندهم أيضاً، بأن يكون ظلماً ظاهراً، لا يخفى على أحد قبحه، كما جاء في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. قال صاحب «الكشاف»: فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والبغي لا يكون بحق؟

قلتُ: بلى قد يكون بحق، كاستيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم، وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم، كما فعل رسول الله، ﷺ، ببني قريظة. وبعد أن حكى المثل، خاطب البغاة في أي مكان كانوا، وفي أي زمان وجدوا، منبهاً واعظاً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الغافلون عن أنفسكم، أما كفاكم بغياً على المستضعفين منكم اغتراراً بقوتكم وكبريائكم ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وظلمكم في الحقيقة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾؛ لأن عاقبة وباله عائدة إليكم، وإنما تتمتعون ببغيكم ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائلة وهي تنقضي سريعاً، والعقاب باقٍ.

والبغي من[1] منكرات الذنوب العظام قال بعضهم: لو بغى جبل على جبل.. لاندك الباغي. وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعراً، وكان المأمون يتمثل به فقال:

يَا صَاحِبَ ٱلْبَغْيِ إِنَّ ٱلْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ   فَٱرْجِعْ فَخَيْرُ مَقَالِ ٱلْمَرْءِ أَعْدَلُهُ
فَلَوْ بَغَىٰ جَبَلٌ يَوْمَاً عَلَىٰ جَبَلٍ   لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فنخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها، معطوف[2] على ما

---

(١) الخازن.   (٢) أبو السعود.

مر من الجملة المستأنفة، المقدرة، فكأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل، فننبئكم بما كنتم تعملون من البغي والظلم، والتمتع بالباطل، ونجازيكم به، وإنما غير الأسلوب إلى الجملة الاسمية، مع تقديم الجار والمجرور، للدلالة على الثبات والقصر، ا هـ «أبو السعود».

وفي[1] الآية إيماء، إلى أن البغي مجزيٌّ عليه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فلقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والبخاري: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة من البغي، وقطيعة الرحم»، والذي رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله، ﷺ، «ثلاث، هن رواجع على أهلها: المكر، والنكث، والبغي»، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وأما في الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد.

والخلاصة: أن البغي، وهو أشنع أنواع الظلم، يرجع على صاحبه لما يولد من العداوة والبغضاء بين الأفراد ولما يوقد من نيران الفتن والثورات في الشعوب. انظر إلى من يبغي على مثله، تجده قد خلق له عدواً، أو أعداءً، ممن يبغي عليهم.

ولا شك أن وجود الأعداء، ضرب من العقوبة، فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التي يقدرون عليها، وإن هم لم يفعلوا ذلك.. فإنه يرى في أعينهم من أنواع الحنق والغضب ما لا يخفى عليه، فيتأجج قلبه حسرةً وندامةً على ما فعل، ويود أن لو لم يكن خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة في النفوس.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط وزاد المسير والشوكاني.

محذوف، تقديره ذلك البغي متاع الحياة الدنيا. وقال النحاس: على قراءة الرفع، يكون بغيكم مرتفعاً بالابتداء، وخبره متاع الحياة الدنيا، وعلى أنفسكم مفعول البغي. ويجوز أن يكون خبره على أنفسكم، ويضمر مبتدأ؛ أي: ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا، انتهى. والمعنى على الأول: إن بغي هذا الجنس الإنساني، بعضه على بعض هو سريع الزوال، قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة، ولا عظيم جدوى. وعلى الثاني، أن ما يقع من البغي على الغير، هو بغي على نفس الباغي، باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه، مجازاة على بغيه. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن. وحفص وأبان عن عاصم وزيد بن علي وابن أبي إسحاق وهارون عن ابن كثير: بنصب الـ﴿متاع﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف، تقديره: تمتعون متاع الحياة الدنيا كما مر. وقرأ أبو المتوكل واليزيدي في اختياره وهارون العتكي عن عاصم: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ بكسر العين على أنه صفة ﴿لأنفسكم﴾ ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: ذوات متاع الحياة الدنيا، ذكره أبو البقاء. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً ﴿متاعا الحياة الدنيا﴾. بنصب متاع، وتنوينه، ونصب الحياة. وقرأت فرقة ﴿فينبئكم﴾ بالياء على الغيبة والمراد الله تعالى.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق[1] بـ﴿أهلكنا﴾ وليس بحال من القرون؛ لأنه زمان، ذكره أبو البقاء ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين في محل

---

(١) العكبري.

النصب على الظرفية الزمانية، مبنية على السكون، والظرف متعلق بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿ظَلَمُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾ ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، حال من واو ﴿ظَلَمُواْ﴾ على تقدير: قد، أو في محل الجر، معطوف على ﴿ظَلَمُواْ﴾ ﴿وَمَا كَانُواْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾ ﴿اللام﴾، حرف جر وجحود ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، على مذهب البصريين، والجار والمجرور متعلق بخبر ﴿كَانَ﴾ المحذوف، والتقدير: وما كانوا مريدين لإيمانهم، والجملة معطوفة[1] على ﴿ظَلَمُواْ﴾ كما ذكره السيوطي، فكأنه قيل: لما ظلموا وأصروا على الكفر، بحيث لم يبق فائدة في إمهالهم، أهلكناهم، فيكون السبب في إهلاكهم مجموع هذين الأمرين. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ﴾: فعل ومفعول ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ صفة للقوم، وفاعله ضمير، يعود على الله، والتقدير: نجزي القوم المجرمين، جزاء مثل الجزاء المذكور في الأمم الماضية، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ فعل وفاعل، ومفعولان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: صفة لخلائف، أو متعلق بـ ﴿جعلنا﴾ والجملة معطوفة على ﴿أهلكنا﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله ﴿لِنَنظُرَ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي ﴿ننظر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل، المتعلقة بـ ﴿جعلنا﴾ والتقدير: جعلناكم خلائف لنظرنا ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب، مفعول مقدم لـ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لا لننظر،

(١) جلالين مع الفتوحات.

لأن: لها صدر الكلام ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب، مفعول ﴿لِنَنظُرَ﴾ معلق عنها باسم الاستفهام، والمعنى: لنعلم جواب كيف تعملون، كما مر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَاتُنَا﴾: نائب فاعل ومضاف إليه. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من آياتنا، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾: مقول محكي، لـ ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ٱئْتِ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِقُرْءَانٍ﴾: متعلق به. ﴿غير﴾ صفة لـ ﴿قرآن﴾ ﴿هَٰذَا﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول: ﴿قَالَ﴾.

فائدة: ولفظ ﴿ائت﴾ إن قرىء بالوصل بما قبله.. فالأمر ظاهر، وإن وقف على لقائنا.. قرىء ﴿ايت﴾ بهمزة، ثم ياء ساكنة، بعدها على حد قول ابن مالك:

وَمَــدًّا ٱبْـدِلْ ثَـانِـيَ ٱلْـهَـمْـزَيْـنِ مِـنْ كَـلِـمَـةٍ.............. إلخ

﴿أَوْ﴾: حرف عطف ﴿بَدِّلْهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ائت﴾ ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ نافية ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص ﴿لِىٓ﴾ جار ومجرور خبرها مقدم ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق

به، والجملة في تأويل مصدر مرفوع، على كونه اسم يكون، تقديره: قل ما يكون تبديلي إياه من تلقاء نفسي كائناً لي ولائقاً بي وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب، مقول القول ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَا﴾ في محل النصب، مفعول به ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾ ﴿إِلَىَّ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿أَخَافُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب، مقول القول ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم، بـ﴿إِنْ﴾ على كونه، فعل شرط لها ﴿رَبِّي﴾ مفعول ﴿عَصَيْتُ﴾ وجواب إن معلوم مما قبله، تقديره: إن عصيت ربي... أخاف عذاب يوم عظيم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معترضة على كونها مقول القول، لاعتراضها بين المفعول وفعله. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾: مفعول لـ﴿أَخَافُ﴾ ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة يوم.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ ﴿لَّوْ﴾ ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: عدم تلاوتي إياه. ﴿مَا﴾ نافية ﴿تَلَوْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لَّوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوْ﴾ في محل النصب مقول القول ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: نافية مؤكدة لنفي ما قبلها ﴿أَدْرَىٰكُم﴾: فعل ومفعول ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة تلوته ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: تعليلية ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿لَبِثْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿فِيكُمْ﴾: متعلق به ﴿عُمُرًا﴾: منصوب على التشبيه بظرف الزمان؛ أي: مدة متطاولة، متعلق بـ ﴿لَبِثْتُ﴾ والجملة الفعلية معللة لما قبلها، على كونها مقول القول ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق

بـ ﴿لَبِثْتُ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أعميتم. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لَا﴾: نافية ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول القول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَنْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان حكم من افترى على الله.. فأقول لكم. ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾؛ خبره والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿مِمَّنِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَظْلَمُ﴾ ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾: معطوف على ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾: متعلق به ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ عطف قصة على قصة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿لَا يَضُرُّهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾ والجملة صلة لما، أو صفة لها ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: معطوف على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾: مبتدأ وخبر ﴿عندَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾: والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ ...﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي الإنكاري ﴿تنبئون الله﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿بِمَا﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني ﴿لَا يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير على الله، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها. والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما لا يعلمه، وجملة ﴿تنبئون﴾ في محل النصب مقول، ﴿قل﴾ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بـ ﴿يَعۡلَمُ﴾ ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ معطوف على ﴿في السموات﴾ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، بعامل محذوف وجوباً، تقديره، أسبحه سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول، لقل، أو مستأنفة. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ معطوف على جملة سبحانه ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تعالى﴾ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عما يشركونه به، أو صلة ما المصدرية؛ أي: عن إشراكهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

﴿وَمَآ﴾: الواو: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿أُمَّةٗ﴾ خبر كان ﴿وَٰحِدَةٗ﴾: صفة لـ﴿أمة﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ الفاء: عاطفة ﴿اختلفوا﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾ ﴿وَلَوۡلَا﴾ الواو: استئنافية ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف امتناع لوجود ﴿كَلِمَةٞ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿سَبَقَتۡ﴾ صفة لـ﴿كَلِمَةٞ﴾ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿سَبَقَتۡ﴾ وخبر المبتدأ محذوف، وجوباً، تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك، موجودة، والجملة الاسمية شرط لـ ﴿لَوۡلَآ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿لَقُضِيَ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾ ﴿قضي﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه، في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قضي﴾ ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قضي﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿لَوۡلَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة ﴿فِيهِ﴾ في حرف جر وسبب. والهاء في محل

الجر بفي، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير فيه.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَآ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿ءَايَةٌ﴾: نائب فاعل. ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ﴿ءَايَةٌ﴾ والجملة الفعلية مقول ﴿يقولون﴾. ﴿فَقُلْ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة مفرعة على ﴿يقولون﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلْغَيْبُ﴾: مبتدأ ﴿لِلَّهِ﴾ خبر، والجملة في محل النصب مقول قل ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ الفاء: عاطفة تفريعية ﴿انتظروا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿مَعَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بما بعده ﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قل.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾: الواو: استئنافية، (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾: فعل وفاعل ومفعولان. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَذَقْنَا﴾ وجملة ﴿أَذَقْنَا﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿مَسَّتْهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ضَرَّآءَ﴾ والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿ضَرَّآءَ﴾ ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿إِذَآ﴾ وجوباً، لكون الجواب جملة اسمية، حرف لا محل لها من الإعراب ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَّكْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة ﴿فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾: جار ومجرور متعلق

بـ ﴿مَكۡرًاۚ﴾ ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿مَكۡرًاۚ﴾؛ تمييز محول، عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية في محل النصب مقول قل ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ ناصب واسمه ﴿يَكۡتُبُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ وجملة ﴿تَمۡكُرُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تمكرونه، أو صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، وجملة ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ في محل الرفع، خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب، مقول القول على كونها تعليلاً لما قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿يُسَيِّرُكُمۡ﴾، فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿فِي ٱلۡبَرِّ﴾: متعلق بـ ﴿يسير﴾ ﴿وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿وَجَرَيۡنَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُنتُمۡ﴾ ﴿بِهِم﴾: متعلق به. وكذا يتعلق به قوله: ﴿بِرِيحٖ﴾، ﴿طَيِّبَةٖ﴾ صفة ﴿ريح﴾ فإن قلت: كيف يتعدى فعل واحد إلى معمولين، بحرفي جر متحدين لفظاً ومعنى؟

قلت: إن الباء الأولى للتعدية، كهي في مررت بزيد، والثانية للسببية، فاختلف المعنيان، فلذلك تعلقاً بعامل واحد، ويجوز أن تكون الثانية للحال، فتتعلق بمحذوف، تقديره: وجرين بهم ملتبسة بريح طيبة، فتكون الحال من ضمير الفلك ا هـ «سمين» ﴿وَفَرِحُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كُنتُمۡ﴾ ﴿بِهَا﴾ متعلق به ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿عَاصِفٞ﴾: صفة ﴿ريح﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر، بحتى

الغائية، التي بمعنى: (إلى) تقديره: هو الذي يسيركم في البر والبحر إلى مجيء ريح عاصف، ومجيء الموج إياهم، وقت كونكم في الفلك وجريها بكم، وفرحكم بها، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يسير﴾.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿جَآءَتْهَا﴾، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: جار ومجرور مضاف إليه متعلق به ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَتْهَا﴾ ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿أُحِيطَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بِهِمْ﴾؛ نائب فاعل له، وجملة ﴿أُحِيطَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي، ظن، تقديره: وظنوا إحاطة الهلاك بهم ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، بدل من ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ بدل اشتمال. ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من واو ﴿دَعَوُاْ﴾ ﴿له﴾ متعلق بـ﴿مخلصين﴾ ﴿ٱلدِّينَ﴾ مفعول مخلصين؛ لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله ضمير مستكن فيه؛ أي: هم ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾: اللام: موطئة للقسم ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿أَنجَيْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم، بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجوابها محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره. لئن أنجيتنا، نكن من الشاكرين. ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ متعلق بأنجيتنا ﴿لَنَكُونَنَّ﴾: اللام موطئة للقسم، مؤكدة للأولى ﴿نكونن﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على المتكلمين ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: خبرها، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جواب للقسم الأول، لا محل لها من الإعراب وجملة القسم في محل النصب، مقول لقول محذوف، حال من واو ﴿دَعَوُاْ﴾ تقديره: دعوا الله حالة كونهم قائلين في دعائهم: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره؛ إذا عرفت وعدهم المذكور في دعائهم، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك لما أنجاهم إلخ. ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط، غير جازم ﴿أَنجَىٰهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله، ضمير يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿لَمَّا﴾ وجوباً، حرف لا محل لها من الإعراب ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يَبْغُونَ﴾ خبره ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿يَبْغُونَ﴾ والجملة الاسمية جواب ﴿لَمَّا﴾ وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: يا: حرف نداء. أي: منادى نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿بَغْيُكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾؛ خبره والجملة الاسمية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب ﴿مَّتَٰعَ﴾: منصوب على المصدرية، بفعل محذوف، تقديره: تمتعون متاع الحياة الدنيا، والجملة المحذوفة مستأنفة. أو مرفوع على كونه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك البغي متاع الحياة الدنيا، والجملة مستأنفة. أو مجرور على كونه صفة ﴿لأنفسكم﴾ ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: ذوات متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل، تقديره: ممتعات الحياة الدنيا، ذكره أبو البقاء ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿إِلَيْنَا﴾: خبر مقدم ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على الفعلية المحذوفة، أو على الاسمية المحذوفة ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ الفاء عاطفة ﴿ننبئكم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة، قوله: ثم إلينا مرجعكم ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ننبئكم﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف، تقديره: بما كنتم تعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: القرون: الأمم واحدها، قرن، وهم القوم المقترنون في زمن واحد، قيل: مئة سنة أو ثمانون سنة أو ما دونها، فيه أقوال أخر. وجاء في الحديث الشريف: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمع بينة: الحجة الواضحة والمعجزة الباهرة، كعصا موسى، وناقة صالح ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جمع خليفة، وهو من يخلف غيره في شيء. ﴿لِنَنظُرَ﴾؛ أي: لننظر متعلق علمنا، ونشاهد ونرى ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾: يقال؛ دريته ودريت به؛ أي: علمته ﴿عُمُرًا﴾؛ أي: مدة طويلة، أربعين سنة ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾: أصل الذوق: إدراك الطعم بالفم، ويستعمل في إدارك الأشياء المعنوية، كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة. ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾، والمكر: التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يتوقعه، ومكره تعالى: تدبيره الذي يخفى على الناس، بإقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم، وكله عدل وحق، فإن ساء الناس سموه شراً، وإن كان جزاءً عدلاً. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ والرسل هنا: الكرام الكاتبون من الملائكة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ سير من باب فعل، المضعف، وهو من الثلاثي المزيد، بحرف؛ لأنه من سار يسير سيراً، من باب باع، والتسيير جعل الشيء، أو الشخص يسير بتسخيره تعالى، أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو سفينة. ﴿في الفلك﴾: والفلك يستعمل جمعاً ومفرداً، فحركته إذا كان جمعاً، كحركة بدن، جمع بدنة وإذا كان مفرداً كحركة قفل، ويفرق بينهما بنحو الصفة، وهنا مستعمل في الجمع بدليل، وجرين وفي آية ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ مستعمل مفرداً ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ أي: لينة الهبوب، وفي «المصباح» الريح الهواء بين السماء والأرض، وأصلها الواو، لكن قلبت ياءً؛ لانكسار ما قبلها، والجمع، أرواح، ورياح، وبعضهم يقول: أرياح بالياء، على لفظ الواحد، وغَلّطه أبو حاتم، والريح مؤنثة على الأكثر، فيقال: هي الريح، وقد تذكر على معنى الهواء، فيقال: هو الريح،

وهب الريح، نقله أبو زيد. وقال ابن الأنباري: الريح: مؤنثة لا علامة فيها، وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار، فإنه مذكر، وراح اليوم يروح روحاً من باب قال، وفي لغة من باب خاف إذا اشتدت ريحه، فهو رائح. والطيب من كل شيء ما يوافق الغرض والمنفعة، يقال: رزق طيب، ونفس طيبة، وشجرة طيبة ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ والعاصف: الذي يعصف الأشياء ويكسرها، يقال: ريح عاصف وعاصفة، وقال أبو حيان: العاصف الشديدة، يقال: عصفت الريح، إذا اشتد هبوبها. قال الشاعر:

حَتَّىٰ إِذَا عَصَفَتْ رِيحٌ مُزَعْزِعَةٌ ... فِيهَا قِطَارٌ وَرَعْدٌ صَوْتُهُ زَجَلُ

وقال أبو تمام:

إِنَّ ٱلرِّيَاحَ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ ... عِيدَانَ نَجْدٍ وَلاَ يَعْبَأْنَ بِٱلرَّتَمِ

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ والموج: ما ارتفع من الماء عند هبوب الهواء، سمي موجاً لاضطرابه ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ يقال: أحيط، إذا هلك، كما يحيط العدو بعدوه، فيسد عليه سبيل النجاة ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والبغي: ما زاد على القصد والاعتدال، من بغى الجرح إذا زاد، حتى ترامى إلى الفساد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها[1]: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ حيث شبه حال العباد مع ربهم، بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم، لينظر ماذا تعمل، واستعير الاسم الدال على المشبه به للمشبه، على سبيل التمثيل والتقريب، ولله المثل الأعلى.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

---

(١) الصاوي.

ومنها: الالتفات عن الخطاب في قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى الغيبة في قوله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن الضمير واقع على أهل مكة، وعن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ والأصل وجرين بكم لما فيه من زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار، لعدم شكرهم النعمة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ وفي قوله: ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع عن الماضي في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وفي قوله: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ حكايةً للحال الماضية، وإشعاراً باستمرار حالهم على ما كانوا عليه أولاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾؛ لأن الذوق حقيقة في إدراك الطعم بالفم، شبه الإذاقة بمعنى إعطاء الرحمة بالذوق، بمعنى إدراك الطعم بجامع إيصال النفع في كل، فاشتق منه أذقنا بمعنى، أعطينا الرحمة على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية وكذلك في قوله: ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ فيه الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأن المس حقيقة في لمس الأجسام، فاستعاره لإصابة الضراء، ونزولها بهم.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول، إن رسله؛ لأنه قال قبله ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ شبه إتيان الموج من كل مكان الذي أشرف بهم إلى الهلاك، وسدّ عليهم مسالك الخلاص والنجاة، بإحاطة العدو، وأخذه بأطراف خصمه كما في «الشهاب».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾؛ لأنه أطلق

البغي الذي هو سبب الوبال، وأراد به الوبال، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب، أو فيه[1] استعارة بتشبيه بغيه على غيره بإيقاعه على نفسه، بجامع ترتب الضرر فيهما كقوله: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أو المراد بالأنفس أمثالهم استعارة أو أبناء جنسهم، كنفس واحدة، وهو استعارة أيضاً، ا هـ «شهاب».

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ للدلالة على الثبات والقصر، ا هـ «أبو السعود».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ
وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)
وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ
وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟
مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ
فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)
كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا
يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآية، مناسبة(١) هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.. ضرب مثلاً عجيباً غريباً للحياة الدنيا، تذكر من

(١) البحر المحيط.

يبغي فيها على سرعة زوالها وانقضائها، وأنها بحال ما تعز وتسر تضمحل، ويؤول أمرها إلى الفناء.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذ الآية لما قبلها: أنه لما[1] كان سبب بغي الناس في هذه الحياة الدنيا هو إفراطهم في حبها والتمتع بزينتها.. ضرب بذلك مثلاً يصرف العاقل عن الغرور بها ويرشده إلى الاعتدال في طلبها، والكف عن التوسل في الحصول على ذاتها بالبغي، والظلم والفساد في الأرض، فشبه حال الدنيا، وقد أقبلت بنعيمها وزينتها، وافتتن الناس بها بعد أن تمكنوا من الاستمتاع بها، ثم أسرع ذلك النعيم في التقضي وانصرم غب إقباله واغترار الناس به بحال ما على الأرض من أنواع النبات يسوق الله إليها المطر، فيلتف بعضها على بعض، وتصبح بهجة للناظرين، ثم لا تلبث أن تنزل بها فجأة جائحة، تستأصلها وتجعلها حطاماً، كأن لم تغن بالأمس.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين غرور المشركين الجاهلين بمتاع الدنيا، وضرب لهم الأمثال على ذلك.. أردف ذلك بالترغيب في الآخرة، ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[2] مثل الحياة الدنيا وما يؤول إليه من الفناء والاضمحلال، وما تضمنه من الآفات والعاهات.. ذكر تعالى أنه داع إلى دار السلامة والصحة والأمن، وهي الجنة إذ أهلها سالمون من كل مكروه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أعد للذين أحسنوا، وحالهم يوم القيامة، ومآلهم إلى الجنة.. ذكر ما أعد لأضدادهم وحالهم ومآلهم.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيّن جزاء الذين كسبوا السيئات، وما يكون لهم من الذلة والهوان.. قفى على ذلك بذكر اليوم الذي يحصل فيه هذا الجزاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[2] فضائح عبدة الأوثان.. أتبعها بذكر الدلائل على فساد مذهبهم، بما يوبخهم، ويحجهم بما لا يمكن إلا الاعتراف به من حال رزقهم وحواسهم، وإظهار القدرة الباهرة في الموت والحياة، فبدأ بما فيه قوام حياتهم، وهو الرزق الذي لا بد منه فمن السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات.

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها: لما بين الله سبحانه وتعالى جنايات المشركين على أنفسهم، وبين فساد معتقداتهم، وما سيلقونه من الجزاء على ما فعلوا.. أردف ذلك بإقامة الحجج على المشركين في إثبات التوحيد والبعث، ثم أردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما استفهمهم[3] عن أشياء من صفات الله تعالى، واعترفوا بها، ثم أنكر عليهم صرفهم عن الحق، وعبادة الله تعالى.. استفهم عن شيء هو سبب العبادة، وهو إبداء الخلق، وهم يسلمون ذلك كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ثم إعادة الخلق وهم منكرون ذلك، لكنه عطفه على ما يسلمونه، ليعلم أنهما سواء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ...﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1] عجز أصنامهم عن الإبداء، والإعادة اللذين هما من أقوى أسباب القدرة، وأعظم دلائل الألوهية.. بين عجزهم عن هذا النوع من صفات الإله، وهو الهداية إلى الحق، وإلى مناهج الصواب.

وعبارة المراغي هنا: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام الحجة على المشركين بما تقدم.. ذكر هنا ضرباً آخر من الحجة، أقامه عليهم سبحانه وتعالى دليلاً على توحيده وبطلان الإشراك به، جاء فيه بطريق السؤال للتوبيخ، وإلزام الخصم، فإن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام وفوض الجواب إلى المسؤول.. يكون أوقع في النفس، وأبلغ في الدلالة على الغرض، انتهت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما صفة الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وفنائها وزوالها، و ﴿إِنَّمَا﴾: ليست هنا للحصر، لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا ﴿كَمَآءٍ﴾؛ أي: كمثل نبات ماء ومطر ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا ذلك الماء والمطر ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والسحاب وإنما شبه الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض؛ لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه، بزيادة أو نقص، بخلاف ماء الأرض، فكان تشبيه الحياة به أنسب ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ واشتبك وتراكم لكثرته ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ حالة كون ذلك النبات ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ من الثمار والحبوب والبقول والأبازير ﴿و﴾ مما يأكل ﴿الأنعام﴾ والبهائم، من الحشيش والكلأ والعشب؛ أي؛ ﴿إِنَّمَا﴾: صفة الحياة الدنيا في صورتها ومآلها، كصفة نبات ماء نزل من السماء، فأنبتت به الأرض أزواجاً شتى، من النبات تشابكت وتراكمت والتفت واختلط بعضها، ببعض لكثرتها مع

---

(١) البحر المحيط.

اختلاف ألوانها وأنواعها من أصناف شتى تكفي الناس في أقواتهم ومراعي أنعامهم. وحتى في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ غاية لمحذوفٍ تقديره: وما زال ذلك النبات ينمو ويزهو ويكبر، حتى إذا أخذت الأرض، واستوفت واستكملت إنباتها وأظهرت زخرفها وجمالها وبهجتها من النبات ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾؛ أي: تزينت بذلك الزخرف والنبات، كعروس أخذت حليها من الذهب والجواهر والحلل المختلفة الألوان، ذات البهاء والبهجة، وازينت بها في ليلة زفافها ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾؛ أي: أهل تلك الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾؛ أي: قادرون على التمتع بثمراتها، متمكنون من جذاذها وحصدها، وتحصيل ثمارها وزروعها وبقولها. وجواب ﴿إِذَآ﴾ قوله: ﴿أَتَىٰهَآ﴾؛ أي: أتى ثمار تلك الأرض وزروعها ﴿أَمْرُنَا﴾؛ أي: قضاؤنا بهلاكها، وجاءها عذابنا ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾؛ أي: فجعلنا ثمار تلك الأرض وزروعها ﴿حَصِيدًا﴾؛ أي: كالمحصود بالمناجل المقطوع من أصله المعدوم، وصارت تلك الثمار والزروع ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾؛ أي: كأنها لم توجد، ولم تنبت على تلك الأرض ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: في الزمن الماضي أصلاً. والمراد بالأمس الزمن الماضي، لا خصوص اليوم الذي قبل يومك؛ أي: نزل بها في تلك الحال أمرنا المقدر لهلاكها، فجاءتها جائحة، وضرب زرعها بعاهة، كجراد أو صقيع، الذي يسقط بالليل من السماء شبيه بالثلج شديد أو ريح سموم ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم غافلون، فجعلناها كالأرض المحصودة التي قطعت ثمارها، واستؤصل زرعها، ولم يبق منه شيء، أو كأنها لم تنبت، ولم تكن زروعها نضرة بالأمس. وجاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

والمعنى: إن هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء، مثل النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به.. وقع اليأس منه بالهلاك والمتمسك بالدنيا، إذا نال منها بغيته.. أتاه الموت بغتة، فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها. وقيل: يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد، والبعث بعد الموت، وذلك؛ لأن الزرع إذا انتهى وتكامل في الحسن إلى الغاية القصوى.. أتته آفة، فتلف

بالكلية، ثم إن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادته كما كان أول مرّةٍ فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على إعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادراً على إعادة الأموات أحياء في الآخرة، ليجازيهم على أعمالهم، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما فصلنا وبينا مثل الحياة الدنيا، وعرفناكم حكمها ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: نبين حججنا ودلائل قدرتنا ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتأملون فيها، ويعتبرون بها، ليكون ذلك سبباً موجباً لزوال الشك، والشبهة عن القلوب.

والخلاصة: أي كهذا المثل الواضح الذي يمثل حال الدنيا وغرور الناس بها، مع سرعة زوالها وتعلق الآمال بها، نفصل الآيات الدالة على حقيقة التوحيد وأصول الشرائع والآداب والمواعظ وتهذيب الأخلاق، وكل ما فيه صلاح للناس، في معاشهم ومعادهم، لمن يستعمل عقله ويزن أعماله بموازين الحكمة، فليس هذا المثل قاصراً على شخص دون شخص، بل هو عبرة لمن كان له بصيرة وتدبر، فينبغي للإنسان أن ينزل القرآن في خطاباته على نفسه، ويتأمل فيها ويتدبر، ليأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وأصله: وتزينت فأدغمت التاء في الزاي، فاجتلبت همزة الوصل لضرورة تسكين الزاي عند الإدغام. وقرأ أبي، وعبد الله، وزيد بن علي، والأعمش: ﴿وتزينت﴾ على وزن تفعلت. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبو عبد الرحمن، وابن يعمر والحسن والشعبي وأبو العالية وقتادة ونصر بن عاصم وابن هرمز وعيسى الثقفي: ﴿وأزينت﴾ على وزن أفعلت، كأحصد الزرع؛ أي: حضرت زينتها، وحانت وصحت الياء فيه على جهة الندور، كأعليت المرأة، والقياس: وأزانت، كقولك: وأبانت. وقرأ أبو عثمان النهدي: بهمزه مفتوحة. بوزن، أفعألت قاله: عنه صاحب «اللوامح»، قال: كأنه كانت في الوزن بوزن احمارت، لكنهم كرهوا الجمع بين ساكنين، فحركت الألف فانقلبت همزة مفتوحة، ونسب ابن عطية هذه القراءة لفرقة، فقال: وقرأت فرقة، وأزيأنت

---

(١) البحر المحيط.

وهي لغة منها، قال الشاعر:

إِذَا مَـا ٱلْـهَـوَادِيْ بِـٱلْـعَـبِـيْـطِ ٱحْـمَـأَرَّتِ

وقرأ أشياخ عوف بن أبي جميلة ﴿وازيانت﴾ بنون مشددة، وألف ساكنة قبلها. قال ابن عطية وهي قراءة أبي عثمان النهدي. وقرأت فرق ﴿وازاينت﴾ والأصل وتزاينت فأدغم. وقرأ الحسن وقتادة ﴿كأن لم يغن﴾ بالياء على التذكير، فقيل: عائد على المضاف المحذوف، الذي هو الزرع، حذف وقامت هاء التأنيث مقامه في قوله؛ ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ وفي قوله: ﴿أتاها فجعلناها﴾. وقيل: عائد على الزخرف، والأولى عوده على الحصيد؛ أي: كأن لم يغن الحصيد. وكان مروان بن الحكم يقرأ على المنبر ﴿كأن لم تتغن﴾ بتائين مثل تتفعل. وفي مصحف أبي ﴿كأن لم تغن بالأمس وما كنا لنهلكها إلا بذنوب أهلها﴾ وفي «التحرير» نفصل الآيات، رواها عنه ابن عباس. وقيل: في مصحفه ﴿وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها﴾ وفي «التحرير». وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن يقرأ في قراءة أبي ﴿كأن لم تغن بالأمس وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها﴾ ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة؛ لأنها مخالفة لخط المصحف، الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون، انتهى. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: مثل هذا التفصيل الذي فصلناه في الماضي نفصل في المستقبل. وقرأ أبو الدرداء ﴿لقوم يتذكرون﴾ بالذال بدل الفاء.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى صفة الدنيا، ورغب في الزهد فيها والتجنب لزخارفها.. رغب في الآخرة ونعيمها حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَدْعُوٓا۟﴾ عباده ﴿إِلَىٰ﴾ الجنة ﴿دَارِ السَّلامِ﴾ بدعائه إلى التوحيد والإيمان؛ أي: دار السلامة يسلم من دخلها من جميع الآفات الدنيوية كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد، أو دار يسلم الله سبحانه وتعالى فيها على أهلها، أو دار تسلم الملائكة فيها على أهلها أو دار الله السلام؛ أي: دار الله الذي سلم من كل النقائص والعيوب، والإضافة فيه للتشريف أو إلى الجنة التي تسمى دار السلام، لأن دار السلام، اسم لإحدى الجنان السبع **أحدها**: دار

السلام **والثانية**: دار الجلال **والثالثة**: جنة عدن **والرابعة**: جنة المأوى **والخامسة**: جنة الخلد **والسادسة**: جنة الفردوس **والسابعة**: جنة النعيم. وقيل: المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة. وهذه الجملة كأنها معطوفة على مقدر، تقديره: ذلك[1] الإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها: هو ما يدعو إليه الشيطان فيوقع متبعيه في جهنم، دار النكال والوبال، والله يدعوا عباده إلى دار السلام؛ إذ يأمرهم إلى ما يوصل إليها ﴿وَيَهْدِى﴾ الله سبحانه وتعالى ويوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من خلقه ويختاره للهداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى الطريق الموصل إليه، القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو طريق دين الإسلام، عقائده وفضائله وأحكامه.

عم[2] بالدعوة أولاً، إظهاراً للحجة، وخص بالهداية ثانياً، استغناءً عن الخلق، وإظهاراً للقدرة، فحصلت المغايرة بين الدعوتين، فالدعوة[3] عامة على لسان رسول الله، ﷺ، بالدلالة والهداية، خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية، والمعنى: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون.

وعن جابر رضي الله عنه قال: جاءت الملائكة إلى النبي، ﷺ، وهو نائم، فقال؛ بعضهم إنه نائم وقال بعضهم: العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله، كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي.. دخل لدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها بفقهها، فإن العين نائمة، والقلب يقظان، فقال بعضهم: الدار الجنة، والداعي محمد، ﷺ، فمن أطاع محمداً.. فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً.. فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس. وفي رواية، خرج علينا رسول الله، ﷺ، فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً» رواه البخاري.

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) النسفي.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أعمالهم في الدنيا بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات المثوبة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: البالغة أعلى درجات الحسن، وهي الجنة ﴿و﴾ لهم أيضاً ﴿زيادة﴾ عظيمة ما وراءها فوق، وهي النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه وتعالى. وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة، هي النظر إلى وجه الله الكريم، وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحي، الذي لا يصل إليه إلا المحسنون العارفون في الآخرة.

وهذا قول جماعة من الصحابة: منهم: أبو بكر الصديق، وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي، ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول. أما المنقول[1]: فما روي عن صهيب، أن رسول الله، ﷺ، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» زاد في رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أخرجه مسلم.

وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة، عن النبي، ﷺ، في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم» وعن أبي بن كعب، أنه سأل رسول الله، ﷺ، عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم»، إلى غير ذلك مما لا يحصى. وأما المعقول: فنقول: إن الحسنى، لفظة مفردة، دخل عليها حرف التعريف، فانصرفت إلى المعهود السابق، وهو الجنة في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ﴾ فثبت بهذا، أن المراد من لفظة: الحسنى، هو الجنة وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من النعيم، وإلا لزم التكرار، وإذ كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على

---

(١) الخازن.

رؤية الله تبارك وتعالى.

القول الثاني: في معنى هذه الزيادة، ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب.

والقول الثالث: إن الحسنى واحدة الحسنات، والزيادة التضعيف إلى تمام العشرة، وإلى سبع مئة. قال ابن عباس: هو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يقول: يجزيهم بعملهم، ويزيدهم من فضله. قال قتادة: كان الحسن. يقول: الزيادة: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف.

القول الرابع: إن الحسنى، حسنة مثل حسنة، والزيادة مغفرة من الله ورضوان، قاله مجاهد.

القول الخامس: قول ابن زيد: إن الحسنى هي الجنة، والزيادة ما أعطاهم في الدنيا، لا يحاسبهم به يوم القيامة، ا هـ من «الخازن».

﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾: ولا يغشى ولا يغطي ﴿وُجُوهَهُمْ﴾؛ أي: وجوه أهل الجنة ﴿قَتَرٌ﴾؛ أي: سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: كآبة وحزن. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى؛ أي: ولا يغشى وجوههم شيء مما يغشى الكفرة، من الغبرة التي فيها سواد، ولا أثر هوان ولا انكسار بال. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هذه صفتهم هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وسكانها وملازموها و ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبداً، لا نهاية له، فهي لا تبيد فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين منها، فتنغص عليهم لذاتهم. والمعنى: أن هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم، وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبداً.

وقرأ[1] الحسن وأبو رجاء وعيسى بن عمر والأعمش: ﴿قتر﴾ بسكون التاء، وهي لغة كالقدر والقدر. ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟﴾ وعملوا في الدنيا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛

(١) البحر المحيط.

أي: الشرك والمعاصي، فعصوا الله فيها، وكفروا به وبرسوله، ﷺ، ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾؛ أي[1]: جزاء سيئاتهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها، لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة؛ أي: جزاء سيئة واحدة من عملهم السيء الذي عملوه في الدنيا، بمثلها من عقاب الله في الآخرة، جزاءً وفاقاً، ولا يزادون على ما يستحقونه من العذاب شيئاً ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾؛ أي: تغشى وتعلو أنفسهم ذلة عظيمة؛ أي: يصيبهم ذل وخزي وهوان، بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذاب الله وسخطه ﴿مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾؛ أي: مانع يمنعه، ويحفظه إذا هو عاقبهم، أو يحول بينه وبينهم كالذين اتخذوهم في الدنيا شركاء وزعموهم شفعاء، فذلك هو اليوم الذي تتقطع فيه الأسباب التي كانت تفيد في الدنيا ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

فائدة: وجاءت[2] صلة المؤمنين أحسنوا وصلة الكافرين كسبوا السيئات، تنبيهاً على أن المؤمن، لما خلق على الفطرة، وأصلها بالإحسان، وعلى أن الكافر لما خلق على الفطرة، انتقل عنها وكسب السيئات، فعل ذلك محسناً، وهذا كاسباً للسيئات، ليدل على أن المؤمن سلك ما ينبغي وهذا سلك ما لا ينبغي. ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ وغطيت وألبست ﴿وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا﴾ وجزءاً جمع قطعة ﴿مِّنَ﴾ أديم ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ حال كونه حالكاً ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ لا بصيص ـ لمعة ـ فيه من نور القمر الطالع، ولا النجم الثاقب، فتشقها قطعةً بعد قطعة، فصارت ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض؛ أي: كأن وجوه أهل النار، لفرط سوادها، ألبست طائفة من سواد الليل المظلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات المذكورة الذميمة ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: ساكنوها وملازموها و ﴿هُمۡ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون مكثاً مؤبداً، لا انقضاء لها، لا يبرحونها؛ لأنه ليس لهم مأوى سواها. وقد جاء في معنى هذه الآيات، في وصف الفريقين، قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨

---

(١) أبو السعود. (٢) البحر المحيط.

ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وقرىء ﴿ويرهقهم﴾ بالياء؛ لأن تأنيث الذلة مجاز. وقرأ الجمهور؛ ﴿قِطَعًا﴾ بكسر القاف وفتح الطاء، جمع قطعة، كقربة، وقرب. وقرأ ابن كثير، والكسائي: ﴿قطعا﴾ بسكون الطاء، وهو مفرد اسم للشيء المقطوع. وقرأ ابن أبي عبلة كذلك، إلا أنه فتح الطاء. وقرأ أبي ﴿كأنما تغشى وجوههم قط من الليل مظلم﴾. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: واذكر، يا محمد، لكلا الفريقين الذين أحسنوا، والذين كسبوا السيئات، قصة يوم نحشر الخلائق ونجمعهم في صعيد واحد، وهو يوم القيامة. والحشر: الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد. حالة كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: متجمعين لا يتخلف منهم أحد، أو نحشر العابدين والمعبودين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ أي: للمشركين منهم بعد طول مكث، لا يكلمون بشيء قبل ذلك ﴿مَكَانَكُمْ﴾؛ أي: الزموا مكانكم وموقفكم واثبتوا فيه ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وشركاؤكم﴾؛ أي: معبوداتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله تعالى، حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم. وقرأ الحسن وشيبة والقراء السبعة ﴿نحشرهم﴾ بالنون. وقرأت فرقة بالياء. وقرىء ﴿وشركاءكم﴾ بالنصب على أن الواو بمعنى: مع، والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يحشر العابد والمعبود، لسؤالهم، ثم يقول للذين أشركوا في حالة الحشر ووقت الجمع، تقريعاً لهم على رؤوس الأشهاد، وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركهم في العبادة، وحضور معبوداتهم: مكانكم؛ أي: الزموا مكانكم واثبتوا فيه، وقفوا في موضعكم أنتم ومعبوداتكم، حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم ويفصل بينكم، فيما كان من سبب عبادتكم إياهم، والحجة التي يحتج بها كل فريق منكم. وفي هذا وعيد شديد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، وتقريع بكون هذا معظم سيئاتكم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ففرقنا بين المشركين وشركائهم، وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وباعدنا بينهم بعد الجمع في الموقف. والمعنى: ففرقنا بين العابدين والمعبودين، وميزنا بعضهم من بعض، كما يميز بين الخصوم

عند الحساب، ويراد بهذا التفريق تقطيع ما كان بينهم في الدنيا من صلات وروابط، وبيان خيبة ما كان للمشركين في الشركاء من آمال وتبرُّؤ المعبودين من العابدين وعبادتهم، كما قال: ﴿وقال شركاؤهم﴾ الذين عبدوهم، وجعلوهم شركاء لله سبحانه وتعالى، أي: قال المعبودون للعابدين ﴿مَّا كُنتُمْ﴾ أيها المدعون لعبادتنا ﴿إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ما كنتم تخصوننا بالعبادة، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم التي أغوتكم، فإنها الآمرة لكم بالإشراك، وتتخذون تماثيلنا هياكل لمنافعكم وأغراضكم، والمعبود الحق: هو الذي يعبد وحده؛ لأنه صاحب السلطان الأعلى على الخلق، وبيده الضر والنفع. وقدم المفعول هنا للفاصلة لا للحصر، إذ ليس الغرض أن المنفي عبادة الأصنام المقصورة عليها فقط، بل مطلق عبادتها، سواء كانت مقصورة عليها أم لا، ا هـ «فتوحات».

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: فكفى الله سبحانه وتعالى شهيداً وحكماً بيننا، وبينكم، فهو العليم بحالنا وحالكم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾؛ أي: إنا كنا عن عبادتكم إيانا ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾؛ أي: لجاهلين لا نعلمها ولا نرضى بها؛ لأن العبادة لا تليق بنا، بل لله سبحانه وتعالى وحده.

والمعنى: وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه: ما كنتم إيانا تعبدون، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم، الذين أغووكم وإنما أضاف الشركاء إليهم، مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية. وقيل: لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب، وهذا الجحد من الشركاء، وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة.

﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على[1] معنى استعارة إطلاق اسم المكان على الزمان؛ أي: في ذلك المقام، والموقف الذي

---

(١) الخازن.

يقتضى الحيرة والدهش ﴿تبلو﴾ بالتاء[1]، فالباء على القراءة المشهورة؛ أي: تذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ سعيدة أو شقية ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾؛ أي: جزاء ما قدمت من عمل، فتعلم نفعه، أو ضره.

وقرأ حمزة والكسائي وزيد بن علي: ﴿تتلو﴾ بتاءين؛ أي: تقرأ كل نفس في صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر، أو تتبع ما أسلفت؛ لأن عملها هو الذي يهديها إلى طريق الجنة، أو إلى طريق النار. وقرأ عاصم: ﴿نبلو كل نفس﴾ بالنون فالباء ونصب كل؛ أي: نختبر كل نفس بسبب اختبار ما أسلفت من العمل السيء؛ أي: نفعل بها فعل المختبر، أو المعنى: نصيب بالبلاء الذي هو العذاب كل نفس عاصية، بسبب ما أسلفت من الشر. وقوله؛ ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ معطوف على فزيلنا بينهم، والضمير فيه عائد إلى الذين أشركوا؛ أي: أعرض الذين أشركوا عن المولى الباطل، ورجعوا إلى المولى الحق؛ أي: الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وأقروا بألوهيته ووحدانيته بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غيره، وردوا إلى حكمه؛ أي: ردوا إلى جزائه وما أعدَّ لهم من عقابه، ومولاهم ربهم والحق صفة له؛ أي: الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة.

وقرأ يحيى بن وثاب[2]: ﴿وردوا﴾ بكسر الراء، لما سكن للإدغام.. نقل حركة الدال إلى الراء بعد سلب حركتها. وقرىء ﴿الحق﴾ بالنصب على المدح. نحو: الحمد لله أهل الحمد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: ضاع وغاب عنهم في الموقف، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ما كانوا يدعون من أن معبوداتهم آلهة، وأنها تشفع لهم.

وحاصل معنى الآية[3]: أي في موقف الحساب تختبر كل نفس من عابدة

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ومعبودة ومؤمنة وجاحدة، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل وما كان لكسبها في صفاتها من أثر، خير أو شر، بما ترى من الجزاء عليه، فهو ثمرة طبيعة له، لا شأن فيه لولي ولا شفيع ولا معبود ولا شريك. ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أي: وأرجعوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق، دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الأولياء والشفعاء والأنداد والشركاء. وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾؛ أي: وضاع عنهم وغاب؛ أي: في الموقف ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ عليه من الشفعاء والأولياء، فلم يجدوا أحداً ينصرهم لا ينقذهم من هول ذلك الموقف، كما قال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾. وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة منها: ما جاء مجملاً، ومنها: ما جاء مفصلاً:

فمنها: ما يسأل الله فيه العابدين.

ومنها: ما يسأل فيه المعبودين.

ومنها: ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين.

والحاصل: أن هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلهاً، ولكن حين لا ينفعهم ذلك.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد، لهؤلاء المعاندين من أهل مكة ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بما ينزله عليكم من الأمطار ﴿و﴾ يرزقكم من ﴿الأرض﴾ بما ينبته من نباتات شتَّى، من نجم وشجر تأكلون منه؛ أو تأكل أنعامكم، والاستفهام فيه للتقرير، وكذا فيما بعده؛ أي: من الذي يرزقكم منهما جميعاً، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحدة منهما، والمقصود من هذا القول، الاستدلال على حقية التوحيد، وبطلان ما هم عليه من الشرك، اهـ «أبو السعود». وهذه أسئلة ثمانية، جواب الخمسة الأولى منها: منهم، وجواب

الاثنين بعدها منه ﷺ بتعليم الله إياه، لعدم قدرتهم عليه، وجواب الأخيرة، لم يذكر لشهرته والعلم به.

وأم في قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ هي[1] المنقطعة؛ لأنها لم يتقدمها همزة استفهام ولا تسوية، ولكن إنما تقدر هنا ببل وحدها دون الهمزة، وقد تقرر عند الجمهور أن المنقطعة تقدر بهما، وإنما لم تقدر هنا ببل، والهمزة؛ لأنها وقع بعدها هنا اسم استفهام صريح، وهو: من والإضراب هنا على القاعدة المقررة في القرآن أنه إضراب انتقال، لا إضراب إبطال ا هـ «سمين»؛ أي: وقل لهم[2] يا محمد، بل من يملك ما تتمتعون به من حاستي السمع والبصر، وأنتم بدونهما لا تدرون شيئاً من أمور العالم، وتكون الأنعام والهوام، بل والشجر خيراً منكم؛ باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها؛ أي: أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما، من أدنى شيء، وخص هاتين الحاستين بالذكر، لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية، وكمال الحياة الإنسانية، إذ بهما تحصيل العلوم الأولية.

وخلاصة ذلك: بل من خلق هذه الحواس، ووهبها للناس، وحفظها مما يعتريها من الآفات، ولا شك أن الجواب عن ذلك السؤال لا حاجة فيه إلى الفكر، فإن هم تأملوا في ذلك.. ازدادوا علماً وإعجاباً بإنعام الله بهما، وإيماناً بأنه لا يقدر غيره على إيجادهما. وعن علي رضي الله عنه كان يقول: سبحان من بصَّر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: ومن يقدر أن يخرج الإنسان من النطفة والطائر من البيضة، والمؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ أي: وأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر والكافر من المؤمن؛ أي: وقل لهم: بل من ذا الذي بيده أمر الموت والحياة، فيخرج الحي من الميت، والميت من الحي، فيما تعرفون من المخلوقات وما لا تعرفون، فالله هو الذي يخرج النبات

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

من الأرض الميتة، بعد إحيائه إياها، بماء المطر النازل عليها من السماء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: ومن يتولى تدبير أمر الخليقة جميعاً، بما أودعه في كل منها من السنن، وقدره من النظام، وهذا السؤال الخامس أعم من كل من الأربعة قبله، فهو من ذكر العام بعد الخاص. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ في جواب هذه الأسئلة الخمسة بلا تباطؤ ولا تجاحد هو ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: فسيجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة، بأن فاعل ذلك كله هو الله سبحانه وتعالى رب العالم كله ومليكه، إذ لا جواب غيره، وهم لا يجحدون ذلك ولا ينكرونه. والهمزة في قوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره؛ فقل: لهم يا محمد، عند ذلك تبكيتاً لهم ووعظاً وتذكيراً لهم، أتعلمون ذلك فلا تتقون سخطه وعقابه لكم، بشرككم وعبادتكم لغيره، ممن لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق ﴿رَبُّكُمُ﴾؛ أي: المربي لكم بنعمه والمدبر لأموركم ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت بذاته الحي المحيي لغيره المستحق للعبادة دون سواه. والاستفهام في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ للإنكار التوبيخي، بدليل ذكر إلا الإيجابية بعده؛ أي: فماذا بعد الرب الحق، الثابتة ربوبيته إلا الضلال؛ أي: الباطل الضائع المضمحل، فالذي يفعل تلك الأمور هو الرب الحق، وعبادته وحده هي الهدى، وما سواها من عبادة الشركاء والوسائط ضلال، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال؛ أي: فإذا ثبت أن عبادة الله حق، ثبت أن عبادة غيره من الأصنام ضلالٌ محض، إذ لا واسطة بينهما. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، مع علمكم بما كان الله به هو الرب الحق، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية، فتتخذون مع الله آلهة أخرى؛ أي: فكيف تمالون من التوحيد إلى الإشراك، وعبادة الأصنام مع علمكم ذلك؟ فالاستفهام فيه، للتعجيب والابتعاد والإنكار.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما حق وثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون من الحق ﴿حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: وجب حكمه ونفذ قضاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾؛ أي: خرجوا من الحق إلى الباطل، وتمردوا في كفرهم عناداً ومكابرةً، وتلك الكلمة هي قوله جل ثنائه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ...﴾ الآية. أو هي جملة قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فتكون هذه الجملة بدلاً من كلمة ربك، بدل كل من كل؛ أي: حقت كلمة ربك التي هي عدم إيمانهم. وعلى المعنى الأول: تكون الجملة تعليلية لما قبلها، بتقدير اللام؛ أي: حقت عليهم كلمة ربك، التي هي دخول جهنم؛ لأنهم لا يؤمنون. والمعنى: كما حقت كلمة ربك بوحدة الربوبية والألوهية، وكون الحق ليس بعده إلا الضلال، حقت كلمة ربك؛ أي: وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق، وهو توحيد الألوهية والربوبية، وهداية الدين الحق.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: هي أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا، من التوحيد والهدى مهما تكن الآية بينة، والحجة ظاهرة قوية؛ أي: وجب وثبت قضاء ربك، بأنهم لا يؤمنون لرسوخهم وتمردهم في الإشراك.

وليس المراد[1]: أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر، بل هم يمتنعون منه باختيارهم، لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل، فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال، لرسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾. وقرأ[2] أبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر: ﴿كلمات ربك﴾ بالجمع هنا، وفي آخر السورة. وقرأ باقي السبعة بالإفراد.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ للتقرير، كالاستفهامات السابقة والآتية، أي: قل لهم أيها الرسول: هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله تعالى، أو من دون الله، من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها، كما تزعمون،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أو الكواكب السيارة، أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن ﴿مَن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ أي: من ينشىء المخلوقات من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في القيامة للجزاء؛ أي: من له التصرف في هذا الكون ببدء الخلق في طور، ثم إعادته في طور آخر. وفي هذا سؤالان: سؤال عن البدء، وسؤال عن الإعادة.

ولما كانوا لا يجيبون عن هذا السؤال، كما أجابوا عن الأسئلة الأولى، لإنكارهم للبعث والمعاد، لقن الله سبحانه وتعالى رسوله الجواب، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم، يا محمد، في الجواب ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هو الذي ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ أي: ينشىء المخلوقات من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يوم القيامة للمجازاة، لا جواب غيره، إذ القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته بالأولى، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية، دون الأحياء النباتية، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات في الأرض حين ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافه في فصل الصيف والخريف، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى، ويقرون بأن الله تعالى هو الذي يفعل البدء والإعادة؛ لأنهم يشاهدون كلاً منهما، وهم لا يسلمون إلا بما يرون بأعينهم، أو يلمسونه بأيديهم. وقد أمر الله رسوله، ﷺ، أن يرشدهم إلى جهلهم وينبههم للتفكير في أمرهم فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ والاستفهام فيه تعجبي؛ أي: فكيف تصرفون من الحق، الذي لا محيد عنه، وهو التوحيد إلى الضلال البين، وهو الإشرك وعبادة الأصنام، وذلك من دواعي الفطرة، وخاصة العقل حين تفكيره في المصير، ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره، إلزاماً لهم عقب الإلزام الأول، فسألهم عن شأن من شؤون الربوبية المقتضى لاستحقاق الألوهية، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية فقال: ﴿قُلۡ﴾ لهم، يا محمد، ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: هل من هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله من يهدي ويرشد غيره إلى الحق والصواب، مما فيه صلاحكم في الدين والدنيا، بوجه من وجوه الهداية، التي بها تتم حكمة الخلق، كما يدل على ذلك قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ إذ أدنى مراتب المعبودية، هداية المعبود لعابديه إلى الحق.

والهداية لها أنواع:

١ ـ هداية الغريزة والفطرة التي أودعها الله في الإنسان والحيوان.

٢ ـ هداية الحواس، من سمع وبصر ونحو ذلك.

٣ ـ هداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل.

٤ ـ هداية الدين، وهو للنوع البشري في جملته بمثابة العقل للأفراد.

٥ ـ هداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق، وتسهيل سبله، ومنع الصوارف عنه.

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدعوا أن أحداً من أولئك الشركاء يهدي إلى الحق، لا من ناحية الخلق، ولا من ناحية التشريع.. لقن الله رسوله الجواب، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم، أيها الرسول، في الجواب، لا جواب غيره: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هو الذي ﴿يَهْدِى﴾ ويرشد من يشاء ﴿لِلْحَقِّ﴾؛ أي: إلى الحق دون غيره من شركائكم، بما نصب من الأدلة والحجج، وأرسل من الرسل، وأنزل من الكتب، وهدى إلى النظر والتدبر وأعطى من الحواس.

وفي «السمين»: ﴿هدى﴾ يتعدى إلى اثنين، ثانيهما، إما باللام، أو بإلى، وقد يحذف الحرف تخفيفاً، وقد جمع بين التعديتين هنا بحرف الجر، فعدى الأول والثالث بإلى، والثاني باللام، وحذف المفعول الأول من الأفعال الثلاثة، والتقدير: هل من شركائكم من يهدي غيره إلى الحق، قال: الله يهدي من يشاء للحق، أفمن يهدي غيره إلى الحق، وقد تقدم أن التعدية بإلى وباللام من باب التفنن في البلاغة، ولذلك قال الزمخشري: يقال: هداه للحق وإلى الحق، فجمع بين اللغتين اهـ. والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل. وعبارة الخطيب قل هل من شركائكم من يهدي غيره إلى الحق بنصب الحجج وخلق الاهتداء وإرسال الرسل، ولما كانوا جاهلين بالحق في ذلك أو معاندين.. أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه، ﷺ، أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الذي له الإحاطة الكاملة، يهدي للحق من يشاء، لا أحد ممن زعمتموه شركاء. فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها، جهل محض. اهـ. يعني أن الله هو الذي يهدي للحق، فهو أحق بالاتباع لا هذه الأصنام التي لا تهتدي إلا أن تهدى، اهـ «خازن». والمعنى: قل لهم يا محمد: هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس

إلى الحق، فإذا قالوا: لا، فقل لهم: الله يهدي للحق دون غيره. وقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ...﴾ الخ، سؤال ثامن، لم يذكر جوابه لوضوحه، والاستفهام للتقرير والتوبيخ، كما أشرنا إليه أولاً، والفاء لترتيب الاستفهام على ما سبق، من تحقيق هدايته تعالى صريحاً، وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر، والهمزة متأخرة في الاعتبار وإنما تقديمها في الذكر لإظهار عراقتها في الاستفهام، واقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور، ا هـ «أبو السعود».

فالهمزة في قوله: ﴿أفمن يهدي﴾ داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أعميتم عن إبصار الحق، أم عاندتم، فمن يهدي ويرشد من يشاء إلى الحق والصلاح.. ﴿أحق﴾ وأولى من غيره بـ ﴿أن﴾ يطاع و ﴿يُتَّبَعُ﴾ فيما شرعه ويعبد دون غيره ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ غيره ولا يهتدي بنفسه، فضلاً عن هداية غيره إلا أن يهدى؛ أي لا يهتدي في حال من الأحوال إلا في حال هدايته تعالى له، إذ لا هادي غيره، وهذا حال أشراف شركائهم من الملائكة والمسيح، وعزير عليهم السلام، أو من لا ينتقل من مكان إلى مكان، إلا أن ينقل إليه؛ لأن الأصنام خالية عن الحياة والقدرة؛ أي: أهذا الأخير أحق، أن يتبع، أم الأول فالجواب الأول أحق أن يتبع، وترك ذكر الجواب لوضوحه كما مر.

والاستفهامان في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ للتعجيب من حالهم وسوء صنيعهم وقبيح فعلهم، وللتقريع والتوبيخ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: فأي شيء ثبت لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله تعالى، فإنهم عاجزون عن هداية أنفسهم، فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم، أو أي شيء أصابكم، وماذا حل بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم، الذي لا خالق ولا رازق ولا هادي لكم سواه ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل وتجعلون لله شركاء، أو كيف تحكمون بجواز عبادتهم وشفاعتهم عنده تعالى بدون إذنه.

وهاتان[1] جملتان، أنكر في الأولى، وتعجب من اتباعهم من لا يهدي ولا

---

(١) البحر المحيط.

يهتدى، وأنكر في الثانية حكمهم بالباطل، وتسوية الأصنام برب العالمين.

وقد اختلف[1] القراء في ﴿لا يهدى﴾ فقرأ أهل المدينة إلا ورشاً، أم لا يهدي، بفتح الياء، وسكون الهاء وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنين. قال النحاس: لا يقدر أحد أن ينطق به. وقال المبرد: من رام هذا لا بد أن يحرك حركة خفيفة. وسيبويه: يسميه اختلاس الحركة. وقرأ أبو عمرو وقالون: في رواية كذلك، إلا أنه اختلس الحركة؛ أي: بين الفتح والإسكان. وقرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محيصن: كذلك إلا أنهم فتحوا الهاء؛ أي: قرءوا بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال النحاس: هذه القراءة بينة في العربية، والأصل فيها يهتدي فنقلت حركة التاء إلى الهاء، وأدغمت التاء في الدال. وقرأ حفص ويعقوب والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا؛ لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. قال أبو حاتم: هي لغة سفلى مضر. وقرأ أبو بكر عن عاصم في رواية يحيى بن آدم ﴿يِهِدّى﴾ بكسر الياء والهاء وتشديد الدال للاتباع، ونقل عن سيبويه أنه لا يجيز ﴿يِهدى﴾ ويجيز تِهدى ونِهدى وإِهدى قال: لأن الكسرة في الياء تثقل. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى بن وثاب: ﴿يهدى﴾ بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال، من هدى يهدي. قال النحاس، وهذه القراءة لها وجهان في العربية، وإن كانت بعيدةً:

الأول: أن الكسائي والفراء، قالا: إن يهدي بمعنى يهتدي.

الثاني: أن أبا العباس قال: إن التقدير: أم لا يهدي غيره ثم تم الكلام. وقال بعد ذلك: ﴿إلا أن يهدى﴾؛ أي: لكنه يحتاج أن يهدي فهو استثناء منقطع، كما تقول: فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع، أي: لكنه يحتاج أن يسمع.

والمعنى على القراءات المتقدمة[2]: أفمن يهدي الناس إلى الحق، وهو الله سبحانه، أحق أن يتبع ويقتدى به، أم الأحق بأن يتبع ويقتدى به من لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره، فضلاً عن أن يهدي غيره، والاستثناء على هذا استثناء

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) الشوكاني.

مفرغ من أعم الأحوال.

وبعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية، بين حال المشركين الاعتقادية، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: وما يتبع أكثر المشركين في معتقداتهم إلا ظناً واهياً، أما بعضهم فقد يتبعون العلم، فيقفون على بطلان الشرك، لكن لا يقبلون العلم عناداً، وفي ذلك دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز.

والمعنى[1]: أي إن أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير الله، ولا في إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول، ﷺ، إلا ضرباً من ضروب الظن، قد يكون ضعيفاً، كأن يقيسوا غائباً على شاهد، ومجهولاً على معروف، ويقلدون الآباء، اعتقاداً منهم أنهم لا يكونون على باطل في اعتقادهم ولا ضلال في أعمالهم، وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق والهدى، وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لا تضر ولا تنفع، ولكنهم يجحدون بآيات الله تعالى، ويكذبون رسوله، ﷺ، عناداً واستكباراً، وخوفاً على زعامتهم أن تضيع سدى فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين.

ثم بين حكم الله في الظن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: عن العلم ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء في العقائد، والحق هو الثابت الذي لا ريب في ثبوته وتحققه؛ أي: إن الشك لا يقوم مقام اليقين في شيء، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين.

وخلاصة ذلك: أن الظن لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك، كالعقائد الدينية، وبهذ تعلم أن إيمان المقلد غير صحيح، أي: إن مجرد الظن لا يغني في معرفة الحق شيئاً؛ لأن أمر الدين، إنما يبنى على العلم، وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يدرك به الحق، ولا يغني من العلم والاعتقاد الحق شيئاً.

---

(١) المراغي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ من الاتباع للظنون الفاسدة، والإعراض عن البراهين القاطعة؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها، كتكذيبهم للرسول، ﷺ، مع قيام الأدلة القطعية على صدقه، واتباعهم للظن، كالتقليد باتباع الآباء والأجداد.

وفي الآية إيماءٌ، إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن، فالعلم المفيد للحق ما كان قطعياً من كتاب أو سنة، وهو الدين الذي لا يجوز للمسلمين التفرق، والاختلاف فيه، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن، فلا يؤخذ به في الاعتقاد، وهو متروك للاجتهاد في الأعمال، اجتهاد الأفراد في الأعمال الشخصية، واجتهاد أولي الأمر في القضاء، مع سلوك طريق الشورى، حتى يتحقق العدل والمساواة في المصالح العامة. وفي هذه الجملة تهديد لهم، على ما وقع منهم، من الأفعال الشنيعة والأحوال القبيحة. وقرأ عبد الله ﴿تفعلون﴾ بالتاء على الخطاب التفاتاً.

الإعراب

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ولكنها مجردة هنا عن معنى الحصر؛ لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا، كما مر في مبحث التفسير ﴿مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: مبتدأ، ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة للحياة ﴿كَمَآءٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة لـ ﴿ماء﴾ ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾: الفاء: عاطفة ﴿اختلط﴾ فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ولكنها صفة سببية ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من نبات الأرض ﴿يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾: فعل وفاعل ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾: معطوف على ﴿ٱلنَّاسُ﴾ والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف، تقديره: مما يأكله الناس والأنعام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أَخَذَتِ﴾. ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾: فعل رفاعل معطوف على ﴿أَخَذَتِ﴾. ﴿أَنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه ﴿قَٰدِرُونَ﴾: خبره. ﴿عَلَيۡهَآ﴾ متعلق بـ ﴿قَٰدِرُونَ﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظنّ، تقديره: وظن أهلها قدرتهم عليها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾: منصوبان على الظرفية الزمانية، متعلقان بـ ﴿أَتَىٰهَآ﴾ وجملة ﴿أتى﴾ جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ من فعل شرطها وجوابها مجرور بحتى، بمعنى إلى و ﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلقة بـ﴿اختلط﴾ تقديره: فاختلط به نبات الأرض، إلى إتيان أمرنا إياها، وقت أخذها زخرفها، وتزينها به.

﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على جملة ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، تقديره: كأنها؛ أي: كأن ثمار تلك الأرض وزروعها ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي وجزم ﴿تَغۡنَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمۡ﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الألف؛ لأنه من غني يغنى، كرضي يرضى، وفاعله ضمير يعود على الأرض، أي: على ثمارها وزروعها. ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾: متعلق به والجملة الفعلية في محل الرفع خبر كأن، تقديره: كأنها عادمة الغنى والوجود بالأمس، وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب، حال من هاء ﴿جعلناها﴾ تقديره: فجعلناها حصيداً، حالة كونها مشبهة بعدم الغناء بالأمس؛ أي: مشبهاً حالها بحال الشيء الذي لم يوجد بالأمس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، تقديره: تفصيلاً مثل التفصيل السابق ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بنفصل. وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: صفة ﴿لِقَوْمٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَدْعُوٓا۟﴾: خبره والجملة الاسمية مستأنفة ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ جار ومجرور ومضاف متعلق بـ ﴿يَدْعُوٓا۟﴾ ﴿وَيَهْدِى مَن﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يَدْعُوٓا۟﴾ ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور، وصفة متعلق بـ ﴿يهدِي﴾ وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة من الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: من يشاءه.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿أَحْسَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: معطوف عليه والجملة مستأنفة ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿قَتَرٌ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ﴾ مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه ﴿بِمِثْلِهَا﴾ خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والرابط محذوف تقديره؛ جزاء سيئة منهم بمثلها، والجملة من الأول وخبره معطوفة على جملة قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، أعرضنا عنها صفحاً خوف الإطالة

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة ﴿مَا﴾: نافية ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿عَاصِمٍ﴾ ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾: مبتدأ مؤخر و ﴿مِن﴾: زائدة، والجملة مستأنفة.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿كَأَنَّمَآ﴾: كأنّ: حرف تشبيه ونصب، ما: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها ﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة ﴿قِطَعًا﴾: مفعول ثان لـ﴿أغشيت﴾ ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صفة لـ ﴿قِطَعًا﴾ ﴿مُظْلِمًاۚ﴾: حال من الليل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يوم نحشرهم، والجملة مستأنفة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: فعل ومفعول ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير المفعول، وفاعله ضمير، يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على الله، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿نَقُولُ﴾ ﴿أَشْرَكُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾: مقول محكي لـ ﴿نَقُولُ﴾ وإن شئت قلت: ﴿مَكَانَكُمْ﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: الزموا مكانكم ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لضمير الفاعل، في الفعل المحذوف ﴿شُرَكَآؤُهُم﴾ بالرفع، معطوف على ضمير الفاعل، في الفعل المحذوف، وبالنصب، منصوب على كونه مفعولاً معه، والجملة الفعلية المحذوفة في محل النصب، مقول لـ ﴿نَقُولُ﴾ ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿زيلنا﴾ فعل وفاعل ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق به،

والجملة معطوفة على جملة ﴿نَقُولُ﴾؛ لأنه في تأويل، فنزايل بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة نقول؛ لأنه في تأويل فنزايل بينهم، ويقول شركاؤهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ نافية ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿إِيَّانَا﴾: مفعول مقدم ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مقول القول.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَكَفَىٰ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كفى﴾ والجملة في محل النصب، معطوف على جملة قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿بَيْنَنَا﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿شَهِيدًا﴾ ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾ ﴿إِنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿غافلين﴾ ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾ المخففة وجملة ﴿إِنْ﴾ المخففة في محل النصب مقول على كونها معللة لما قبلها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: هنا: اسم إشارة للمكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية، أو هو مستعار للزمان، اللام: لبعد المشار إليه. والكاف: حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ ﴿تَبْلُوا﴾ ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل النصب على المفعولية ﴿أَسْلَفَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما أسلفته. ﴿وَرُدُّوا﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿زيلنا﴾، كما في «الشوكاني» ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ردوا﴾ ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: بدل أول من الجلالة ﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفة لـ ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾، أو بدل ثان من الجلالة ﴿وَضَلَّ﴾ فعل ماض ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به

﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ردوا﴾ ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يفترونه.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت، قلت ﴿مَن﴾: اسم استفهام، في محل الرفع ﴿يَرْزُقُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿يَرْزُقُكُم﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ أم: عاطفة منقطعة؛ لأنها لم يتقدمها همزة استفهام ولا تسوية، ولكن إنما تقدر هنا، ببل وحدها، دون الهمزة؛ لأنها وقع بعدها اسم استفهام صريح ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: معطوف على السمع، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿وَمَن﴾ الواو عاطفة ﴿من﴾: اسم استفهام مبتدأ. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿مَن﴾ الاستفهامية، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: متعلق بـ ﴿يُخْرِجُ﴾ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: متعلق بـ ﴿يُخْرِجُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يُخْرِجُ﴾ الأول ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: الواو: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة في محل الرفع خبر ﴿مَن﴾ الاستفهامية، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: الفاء: حرف عطف

وتفريع ﴿سيقولون﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿قُلْ﴾ مفرعة عليها ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك الرازق المالك المخرج، المدبر.. الله، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿فَقُلْ﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿سيقولون﴾ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أتعلمون ذلك. الفاء: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لَا﴾: نافية ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: أفلا تتقون عقابه وسخطه، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، على كونها مقول القول.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان ما هو الحق الواجب فأقول لكم ذلكم الله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر أول ﴿رَبُّكُمُ﴾ خبر ثان. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة للرب، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَمَاذَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم، فذلكم الله ربكم، وأردتم بيان حقيقة الأمر، فأقول لكم: ماذا بعد الحق ﴿ماذا﴾: اسم استفهام، مركب في محل الرفع مبتدأ ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾: بدل من الضمير المستكن في الخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وإن شئت قلت: ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿ذا﴾: اسم موصول، بمعنى: الذي، في محل الرفع خبر ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول، تقديره: فما الذي استقر بعد الحق ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾: بدل من الضمير المستكن في الصلة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَأَنَّىٰ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وأردتم بيان ما يقال: لكم في التعجب من حالكم.. فأقول لكم: ﴿أنى تصرفون﴾. ﴿أنى﴾: اسم استفهام.

بمعنى: كيف، في محل النصب على التشبيه بالمفعول به لما بعده ﴿تُصْرَفُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: حقاً مثل حق صرفهم عن الحق ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: إلخ؛ أي: ثبوتاً مثل ثبوت صرفهم عن الحق، ثبتت كلمة ربك على الذين فسقوا، والإشارة راجعة إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ كما ذكره الزمخشري ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حَقَّتْ﴾ ﴿فَسَقُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: خبره وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدلاً من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدل كل من كل، تقديره: حقت عليهم كلمة ربك، عدم إيمانهم، أو مجرور بلام التعليل المقدرة، أي: حقّت عليهم كلمة ربك، لأملأن جهنم لعدم إيمانهم.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ﴾ مقول محكي، وإن شئت، قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لـ ﴿قُلْ﴾ و جملة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ معطوفة على ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ ﴿فَأَنَّىٰ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أنى﴾: اسم استفهام، بمعنى: كيف في محل

النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ما بعده. ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ إلى قوله ﴿قُلْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يَهْدِىٓ﴾: فعل مضارع ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾؛ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَهْدِى﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لِلْحَقِّ﴾: متعلق بـ ﴿يَهْدِى﴾. ﴿أَفَمَن﴾ الهمزة: للاستفهام، التقريري، مقدمة على الفاء العاطفة، لعراقتها في التصدير. ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. وجملة ﴿يَهْدِىٓ﴾ صلته ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: متعلق به ﴿أَحَقُّ﴾: خبر لـ﴿مَن﴾ الموصولة والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى﴾ على كونها مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَن﴾: مصدرية ﴿يُتَّبَعَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بـ ﴿أَن﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، تقديره: أحق بالاتباع ﴿أَمَّن﴾ ﴿أَمْ﴾: متصلة لسبقها بهمزة، يطلب بها وبأم التعيين ﴿مَن﴾ اسم موصول مبتدأ. وجملة ﴿لَّا يَهِدِّىٓ﴾؛ صلته والخبر محذوف، تقديره: أمن لا يهدي أحق بالاتباع، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَفَمَن﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُهْدَىٰ﴾ فعل مضارع منصوب بأن، ونائب فاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، والجملة الفعلية

في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، نقديره: أم لا يهدى إلا إهداءه، أي: إلا إهداء الغير إياه؛ أي: لا يهتدي في حال من الأحوال، إلا في حال إهدائه؛ أي: إهداء الغير إياه، والجواب الأول أحق بالاتباع. ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن الأول أحق بالاتباع، وأردتم بيان ما يقال: لكم في التعجب من حالكم.. فأقول: ما لكم ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبره، أي فأي شيء ثابت لكم في اتباعكم الباطل، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم لـ ﴿تَحْكُمُونَ﴾ ﴿تَحْكُمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومعموله محذوف، تقديره: كيف تحكمون بالباطل، وتجعلون لله أنداداً وشركاء، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية ﴿يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ظَنًّا﴾: مفعول به ﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾: ناصب واسمه ﴿لَا يُغْنِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الظَّنَّ﴾ ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾: متعلق به ﴿شَيْئًا﴾: مفعول ﴿يغني﴾ وجملة ﴿لا يغني﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌ﴾: خبره وجملة إن مستأنفة ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما يفعلونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ قال في «الصحاح» الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموه مزور، انتهى. والمعنى: أن الأرض أخذت لونها الحسن، المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرد.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وأصل ازينت تزينت، أدغمت التاء في الزاي، وجيء بألف الوصل؛ لأن الحرف المدغم فيه قائم مقام حرفين، أولهما ساكن، والساكن لا يمكن الابتداء به، ثم حذفت همزة الوصل لما دخل العاطف عليه. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: كأن لم يكن زرعها موجوداً فيه بالأمس، مخضراً طريّاً من غني بالمكان بالكسر يغنى بالفتح، من باب رضي إذا أقام به، والمراد بالأمس الوقت القريب. والمغاني في اللغة: المنازل.

﴿يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار السلام: هي الجنة. والسلام: السلامة من جميع الشوائب والنقائص والأكدار. وقال الزجاج: والمعنى: والله يدعو إلى دار السلامة. ومعنى السلام والسلامة واحد، كالرضاع والرضاعة، ومنه قول الشاعر:

تُحَيَّىٰ بِٱلسَّلَامَةِ أُمُّ بَكْرٍ ... وَهَلْ لَكَ بَعْدَ قَوْمِكَ مِنْ سَلَامِ

وقد مر في تفسيره أقوال.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى: مؤنث الأحسن. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها. والمراد بها هنا، الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم كما مر ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ معنى يرهق، يلحق، ومنه قيل: غلام مراهق إذا لحق بالرجال. والرهق: الغشيان، يقال: رهقه يرهقه رهقاً، من باب طرب إذا غشيه بسرعة ومنه ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾؛ أي: لا تكلفني ما يشق عليّ ويعسر. ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يقال: رهقته وأرهقته، مثل ردفته وأردفته، ففعل وأفعل بمعنى. ومنه أرهقت الصلاة إذا أخرتها حتى غشي وقت الأخرى؛ أي: دخل. وقال بعضهم: أصل الرهق: المقاربة، ومنه غلام مراهق، أي: قارب الحلم. ﴿والقتر﴾ والقترة؛ الغبار معه سواد، يقال: قتر، كفرح ونصر وضرب. وقيل: القتر: الدخان الساطع من الشواء والحطب، ومنه غبار القدر. وقيل: القتر: التقليل، ومنه ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ ويقال: قترت الشيء وأقترته وقترته؛ أي: قللته: ومنه ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ اهـ «سمين». والذلة: ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان، والعاصم: المانع.

﴿قِطَعًا﴾ جمع قطعة، كسدرة وسدر وكسرة وكسر، والقطعة الجزء من الشيء ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد، كما مر. ﴿مَكَانَكُمْ﴾ ومكانكم: كلمة يراد بها التهديد والوعيد؛ أي: الزموا مكانكم. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، يقال: زيلته فتزيل؛ أي: فرقته فتفرق، والمزايلة المفارقة، يقال: زايله زيالاً، إذا فارقه، والتزايل التباين. واختلف في زيل، هل وزنه فعل، أو فيعل، والظاهر الأول، والتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية؛ لأن ثلاثيه متعد بنفسه. حكى الفراء: زلت الضأن من المعز، ويقال: زلت الشيء عن مكانه، أزيله، وهو على هذا من ذوات الياء، والثاني أنه فيعل، كبيطر وهو من زال يزول، والأصل زيولنا فاجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون فأعلت الإعلال المشهور، وهو قلب الواو ياء وإدغام الياء فيها، كميت وسيد، في ميوت وسيود، وعلى هذا، فهو من مادة الواو، وإلى هذا ذهب ابن قتيبة وتبعه أبو البقاء، ا هـ «سمين».

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾ وفي «المختار» البلية والبلاء والبلوى واحد، والجمع البلايا، ا هـ. ومعنى الكل: الاختبار وفي «السمين»: وفي هنالك وجهان: الظاهر منهما بقاؤه على أصله، من دلالته على ظرف المكان، أي: في ذلك الموقف الدحض والمكان الدهش. وقيل: هو هنا ظرف زمان على سبيل الاستعارة، ومثله ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في ذلك الوقت.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه[1] المركب في قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حيث شبهت حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً، بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه، قاله الزمخشري.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ حيث جعلت الأرض في زينتها، بما عليها من أصناف النبات، كالعروس التي أخذت من أنواع الثياب والزينة، فتزينت بها، ذكره أبو السعود.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿حَصِيدٗا﴾؛ أي: كالمحصود وهو ما حذف فيه الأداة، ووجه الشبه.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾؛ لأن الأمر هنا كناية عن العذاب والدمار.

ومنها: إطلاق الخاص بمعنى العام في قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾؛ لأن المراد بالأمس الزمن الماضي، لا خصوص اليوم الذي قبل يومك.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾.

ومنها: الطباق بين كلمتي الحي والميت في قوله: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾، وبين كلمتي يبدأ ويعيد في قوله: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وبين كلمتي الحق والضلال في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، وفي قوله: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وفي قوله: ﴿مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إن قلنا: إن السلام من أسماء الله تعالى.

ومنها: الوعيد والتهديد في قوله: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾؛ لأن المراد من هذا الأمر وعيدهم وتهديدهم وإهانتهم، وإلا فالمؤمنون يلزمون بالوقوف أيضاً حتى يسألوا ويحاسبوا.

ومنها: التأكيد بقوله: ﴿أَنتُمْ﴾؛ لأنه تأكيد للضمير المستتر في الفعل المحذوف.

ومنها: الإضافة لأدنى ملابسة في قوله: ﴿وقال شركاؤهم﴾؛ لأنه جعل الأصنام شركاءهم، من حيث إنهم اتخذوها شركاء لله في استحقاق العبادة.

ومنها: التفنن في قوله: ﴿مَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ﴾ حيث عدى أولاً بإلى وثانياً باللام.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وما كان هذا القرءان أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتب
لا ريب فيه من رب العلمين (٣٧) أم يقولون افترىه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من
دون الله إن كنتم صدقين (٣٨) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين
من قبلهم فانظر كيف كان عقبة الظلمين (٣٩) ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن
به وربك أعلم بالمفسدين (٤٠) وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل
وأنا برىء مما تعملون (٤١) ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون (٤٢)
ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون (٤٣) إن الله لا يظلم
الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون (٤٤) ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار
يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٤٥) وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو
نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٤٦) ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم
قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون (٤٧) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صدقين (٤٨) قل لا
أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا
يستقدمون (٤٩) قل أرءيتم إن أتىكم عذابه بيتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون (٥٠) أثم إذا
ما وقع ءامنتم به ءالـٔن وقد كنتم به تستعجلون (٥١) ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل
تجزون إلا بما كنتم تكسبون (٥٢) ۞ ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم
بمعجزين (٥٣) ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا
العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون (٥٤) ألا إن لله ما فى السموت والأرض ألا
إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون (٥٥) هو يحى ويميت وإليه ترجعون (٥٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وما كان هذا القرءان أن يفترى من دون الله...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] قدم قولهم: ﴿ائت بقرءان غير

(١) البحر المحيط.

﴿هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وكان من قولهم: إنه افتراء.. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾؛ أي: ما صح ولا استقام، أن يكون هذا القرآن المعجز مفترى.

وعبارة «المراغي»: مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى الأدلة على أن القرآن من عنده، وأن محمداً ﷺ، عاجز كغيره عن الإتيان بمثله، ثم أتى بالحجج على بطلان شركهم، واتباع أكثرهم لأدنى الظن، وأضعفه في عقائدهم.. عاد إلى الكلام في تفنيد رأيهم في الطعن على القرآن، بمقتضى هذا الظن الضعيف، لدى الأكثرين منهم، والجحود والعناد من الأقلين كالزعماء والمستكبرين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيّن في الآية السالفة، أنهم كذبوا بالقرآن قبل أن يأتيهم تأويله، وقبل أن يحيطوا بعلمه.. أردف ذلك بذكر حالهم بعد أن يأتيهم التأويل المتوقع، وبين أنهم حينئذٍ يكونون فريقين، فريق يؤمن به، وفريق يستمر على كفره وعناده.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أنبأ رسوله ﷺ، بأن من قومه من لا يؤمن به لا حالاً ولا استقبالاً، بل يصرون على التكذيب بعدما جاءتهم البينات، وكان من شأنه ﷺ أن يطيل الحزن والأسف إن لم يؤمنوا بهذا الحديث.. ذكر سبب هذا، وهو أنهم قوم طبع الله على قلوبهم، وفقدوا الاستعداد للإيمان، فلا وسيلة له ﷺ في إصلاح حالهم، ولا قدرة له على هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف هؤلاء المشركين بترك التدبر والإصغاء، وتكذيبهم للرسول، ﷺ، والقرآن، قبل أن يأتيهم تأويله.. قفّى على ذلك بالوعيد، بما سيكون لهم من الجزاء على هذا يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ...﴾الآية،

---

(١) المراغي.

مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما بين[1] الله سبحانه وتعالى في الآية السالفة، أن هؤلاء المشركين الذين كذبوا بلقاء الله تعالى، قد خسروا، وما كانوا مهتدين، وهذا يتضمن تهديداً ووعيداً بالعذاب الذي سيلقونه في الدنيا والآخرة.. أردف ذلك ببيان أن بعض هذا العذاب ستراه أيها الرسول الكريم، وتقر عينك برؤيته، وبعض آخر سيكون لهم يوم الجزاء، وهو عليم بما فعلوه، فيجازيهم به قدر ما يستحقون.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما بين[2] الله سبحانه وتعالى حال الرسول ﷺ في قومه.. بين حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، تسليةً له، وتطميناً لقلبه، ودلت الآية على أنه تعالى ما أهمل أمة، بل بعث إليها رسولاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة[3] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر العذاب، وأقسم على حقيقته، وأنهم لا يفلتون منه.. ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما سألوا عما وعدوا به من العذاب، أحق هو، وأجيبوا بأنه، حق لا محالة، وكان ذلك جواباً كافياً لمن وفقه الله تعالى للإيمان كما كان جواباً للأعرابي، حين سأل الرسول ﷺ: الله أرسلك؟ وقوله عليه السلام له: «اللهم نعم» فقنع بإخباره ﷺ، إذ علم أنه لا يقول إلا الحق والصدق، كما قال هرقل: لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.. انتقل من هذا الجواب إلى ذكر البرهان القاطع على حجته، وتقريره بأن القول بالنبوة والمعاد، يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم، وأن ما سواه فهو مِلْكُهُ ومُلْكُهُ، فعبر عن هذا بهذه الآية، وكان قد استقصى الدلائل على ذلك في هذه

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

السورة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ فاكتفى هنا عن ذكرها. وإذا كان جميع ما في العالم مِلْكُهُ ومُلْكُهُ كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات غنياً عن جميع الحاجات منزهاً عن النقائص والآفات، وبكونه قادراً على الممكنات، كان قادراً على إنزال العذاب على الكفار في الدنيا والآخرة، وقادراً على تأييد رسوله بالدلائل، وإعلاء دينه، فبطل الاستهزاء والتعجيز، وبتنزيهه عن النقائص كان منزهاً عن الخلف والكذب، فثبت أن قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مقدمة توجب الجزم بصحة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ذكره «أبو حيان».

أسباب النزول

وأما أسباب النزول فليست في هذه الآيات ولم نر من ذكر شيئاً منها في هذه الآيات المذكورة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ أي: وما صح أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الحجج الناطقة، ببطلان الشرك وحقية التوحيد ﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مفترى من الخلق ﴿وَلَٰكِن﴾ كان القرآن ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مصدق الذي قبله وأمامه، من الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء قبله، كالتوراة والإنجيل؛ أي: مصدقاً لها وموافقاً لها، في العقائد وبعض الفروع.

ووقعت[1] لكن هنا، أحسن موقع إذ هي بين نقيضين، وهما الكذب، والصدق المضمن للتصديق ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، في اللوح المحفوظ من قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ومبيناً لما كتبه الله تعالى على عباده حالة كونه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في كونه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: منزلاً من مالك العالمين، جل جلاله.

---

(١) الفتوحات.

أي: وما كان ينبغي لهذا القرآن، أن يختلق ويفتعل؛ لأن معنى الافتراء: الاختلاق، والمعنى ليس وصف القرآن: وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله؛ لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، وذلك أن كفار مكة، زعموا أن محمداً، ﷺ، أتى بهذا القرآن من عند نفسه، على سبيل الافتعال والاختلاق، فأخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحي، أنزله الله عليه، وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب، وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله، ثم ذكر ما يؤكد ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة، ونفس هذا التصديق، معجزة مستقلة؛ لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة، مع أن النبي، ﷺ، لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه، ولا اتصل بمن له علم بذلك. وقيل[1] المعنى: ولكن القرآن ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب؛ أي: إنها قد بشرت به قبل نزوله، فجاء مصدقاً لها. وقيل المعنى: ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن، وهو محمد، ﷺ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن.

والخلاصة[2]: أي لا يصح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه، وينسبه إليه، إذ لا يقدر على ذلك غيره عزّ وجلّ؛ فإن ما فيه من علوم عالية، وحكم سامية، وتشريع عادل، وآداب اجتماعية، وإنباء بالغيوب الماضية، والمستقبلة، ليس في طوق البشر، ولا هو داخل تحت قدرته، وفي حيّز مكنته، ولئن سلم أن بشراً في مكنته ذلك، فلن يكون إلا أرقى الحكماء والأنبياء والملائكة، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئاً.

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبي ﷺ، وهو أبو جهل، قال: إن محمداً لم يكذب على بشر قط، أفيكذب على الله؟! ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكن كان تصديق الذي تقدمه من الوحي، لرسل الله تعالى بالإجمال، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم وسلامه، بدعوته إلى أصول الدين الحق، من الإيمان بالله واليوم الآخر، وصالح الأعمال، بعد أن نسي بعض بقية

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أتباعهم، وضلوا عن بعض، ولم يكن محمد النبي الأمي، يعلم شيئاً من ذلك، لولا الوحي عن ربه.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ وشؤون الاجتماع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه، لوضوح برهانه؛ لأنه الحق والهدى ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من وحيه، لا افتراء من عند غيره، ولا اختلاقاً كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

وبعد أن أبان سبحانه وتعالى، أنه أجل وأعظم من أن يفترى، لعجز الخلق عن الإتيان بمثله.. انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين، الذين قالوا: إن محمداً، ﷺ، قد افتراه، وفنّد مزاعمهم، وتعجب من حالهم، وشنيع مقالهم، وتحداهم أن يأتوا بمثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[1] وأم فيه إما منقطعة، تقدر، ببل، والهمزة التي للإنكار عند سيبويه وأتباعه، وعليه فهو انتقال عن الكلام الأول، وأخذ في إنكار قول آخر، والمعنى عليه: بل أيقولون افترى هذا القرآن واختلقه محمد، ﷺ، من عند نفسه، وإما متصلة، ولا بد حينئذٍ من حذف جملة، ليصح التعادل، والتقدير: أيقرون بحقية القرآن، أم يقولون: افتراه؛ أي: بل يقول كفار مكة: اختلق محمد، ﷺ، القرآن من تلقاء نفسه؛ أي: ما كان ينبغي أن تقولوا: إن محمداً، ﷺ، افتراه من عند نفسه، واختلقه. ﴿قُلْ﴾: لهم، يا محمد، إظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة: إن كان الأمر كما تقولون من أني اختلقته وافتريته.. ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: بسورة واحدة مماثلة لهذا القرآن، في الفصاحة والبلاغة، وحسن تركيبه وأسلوبه، ورزانة معانيه وعلمه، مفتراة من عند أنفسكم، فإن لساني لسانكم، وكلامي كلامكم، وأنتم أشد مني تمرناً وتمرساً للنثر والنظم منه ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمعاونة والمساعدة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ وقدرتم دعاءه وطلبه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: من أصنامكم وآلهتكم

---

(١) الفتوحات بتصرف.

التي تزعمون أنها ممدة لكم في المهمات والملمات، أو من سائر خلق الله تعالى وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ادعوا﴾ ﴿ودون﴾ جار مجرى أداة الاستثناء؛ أي: ادعوا سواه تعالى، ممن استطعتم من خلقه، ذكره: أبو السعود ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أني افتريته؛ أي: واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله، ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئاً من ذلك، فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾. وإذ قد[1] عجزتم عن ذلك، مع شدة تمرسكم، ولم يوجد في كلام أولئك، الذين نصبت لهم المنابر في سوق عكاظ، وبهم دارت رحى النظم والنثر، وتقضت أعمارهم في الإنشاء والإنشاد، مثله فهو ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق القوى والقدر.

ومن البيّن أنه ما كان لعاقل مثله، ﷺ، أن يتحداهم هذا التحدي، لو لم يكن موقناً، أن الإنس والجن لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن في جملته، ولا بسورة مثله، إذ لو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذكاؤه، يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق، من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به. إذ العاقل الفطن يعلم أن ما يمكنه من الأمر، قد يمكن غيره، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه.

والخلاصة: أن محمداً ﷺ كان على يقين بأنه من عند ربه، وأنه ﷺ كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله.

وقرأ[2] الجمهور ﴿تصديق﴾ ﴿وتفصيل﴾ بالنصب على أنه خبر لكان المحذوفة كما قدرناه في الحل. وقيل: انتصب على أنه مفعول لأجله، والعامل محذوف تقديره: ولكن أنزل للتصديق. وقرأ عيسى بن عمر ﴿تفصيل﴾ و﴿تصديق﴾ بالرفع هنا، وفي يوسف على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: ولكن هو تصديق. وزعم الفراء ومن تابعه: أن العرب إذا قالت: ولكن بالواو، آثرت

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

تشديد النون، وإذا لم تكن الواو، آثرت التخفيف. وقد جاء في السبعة مع الواو التشديد والتخفيف. وقرأ عمرو بن فائد: ﴿بِسُورَةِ مِّثْلِهِۦ﴾ على الإضافة؛ أي: بسورة كتاب أو كلام مثله؛ أي: مثل القرآن.

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه في القرآن، بتحديه لهم، إلى إظهار بطلانه ببيان أن كلامهم ناشىء من عدم علمهم بحقيقة أمره، واختبار حاله، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ وبل، فيه للإضراب الانتقالي أضرب بها عن الكلام الأول، وانتقل إلى بيان أنهم، سارعوا إلى تكذيب القرآن؛ أي: بل هم سارعوا إلى تكذيب القرآن، من غير أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على حقيقته.

وقيل[1] معناه: بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها، مما لم يحيطوا بعلمه؛ لأنهم كانوا ينكرون ذلك كله. وقيل: إنهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص، وأخبار الأمم الخالية، ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك.. أنكروها لجهلهم، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ لأن القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة، لا يقدر على استيعابها وتحصيلها ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ معطوف على ﴿لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ أي: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وبما لم يأتهم تأويله، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال؛ أي: كذبوا به، حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به، ولا بلغته عقولهم.

والمعنى: أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه، وقيل: أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه، من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين، والأمم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث، من الأمور المستقبلة التي أخبر عنها قبل كونها، أو قبل أن يفهموه حق الفهم.

وخلاصة ذلك: أنهم على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار

---

(١) الخازن.

بالغيب، قد أسرعوا في تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به، وفي تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع حصوله، شناعة وقصر نظر، لا تخفى على عاقل، وفيه دليل على أنهم مقلدون.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك التكذيب من غير تدبر ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ما كذبوا من المعجزات، التي ظهرت على أيدي أنبيائهم، عندما جاءتهم رسلهم بحجج الله وبراهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، وقبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله، الذي أوعدهم به.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتكذيب رسلهم، من الأمم السالفة من سوء العاقبة، بالخسف والمسخ، ونحو ذلك من العقوبات، التي حلت بهم، لتعلم مصير من ظلموا أنفسهم من بعدهم، وهذه العاقبة هي التي بينها الله تعالى في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾. وقد أنذر الله سبحانه وتعالى قوم محمد، ﷺ، بمثل ما نزل بالأمم قبلهم في الدنيا، بهذه الآية وغيرها، من هذه السورة، كما أنذرهم عذاب الآخرة، وكذبه المعاندون المقلدون في كل ذلك، ظناً منهم أنه لا يقع.

﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسه، ويعلم أنه صدق وحق، ولكنه كذب به مكابرةً وعناداً. وقيل المراد: ومنهم من يؤمن به في المستقبل، وإن كذب به في الحال؛ أي: ومن هؤلاء المكذبين من يؤمن به حين إتيان تأويله، وظهور حقيقته، بعد أن سعوا في معارضته، ورازوا قواهم فيها، فتضاءلت دونها ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ ولا يصدقه في نفسه، بل كذب به جهلاً، أو ومنهم من لا يؤمن به في المستقبل، بل يبقى على جحوده وإصراره على الكفر. وقيل: الضمير في الموضعين للنبي، ﷺ، وقد قيل: إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل: عام في جميع الكفار ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: بمن يفسدون في الأرض، بالشرك والظلم والبغي،

لفقدهم الاستعداد للإيمان، وهؤلاء سيعذبهم في الدنيا، ويخزيهم وينصركم عليهم، ويجزيهم في الآخرة بأعمالهم، لفسادهم وسوء معتقداتهم.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يقول لهم بالبراءة بينه وبينهم إن أصروا على تكذيبه واستمروا عليه فقال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾؛ أي: وإن أصروا على تكذيبك يا محمد ﴿فَقُل﴾ لهم ﴿لِّي عَمَلِي﴾؛ أي: جزاء عملي، وهو البلاغ والإنذار والتبشير، وما أنا بمسيطر ولا جبار ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ أي: جزاء عملكم من الشرك والظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، وليس عليَّ غير ذلك، والمعنى: وإن تمادوا على تكذيبك، فتبرأ منهم، فقد أعذرت وبلغت. ثم أكد هذا بقوله؛ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾؛ أي: لا تؤاخذوا بعملي ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ولا أؤاخذ بعملكم، وهذا مثل قوله: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾. وقد قيل: إن هذا منسوخ بآية السيف، كما ذهب إليه جماعة من المفسرين. وقال المحققون منهم: ليست بمنسوخة ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المشركين المكذبين ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ناس يصيخون إليك بأسماعهم الظاهرة إذا قرأت القرآن، أو بينت ما فيه من أصول الشرائع والأحكام، ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة، إذ يستمعون لعدم حصول أثر السماع، وهو حصول القبول، والعمل بما يسمعونه، فهم لا يتدبرون القول، ولا يتفقهون ما يراد منه، بل جل همهم أن يتسمعوا غرابة نظمه وجرس صوته، بترتيله كمن يستمع إلى الطائر، يغرد على غصن الشجرة ليتلذذ بصوته، لا ليفهم ما يغرد به. وقد وصف الله سبحانه وتعالى حالهم في آي أخرى فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

والآن نرى من المسلمين، من يستمع إلى قراءة القرآن، من قارىء حسن الصوت، أو من آلات اللهو العصرية، للتلذذ بترتيله، وتوقيع صوته، لا لينتفع بعظاته وعبره، ولا ليفهم عقائده وأحكامه، وجمع الضمير في ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ حملاً

على معنى من وأفرده في ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ﴾ حملاً على لفظه. والهمزة في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أأنت تطمع إسماع الصم، فأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. وقيل التقدير: أيستمعون إليك فأنت تسمعهم كما في «الشوكاني». والمعنى: أنت لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع. ومعنى قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: ولو كان مع الصمم عدم العقل، وجواب الشرط محذوف، دل عليه ما قبله، وجملة الشرط معطوفة على محذوف تقديره: أأنت تسمع الصم إن عقلوا، بل ولو كانوا لا يعقلون فأنت لا تسمعهم، فيكون المعنى أنت لا تسمع الصم، عقلوا أو لم يعقلوا، فهم كالأنعام، بل هم أضل؛ أي: إن السماع النافع للمستمع، هو الذي يعقل به ما يسمعه، ويفقهه، ويعمل به، ومن فقد هذا كان كالأصم، الذي لا يسمع، وإنك أيها الرسول الكريم، لم تؤت القدرة على إسماع الصم، الذين فقدوا حاسة السمع حقيقة، فكذلك لا تستطيع أن تسمع إسماعاً نافعاً من في حكمهم، وهم الذين لا يعقلون ما يسمعون، ولا يفقهون معناه، فيهتدوا به وينتفعوا بعظاته.

﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المشركين ﴿مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: من يتجه نظره إليك، ويبصرك بعينه الظاهرة، حين تقرأ القرآن، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان والخلق العظيم، وأمارات الهدى، والتزام الصدق، والهمزة في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ للاستفهام الإنكاري أيضاً، داخله على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أأنت تطمع أنك تقدر على إبصار العمي، فأنت تهدي العمي. وقيل: التقدير: أينظرون إليك، فأنت تهديهم، كما في «الشوكاني». ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: أتحسب أنك تقدر على هداية العمى، ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة، قد يحدس؛ وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء وقوله؛ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: لا يتأملون ولا يفكرون بقلوبهم فيما جئت به من الدلائل العظيمة والشمائل الفخيمة، معطوف على محذوف، تقديره: أأنت تهدي العمي إن أبصروا، بل ولو كانوا لا يبصرون، والمعنى: أنت لا تهدي عمي القلوب،

أبصروا أو لم يبصروا.

وخلاصة ما تقدم: أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد، وهؤلاء قد انصرفت نفوسهم عن استعمال عقولهم استعمالاً نافعاً في الدلائل البصرية والسمعية، لإدراك، أي مطلب من المطالب الشريفة التي وراء شهواتهم وتقاليدهم. والمقصود من هذا الكلام، تسلية رسول الله، ﷺ، فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً، أعرض عنه واستراح من الاشتغال به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفساد الحواس والعقول، وتفويت منافعها عليها، فإن الفعل منسوب إليهم، بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم، وتقدير الشقاوة عليهم لا يكون منه تعالى ظلماً؛ لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء، والخلق كلهم عبيده، وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالماً.

والمعنى: أنه تعالى لم يكن في سننه في خلقه أن ينقصهم شيئاً من الأسباب، التي يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم، من إدراكات وإرشادات إلى الحق بإرسال الرسل ونصب الأدلة التي توصلهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولكن الناس يظلمون أنفهسم وحدها دون غيرها؛ لأن عقاب ظلمهم واقع عليها فهم يجنون عليها بكفرهم، بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين بعدم استعمالها فيما خلقت لأجله، من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الأعمال، وذلك هو الصراط المستقيم الموصل لسعادة الدارين.

وقال الشوكاني: ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم، من السمع والعقل والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر، ما يدركون به أكمل إدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر

مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية.

وقرأ[1] حمزة والكسائي: ﴿وَلَٰكِنَ ٱلنَّاسَ﴾ بتخفيف النون وكسرها، لالتقاء الساكنين ورفع الناس. وقرأ الباقون: بتشديدها ونصب الناس.

﴿و﴾ اذكر، يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث قصة ﴿يوم نحشرهم﴾؛ أي: يوم نحشر المشركين وسائر الخلائق، ونجمعهم لموقف الحساب. وأصل الحشر، إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم. وقرأ الأعمش وحفص: ﴿يحشرهم﴾ بالياء مسنداًإلى ضمير الغيبة العائد على الله. إذ تقدم أن الله لا يظلم الناس شيئاً حالة كونهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ ولم يمكثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، إلا قدر ساعة من النهار، لهول ما يرون من الشدائد، حالة كونهم ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يعرف[2] بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم، كما كانوا يتعارفون في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، يعني: يعرف بعضهم بعضاً في بعض المواطن، ويوبخ بعضهم بعضاً، فيقول، كل فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا، وكذا، وأغويتني وزينت لي الفعل الفلاني، لا تعارف شفقة ورأفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ ولا يعرف بعضهم بعضاً في بعض المواطن. ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وغبن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ تعالى بالبعث ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة؛ أي: قد هلكوا بتكذيبهم بالبعث بعد الموت، وضلوا عن طريق النجاة، وما كانوا عارفين لطريقه. وهذه شهادة من الله تعالى على خسرانهم وتعجيب منه.

وخلاصة ذلك: أن هذه الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل، قصيرة الأمد، ستزول بموتهم، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار، لا تسع لأكثر من التعارف. وإن هؤلاء آثروا الحياة القصيرة المُنَغَّصَة بالأقدار، السريعة الزوال على الحياة الأبدية، بما فيها من النعيم المقيم، فلم يستعدوا لها ويعملوا

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

الأعمال الصالحة، التي تزكي نفوسهم وتهذب أرواحهم فخسروا السعادة فيها، وما كانوا مهتدين فيما اختاروه لأنفسهم، من إيثار الخسيس الزائل على النفيس الخالد.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾؛ أي: وإن أريناك، يا محمد ﴿بَعْضَ﴾ العذاب ﴿الَّذِين نعدهم﴾ به في الدنيا، فذاك الذي يستحقونه، وهم له أهل، وقد أراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة، بدعائه، ﷺ، ونصره عليهم نصراً مؤزراً، في أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم، وصناديدهم، وهي غزوة بدر، فقتلهم وشردهم شر تقتيل وتشريد. وكذلك فعل بهم، ﷺ، في غيرها من الغزوات، حتى فتح عاصمتهم، أم القرى، ودخل الناس في الدين أفواجا.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ذلك فيهم ﴿فَإِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ ومصيرهم في الآخرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَهِيدٌ﴾؛ أي: مشهد أعضاءهم وجوارحهم ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك والمعاصي، فمجازيهم عليه، ففعيل هنا، بمعنى: مفعل، أو المعنى: ثم بعد رجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى شهيد؛ أي معاقب لهم على ما يفعلون في الدنيا. وعبارة «الفتوحات» هنا قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ثم هنا[١]، ليست للترتيب الزماني، بل هي لترتيب الأخبار، لا لترتيب القصص في نفسها. قال أبو البقاء: كقولك: زيد عالم، ثم هو كريم. وقال الزمخشري[٢]: فإن قلت الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟

قلتُ: ذكرت الشهادة، والمراد مقتضاها، ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قيل: ثم الله معاقب لهم على ما يفعلون، ا هـ «سمين» وإلا فهو تعالى شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة. وفي «البحر»: ويجوز[٣] أن يكون المعنى: أن الله تعالى مؤدٍّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حتى تنطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم

---

(١) الفتوحات.
(٢) الكشاف.
(٣) البحر المحيط.

وأرجلهم شاهدة عليهم، اهـ. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿ثَمَّ ٱللَّهُ﴾ بفتح الثاء؛ أي: هنالك. وقد جاء، بمعنى هذه الآية، قوله ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿رَّسُولٌ﴾ بعث إليهم بشريعة خاصة، مناسبة لأحوالهم، ليدعوهم إلى الحق والتوحيد ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فبلغهم ما أرسل به إليهم، فكذبه بعضهم وصدقه بعضهم، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين الرسول وأمته ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل؛ أي: فصل بينهم وحكم بهلاك المكذبين له، وبنجاة الرسول ومن صدقه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يظلمون في ذلك القضاء بتعذيبهم؛ لأنه بجرمهم. وقيل[1]، معناه: لكل أمة يوم القيام رسول، تنسب إليه، فإذا جاء رسولهم الموقف، ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، قُضي بينهم بإنجاء المؤمنين، وعقاب الكافرين لقوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾.

وحاصل المعنى: أنه تعالى رحمةً بعباده، وإزالةً للحجة، جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولاً، بعثه فيها وقت الحاجة إليه، ليبين لهم ما يجب عليهم من الإيمان به، وباليوم الآخر، وما ينجيهم من العقاب في ذلك اليوم، وهو العمل الصالح، الذي يكون سبباً في سعادتهم في الدارين.

وفي الآية[2]: دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى كل جماعة من الأمم السالفة رسولاً، وما أهمل أمةً قط، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

فإذا جاء رسولهم وبلغهم ما يجب عليهم معرفته من أمور دينه، لم يبق لهم حينئذٍ عذر في مخالفته، فهنالك في يوم الحساب يقضي الله تعالى بينهم بالعدل، ولا يظلمون في قضائه شيئاً مما سيحل بهم من عذاب، لا يكون ظلماً لهم؛ لأنه

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

من قبل أنفسهم، وهم الذين دنسوها بسيء الأعمال، فاستحقوا على ذلك شديد العقاب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول كفار قريش للرسول، ﷺ، ومن اتبعه من المؤمنين، مكذبين له فيما أخبرهم به، من نزول العذاب بالأعداء، والنصرة للأولياء ﴿مَتَىٰ﴾ يقع ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: هذا العذاب الموعود الذي تعدوننا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إن الله تعالى سينتقم لكم منا، وينصركم علينا؛ أي: في نحو ما جاء في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

وقد لقن الله رسوله ﷺ الجواب عن هذا السؤال بقوله: ﴿قُل﴾: أيها الرسول لمن يستعجل الوعيد، ويقول لك متى هذا الوعد، إني بشر رسول ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ فضلاً عن غيري ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي؛ شيئاً من التصرف في الضر، فأدفعه عنها، ولا شيئاً من النفع، فأجلبه لها، من غير طريق الأسباب، التي يقدر عليها غيري، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين، ولا بذل النصر والمعونة للمؤمنين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لكن ما شاء الله تعالى من ذلك العذاب الموعود، يكون متى شاء، ولا شأن لي فيه؛ لأنه خاص بمقام الربوبية دون الرسالة، التي من وظيفتها التبليغ لا التكوين وقد جاء في معنى الآية، قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أو المعنى[1]: قل لهم يا محمد: لا أملك ضراً؛ أي: دفع ضر عنها، من مرض وفقر، ولا نفعاً؛ أي: ولا جلب نفع لها، من صحة أو غنى، ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب؟.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسولهم ﴿أَجَلٌ﴾ مؤقت

---

(١) النسفي.

لعذابهم، يحل بهم عند حلوله، لا يتعداهم إلى أمة أخرى ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: وقت هلاكهم؛ أي: إذ جاء ذلك الأجل ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: شيئاً قليلاً من الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه؛ أي: فلا يملك رسولهم من دون الله تعالى، أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له، وإن قَلَّت. وقرأ ابن سيرين: ﴿آجالهم﴾ على الجمع.

﴿قُلْ﴾يا محمد، لهؤلاء الذين يستعجلون منك العذاب: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني عن حالكم، وما يمكنكم أن تفعلوه ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ وجاءكم ﴿عَذَابُهُۥ﴾ سبحانه وتعالى، الذي تستعجلون منه ﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: وقت اشتغالكم بالنوم ليلا ﴿أَوْ﴾ أتاكم ﴿نَهَارًا﴾؛ أي: وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم، أو بأمور معاشكم نهاراً. وجواب الشرط جملة قوله: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولكن بتقدير: الفاء؛ لأن الجملة اسمية؛ أي إن أتاكم عذابه.. فأيَّ نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذّابون، أعذاب الدنيا، أم عذاب الآخرة؟ وأيّاً ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة والاستفهام[1] فيه للإنكار المضمن معنى النهي، ووجه الإنكار عليهم في استعجالهم أن العذاب مكروه، تنفر منه القلوب، وتأباه الطبائع، فما المقتضي لاستعجالهم له. وقيل: إن جواب الشرط محذوف، تقديره: إن أتاكم عذابه.. تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه. وقيل: إن الجواب جملة قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾؛ أي: بعد ما وقع العذاب بكم حقيقةً، آمنتم به حين لا ينفعكم الإيمان، وتكون جملة ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ معترضة. والمعنى، على هذا القيل: إن أتاكم عذابه.. آمنتم به بعد وقوعه، حين لا ينفعكم الإيمان. ولكن الأول، أولى. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿أَثَمَّ﴾ بفتح الثاء، وهذا يناسبه تفسير الطبري، أهنالك. ودخول همزة الاستفهام الإنكاري على ثم في قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ كدخولها على الواو والفاء، وهي: لإنكار إيمانهم، حيث لا ينفع الإيمان، وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم، وتفظيع ما فعلوه في غير وقته، مع تركهم له في وقته الذي يحصل

(١) الشوكاني.

به النفع والدفع. والتقدير[1]: أأخرتم الإيمان، ثم إذا ما وقع العذاب، آمنتم به؛ أي: أأخرتم الإيمان بالله، أو بالعذاب إلى حين وقوع العذاب؛ أي: لا ينبغي هذا التأخير ولا يصح ولا يليق؛ لأن الإيمان في هذه الحالة، غير نافع وغير مقبول. وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، الذي أمر الله رسوله، ﷺ، أن يقوله لهم، وجيء بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ التي للتراخي، دلالةً على الاستبعاد. وجيء: بـ (إذا) مع زيادة ﴿مَا﴾ للتأكيد، دلالةً على تحقق وقوع الإيمان منهم، في غير وقته، ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم، والمعنى: أبعد ما وقع عذاب الله عليكم، وحل بكم سخطه وانتقامه، آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً، ولا يدفع عنكم ضراً.

والخلاصة: أي أيستعجل مجرموكم بالعذاب الذي هو أحق بالخوف منه، بدل الإيمان الذي يدفعه عنهم، ثم إذا وقع بالفعل، آمنتم به حين لا ينفع الإيمان إذ هو قد صار ضرورياً بالمشاهدة والعيان، لا تصديقاً للرسول، عليه السلام.

وقوله: ﴿الآن﴾؛ أي: هل بعد وقوع العذاب تؤمنون ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿قد كنتم به﴾؛ أي: بوقوع العذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً به واستكباراً، كلام مستأنف بتقدير: القول غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله، ﷺ، أن يقوله لهم. والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، أي: وقيل لهم: الآن حين وقوع العذاب، تؤمنون به، وقد كنتم به تستعجلون تكذيباً واستهزاءً. وقرأ طلحة والأعرج بهمزة الاستفهام، بغير مد. وقرأ الجمهور؛ ﴿الآن﴾ على الاستفهام بالمد وكذا ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ من جهة الله ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: إن هذا الذي تطلبونه، ضرر محض، عار عن النفع من كل وجه، والعاقل لا يطلب ذلك، ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب الدائم الذي لا ينقطع، والقائل لهم هذه المقالة، والتي

---

(١) الفتوحات.

قبلها، قيل: هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم، ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم؛ أي: ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم، بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد، تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً، بحيث لا فناءَ له ولا زوال. والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي للإنكار، بمعنى: النفي؛ أي: لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون، باختياركم من الظلم والكفر والفساد، في الأرض والعزم، على الثبات عليه، وعدم التحول عنه، وليس في هذا الجزاء شيء من الظلم؛ لأنه أثر لازم لما عملوا، فلم يعودوا أهلاً للكرامة وجوار المولى في جنة الخلد. وكأنه يقال لهم ذلك القول عند استغاثتهم من العذاب، وحلول النقمة.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى عنهم بعد هذه البيانات البالغة، والجوابات عن أقوالهم الباطلة، أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب، فقال؛ ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؛ أي: ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾؛ نعم، وأقسم لكم بربي ﴿إنه لحق﴾؛ أي: إن العذاب الذي أعدكم به حق، لا شك فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي؛ بفائتين من العذاب؛ لأن من عجز عن شيء فقد فاته، ويقال: أعجزه الأمر: إذا فاته.

والمعنى[1]: أي ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدهم به في الدنيا والآخرة، أحق أنه سيقع جزاء على ما كنا نكسبه من المعاصي في الدنيا، أم هو إرهاب وتخويف فحسب، قل لهم يا محمد: نعم أقسم لكم بربي، إنه لحق واقع ماله من دافع، وما أنتم بواجدي من يوقع العذاب بكم، عاجزاً عن إدراككم وإيقاعه بكم. وإي بكسر الهمزة وسكون الياء، كلمة يجاب بها عن كلام سبق بمعنى نعم، وإي تستعمل في القسم خاصة، كما تستعمل، هل بمعنى، قد فيه خاصة.

---

(١) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنه إن ينزل بكم عذابه، لستم بفائتيه سبحانه بهرب أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه إذا أراد فعل ذلك بكم، فاتقوه في أنفسكم أن يحل بكم غضبه. وقرأ[1] الأعمش: ﴿إنه الحق﴾. قال الزمخشري: وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض، بأنه باطل، وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل، أو أهو الذي سميتموه الحق، انتهى.

ثم ذكر ما في هذا اليوم من الأهوال فقال: ﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ وكفرت بالله ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما في الأرض من أنواع الملك، وصنوف النعم، وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب الأليم الذي تعانيه ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾؛ أي لعادت وأنقذت بما في الأرض نفسها، من عذاب الله تعالى، ولم تدخر منه شيئاً ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾؛ أي: وأسر أولئك الذين ظلموا غمهم وأسفهم على ما فعلوا من الظلم ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ بأبصارهم؛ أي: حين معاينة العذاب بأبصارهم إذا برزت لهم نار جهنم، وأيقنوا أنهم مواقعوها لا مصرف لهم عنها، فما مثلهم إلا مثل من يقدم للصلب، يثقله ما نزل به من الخطب الجلل، ويغلب عليه الحزن الفادح، فيخرسه، ولا يستطيع أن ينطق ببنت شفة، ويبقى جامداً مبهوتاً لا حراك به.

ثم بين أنه لا ظلم اليوم فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين الظالمين وغيرهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن الظالمين ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما فعل بهم من العذاب؛ أي: وقضى الله سبحانه وتعالى، وحكم بين الظالمين وبين خصومهم بالحق والعدل، وخصومهم هم، الرسل والمؤمنون بهم، وكذلك من أضلوهم وظلموهم، من المرؤوسين، والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر، ويصدونهم عن الإيمان.

وجاء في معنى هذه الآية قوله في سورة سبأ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾،

---

(١) البحر المحيط.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم أتبع ما تقدم بالدليل على قدرته، على إنفاذ حكمه وإنجاز وعده. وكون الظالمين لا يعجزونه ولا يستطيعون منه مهرباً، فقال: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ لِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿ما في السموات والأرض﴾؛ أي: جميع ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً؛ أي: إنه تعالى مالك السموات والأرض وكل من فيهما من العقلاء وغيرهم فليس للكافرين به شيء يملكونه، فيفتدون به أنفسهم من ذلك العذاب، بل الأشياء كلها لله، الذي إليه عقابهم جزاء ما كسبت أيديهم. وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه، تنبيه للغافلين وإيقاظ للذاهلين.

والخلاصة: فليتذكر من نسي، وليتنبه من غفل، وليعلم من جهل، أن الله وحده جميع ما في العوالم العلوية والعوالم الأرضية، يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء في يوم البعث والجزاء.

ثم أكد ما سلف بقوله ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن جميع ما وعد الله به ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: ثابت لا بد أن يقع ووعده تعالى مطابق للواقع لا شك فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فهم غافلون عن حقيقة ذلك؛ أي: لا يعلمون ما فيه صلاحهم فيعملون به، وما فيه فسادهم فيجتنبونه؛ أي: إن كل ما وعد به على ألسنة رسله حق لا ريب فيه؛ لأنه وعد المالك القادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، ولكن أكثر الكفار منكري البعث والجزاء، لا يعلمون أمر الآخرة، لغفلتهم عنها، وقصور أنظارهم عن الوصول إلى ما يكون فيها.

ثم أقام الدليل على قدرته على ذلك فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت للجزاء، فترون ما وعد به؛ أي: إنه تعالى هو المحيي المميت، لا يتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء، والإماتة ثم إليه سبحانه وتعالى لا إلى غيره ترجعون؛ حين يحييكم بعد موتكم؛ ويحشركم إليه

للحساب والجزاء بأعمالكم، فيجازي كلا بما يستحقه، ويتفضل على من يشاء من عباده.

وقرأ[1] الحسن بخلاف عنه وعيسى بن عمر: ﴿يرجعون﴾ بالياء على الغيبة. وقرأ الجمهور: بالتاء على الخطاب.

الإعراب

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية، (ما) نافية ﴿كَانَ هَٰذَا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: بدل من هذا ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾: أن حرف نصب. ﴿يُفْتَرَىٰ﴾: فعل مضارع، مغير الصيغة، منصوب بـ ﴿أَنَ﴾ ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان هذا القرآن افتراءً من دون الله؛ أي: مفترى من دونه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾. (الواو) عاطفة. (لكن): حرف استدراك. ﴿تَصْدِيقَ﴾ معطوف على خبر ﴿كَانَ﴾ أو خبرلـ ﴿كَانَ﴾ المحذوفة، تقديره: ولكن كان تصديق الذي، وجملة كان المحذوفة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى، وهو مضاف ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوف على ﴿تَصْدِيقَ﴾ ﴿لَا رَيْبَ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من الكتاب، تقديره: حالة كون الكتاب منتفياً عنه الريب، وصح مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأنه مفعول في المعنى، أو جملة ﴿لَا﴾ مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور، حال ثانية من الكتاب، تقديره: حالة كون الكتاب، كائناً من رب العالمين.

---

(١) البحر المحيط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿افْتَرَاهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت، قلت: الفاء: رابطة الجواب بالشرط المحذوف، تقديره؛ إن كان الأمر كما تقولون.. ﴿فَأْتُوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم على كونه جواباً للشرط المحذوف ﴿بِسُورَةٍ﴾: متعلق به ﴿مِّثْلِهِ﴾: صفة لـ ﴿سورة﴾ ولكنه في تأويل مشتق، تقديره: بسورة مماثلة إياه، ومثل من الأسماء المتوغلة فصح كونه صفة لنكرة ﴿وَادْعُوا مَنِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿فَأْتُوا﴾ ﴿اسْتَطَعْتُم﴾ فعل وفاعل ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة، تقديره: من استطعتم دعاءه ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾، فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإن الشرطية ﴿صَادِقِينَ﴾ خبره، وجواب الشرط معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين في أني افتريته فأتوا بسورة مثله؛ لأنكم عربيون فصحاء مثلي، وجملة الشرط مستأنفة.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي ﴿كَذَّبُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق به والجملة مستأنفة ﴿لَمْ يُحِيطُوا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بلم ﴿بِعِلْمِهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لما يأتهم﴾: فعل ومفعول ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة الصلة.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: تكذيباً مثل تكذيب قومك إياك ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: جار ومجرور

صلة الموصول. ﴿فَانظُرْ﴾ الفاء، عاطفة ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿كذب﴾؛ لأنها في قوة ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فأهلكناهم﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها. ﴿كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؛ فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول لـ﴿انظر﴾ معلق عنها باسم الاستفهام.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع ﴿بِهِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾: (الواو): استئنافية (إن): حرف شرط ﴿كَذَّبُوكَ﴾؛ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَقُل﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿قل﴾ فعل أمر في محل الجزم على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿لِّي عَمَلِي﴾، إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت، قلت: ﴿لِّي﴾ خبر مقدم ﴿عَمَلِي﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول محكي ﴿وَلَكُمْ﴾، خبر مقدم. ﴿عَمَلُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لِّي عَمَلِي﴾ ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول لـ ﴿قل﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بريئون﴾ ﴿أَعْمَلُ﴾؛ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما أعمله. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على ﴿أنتم بريئون﴾ ﴿مِمَّا﴾ متعلق بـ ﴿بَرِيءٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾، صلة لـ ﴿ما﴾ أو

صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما تعملونه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والعائد ضمير الفاعل وجمعه نظراً لمعنى من ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أيستمعون إليك ﴿أنت﴾: مبتدأ. ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجوابها محذوف، تقديره: ولو كانوا لا يعقلون، فأنت لا تسمعهم، وجملة لو معطوفة على محذوف، تقديره: أأنت تسمع الصم إن عقلوا، بل ولو كانوا لا يعقلون، فأنت لا تسمعهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَن﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾: صلته، وأفرد العائد هنا، نظراً إلى لفظ ﴿مَن﴾ والجملة معطوفة على جملة، قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾. ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة: داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أينظرون إليك فأنت ﴿أنت﴾: مبتدأ. وجملة ﴿تَهْدِي الْعُمْيَ﴾: خبره والجملة الاسمية معطوفة على المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿وَلَوْ﴾: الواو: عاطفة ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله، تقديره: ولو كانوا لا يبصرون، فأنت تهدي العمى، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على محذوف، تقديره: أأنت تهدي العمي إن أبصروا، بل، ولو كانوا لا يبصرون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾: فعل ومفعولان؛ أي: لا ينقص الناس شيئاً من أعمالهم، أو شيئاً منصوب على المصدرية؛ أي: شيئاً من الظلم قليلاً أو كثيراً، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجملة ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾: ناصب واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ قدم عليه لرعاية الفاصلة. وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكنّ﴾ وجملة ﴿لكنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿يوم﴾، منصوب باذكر محذوفاً. والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾. ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً، تقديره: كأنهم ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿سَاعَةً﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿يَلْبَثُوٓا۟﴾ ﴿مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: صفة لساعة وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ تقديره: واذكر يوم يحشرهم، حال كونهم مشبهين من لم يلبث إلا ساعة من النهار ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، حال ثانية من ضمير ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ أو مستأنفة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مُهْتَدِينَ﴾: خبره والجملة معطوفة على جملة خسر.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾.

﴿وَإِمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إن﴾؛ حرف شرط ﴿ما﴾؛ زائدة ﴿نرين﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، مبني

على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. والكاف مفعول أول لأرى ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾: مفعول ثانٍ، ومضاف إليه؛ لأن رأى هنا بصرية، تعدت بالهمزة إلى مفعولين ﴿نَعِدُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة صلة الموصول.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: فعل مضارع متصل بنون التوكيد في محل الجزم معطوف على ﴿نرين﴾. والكاف: مفعول به ﴿فَإِلَيْنَا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إلينا﴾: خبر مقدم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم ﴿بإن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾؛ مبتدأ وخبر. ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه خبر قدم ﴿رَّسُولٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بالجواب الآتي ﴿جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿قُضِىَ﴾، فعل ماض مغير الصيغة ﴿بَيْنَهُمْ﴾: نائب فاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: متعلق بـ ﴿قضي﴾ ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير بينهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ...﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام، في محل النصب على الظرفية الزمانية خبر مقدم. ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فعل

ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم صادقين متى هذا الوعد، والجملة الشرطية في محل النصب مقول القول.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى . . .﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية ﴿أَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لِنَفْسِى﴾: متعلق به. ﴿ضَرًّا﴾: مفعول به ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول القول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء المنقطع ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: إلا ما شاءه الله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: خبر مقدم ﴿أَجَلٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها ﴿فَلَا﴾ الفاء: رابطة ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿سَاعَةً﴾ ظرف متعلق به، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الآن﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، بمعنى: أخبروني، تتعدى إلى مفعولين، الأول منهما: محذوف تقديره: عن عذاب الله، والمفعول الثاني: الجملة الاستفهامية الآتية، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾: فعل

ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها.
﴿بَيَٰتًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بأتى ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ معطوف عليه ﴿مَّاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل الرفع مبتدأ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾: فعل مضارع. ﴿مِنْهُ﴾، جار ومجرور حال من مفعول ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ المحذوف، تقديره أيَّ شيء يستعجله المجرمون حالة كونه كائناً من عذاب الله ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: فاعل وجملة ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ والرابط الضمير المحذوف في ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، ولكنها على تقدير: الفاء الرابطة؛ لأن الجملة اسمية، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب، سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿أرأيتم﴾ وقيل: إن جواب الشرط محذوف، تقديره: إن أتاكم عذابه، تندموا، وجملة ﴿إنْ﴾ معترضة كما مر في مبحث التفسير.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿أَثُمَّ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، تقديره: أأخرتم الإيمان، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿ثم﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل. ﴿مَا﴾ زائدة ﴿وَقَعَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على العذاب، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾. ﴿به﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾ وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿الآن﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: الآن تؤمنون، والجملة المحذوفة مقول لقول محذوف، تقديره: وقيل لهم: الآن تؤمنون، والقول المحذوف مستأنف ﴿وَقَدْ كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وجملة ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ المحذوف.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق به. وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾ صلة الموصول ﴿ذُوقُوا...﴾ إلى آخر الآية، نائب فاعل محكي لـ ﴿قِيلَ﴾ وجملة القول معطوفة على جملة القول المقدر عند قوله: الآن، وإن شئت قلت: ﴿ذُوقُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾: مفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُجْزَوْنَ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَكْسِبُونَ﴾ خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تكسبونه.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول؛ لأن استنبأ هنا، بمعنى: سأل، يتعدى إلى مفعولين ﴿أحقٌّ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري. ﴿حق﴾ مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: فاعل سد مسد الخبر، أو ﴿هُوَ﴾ مبتدأ مؤخر، و ﴿حق﴾: خبر مقدم، والجملة في محل النصب مفعول ثانٍ لاستنبأ معلق عنه بالاستفهام، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿إِي﴾ حرف جواب بمعنى: نعم، خاصة بالقسم ﴿وَرَبِّي﴾ الواو: حرف جر وقسم ﴿ربي﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور، متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بربي ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿لَحَقٌّ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة. ﴿ما﴾ حجازية ﴿أَنتُمْ﴾: في محل الرفع اسمها ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: خبرها وجملة ﴿ما﴾ الحجازية في محل النصب معطوفة على جملة القسم على كونها مقولا لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾: (الواو): استئنافية ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم ﴿أنّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لِكُلِّ نَفۡسٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم ﴿لأن﴾. وجملة ﴿ظَلَمَتۡ﴾: صفة لـ ﴿نَفۡسٍ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة في محل النصب اسم ﴿أنّ﴾ مؤخر. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جار ومجرور صلة الموصول، وجملة ﴿أنّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على كونه، فاعل فعل محذوف، تقديره: ولو ثبت كون ما في الأرض لكل نفس ظلمت ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿افتدت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على النفس. ﴿به﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون، الظرف متعلق بـ ﴿أسروا﴾ ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾. ﴿وَقُضِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بَيۡنَهُم﴾ ظرف متعلق به ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: جار ومجرور نائب فاعل لـ﴿وَقُضِيَ﴾ والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿رَأَوُاْ﴾. ﴿وَهُمۡ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿بَيۡنَهُم﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لِلَّهِ﴾ خبر مقدم لـ﴿إنَّ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿مَا﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾: معطوف على ﴿السموات﴾ والتقدير: ألا إن ما في السموات والأرض مملوك لله سبحانه وتعالى، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿حَقّٞ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: حرف نصب واستدراك ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ اسمها. وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾: خبر ﴿لكنَّ﴾ وجملة ﴿لكنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يُحْيِۦ﴾: خبره والجملة مستأنفة ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوف على ﴿يُحْيِۦ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية معطوف على الجملة الاسمية أعني: جملة ﴿هُوَ يُحْيِۦ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُفترى: فعل مبني للمجهول من افترى الخماسي، من باب افتعل، والقائم مقام الفاعل ضمير عائد إلى القرآن، والافتراء، مصدره، وهو اختلاق الكذب من عند نفسه.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾: جمع أصم، كالحمر جمع الأحمر، وهو من به صمم، وكذلك العمي جمع الأعمى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾: حقيقة[1] الحشر، جمع الناس في الموقف، وحقيقة البعث إحياؤهم من القبور، والتعارف يقع في الحشر الذي هو الاجتماع؛ أي: في ابتدائه، وينقطع في أثنائه، لشدة الأهوال، ويشغل كل بنفسه، وأما البعث فلا تعارف فيه، لعدم الاجتماع الذي هو لازمه.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: متى هذا العذاب الموعود الذي تعدنا به يا محمد يقولون ذلك استعجالاً للعذاب. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ والأجل[2]: يطلق على مدة العمر، وعلى آخر جزء منه، والمراد هنا: الثاني، كما في التفاسير، ا هـ شيخنا. وفي «أبي السعود»: إن جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان.. فمعنى مجيئه ظاهر، وإن أريد به ما امتد إليه من الزمان.. فمجيئه عبارة عن انقضائه، إذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه، ا هـ.

---

(١) الفتوحات.
(٢) الفتوحات.

﴿الآن﴾ بهمزتين الأولى: همزة الاستفهام، والثانية: همزة أل المعرفة، وإذا اجتمع هاتان الهمزتان.. وجب في الثانية أحد أمرين: تسهيلها من غير ألف بينها وبين الأولى، وإبدالها مدًّا بقدر ثلاث ألفات على حد قول ابن مالك:

وَأَيْـمُـنُ هَـمْـزِ أَلْ كَـذَا ويُـبْـدَلُ مَـدّاً فِـيْ ٱلاسْـتِـفْـهَـامِ أَوْ يُـسَـهَّـلُ

وقد وقع في القرآن من هذا القبيل ستة مواضع، اثنان في الأنعام وهما ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ مرتين، وثلاثة في هذه السورة، لفظ ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ هنا، وفيما سيأتي، ولفظ ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ وواحد في النمل ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾، فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق الهمزتين، بل يجب أحد الأمرين اللذين قد عرفتهما، ا هـ شيخنا.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ وأصل يستنبئونك[1]: أن يتعدى إلى واحد بنفسه، وإلى الآخر بحرف الجر، تقول: استنبأت زيداً عن عمرو، أي: طلبت منه أن يخبرني عن عمرو، فاستفعل هنا للطلب، والمفعول الأول كاف الخطاب، والمفعول الثاني، الجملة من قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ على سبيل التعليق، كما مر في مبحث الإعراب. ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ و ﴿إِى﴾ من حروف الجواب بمعنى: نعم، لكن لا يجاب بها إلا مع القسم خاصة، ذكره: أبو السعود.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ وإسرار الحديث؛ خفض الصوت به، وإسرار الشيء: إخفاؤه وكتمانه. وفي «السمين»: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ قيل: أسر من الأضداد، يستعمل بمعنى أظهر، ويستعمل بمعنى: أخفى، وهو المشهور في اللغة كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهو في الآية يحتمل الوجهين، وقيل: إنه ماض على بابه قد وقع، وقيل: بل هو بمعنى: المستقبل ا هـ.

والندم والندامة[2]: ما يجده الإنسان في نفسه من الألم والحسرة، عقب كل فعل يظهر له ضرره، وقد يجهر به بالكلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أو يخفيه ويكتمه حين لا يجد فائدةً من إعلانه، أو اتقاءً للشماتة أو

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الإهانة. وقيل: معنى أسروا الندامة: وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها، ومنه قول كثيّر:

فَأَسْرَرْتُ ٱلنَّدَامَةَ يَوْمَ نَادَىٰ بِرَدِّ جِمَالِ غَاضِرَةَ ٱلْمُنَادِيْ

ذكره «الشوكاني». ﴿بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ والبيات بمعنى: التبييت اسم مصدر، كالسلام بمعنى التسليم، وهو منتصب على الظرفية، وكذلك نهاراً؛ أي: وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، ا هـ منه ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ القسط العدل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾؛ لأنه كناية عما سبقه من التوراة والإنجيل، فإنهما بشرتا به.

ومنها: إطلاق المصدر بمعنى اسم الفاعل في قوله: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأنه شبه الكافرين بمن ليس له حاسة السمع، ولا حاسة البصر، بجامع عدم الاهتداء في كل إلى المقصود.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ و﴿مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وفيه أيضاً جناس الاشتقاق بين: ﴿عَمَلِي﴾ و ﴿أَعۡمَلُ﴾، وكذا فيما بعده.

ومنها: الطباق بين ﴿ضرا﴾ ﴿ونفعا﴾ في قوله: ﴿ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًاۚ﴾ وبين ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿نَهَارًا﴾ وبين ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ و﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ والمقصود من[1] هذا التشبيه، كما قاله أبو السعود: بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة إليه تعالى، ولو بعد دهر طويل، وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم له بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ونحو ذلك، أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور، فإن اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير فيكون قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بياناً وتقريراً له؛ لأن التعارف يبعد مع طول العهد، والمراد بالساعة: الزمن القليل، فإنها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار؛ لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ لأن الاستعجال كناية عن التكذيب. قال الزمخشري: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: تكذبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار.

قلتُ: فجعله من باب الكناية؛ لأنها دلالة الشيء بلازمه، نحو هو طويل النجاد، كنى به عن طول قامته؛ لأن طول نجاده لازم لطول قامته، وهو باب بليغ، ا هـ «سمين».

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ
لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ
﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ
قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن
فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ
هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية[١] لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر الأدلة على الألوهية والوحدانية والقدرة.. ذكر الدلائل الدالة على صحة النبوة والطريق المؤدي إليها، وهو القرآن المتصف بهذه الأوصاف الشريفة.

(١) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: لما ذكر الله سبحانه وتعالى الأدلة على أسس الدين الثلاثة، وهي الوحدانية والرسالة والبعث.. أردف ذلك بذكر التشريع العملي، وهو القرآن الكريم، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع في أمور أربعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه[1] الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية، وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم.. بين فساد شرائعهم وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستند في ذلك إلى وحي.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام الأدلة العقلية على إثبات الوحي والرسالة.. أردف ذلك بذكر فعل من أفعالهم، لا ينكرونه ولا يجادلون في وجوده، وهو يثبت صحة وجودهما، ذاك أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حق الله تعالى وحده، وأن الأصل في الأرزاق، وسائر الأشياء التي ينتفع بها الإباحة فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعضها، إما بأمره تعالى بوساطة رسله، وأنتم تنكرونه وتزعمون أنه محال، وإما بالافتراء على الله تعالى، وهو يلزمكم بإنكار الأول، إذ لا واسطة بينهما.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر جملة من أحوال الكفار ومذاهبهم و الرد عليهم ومحاورة الرسول ﷺ لهم وذكر فضله تعالى على الناس، وأن أكثرهم لا يشكره على فضله.. ذكر تعالى اطلاعه على أحوالهم، وحال الرسول معهم في مجاهدته لهم، وتلاوة القرآن عليهم، وأنه تعالى عالم بجميع أعمالهم، واستطرد من ذلك إلى ذكر أولياء الله تعالى، ليظهر التفاوت بين الفريقين، فريق الشيطان، وفريق الرحمن.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

بين في سابق الآيات، أن فضله على عباده كثير، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته وترك معصيته، وأن القليل منهم هم الشاكرون.. أردف ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم، ما دق منهم وما عظم، في جميع ملكوت السموات والأرض، حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين لعباده سعة علمه ومراقبته لعباده وإحصاء أعمالهم وجزاءهم عليها وذكرهم بما يجب عليهم، من شكره على تفضله عليهم.. ذكر هنا حال الشاكرين المتقين، الذين لهم حسن الجزاء يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا...﴾الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين لرسوله ﷺ صفة أوليائه، وما بشرهم به، ووعدهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا إيماء إلى الوعد بنصره ونصر من آمن به، من أوليائه وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم، وكان أعداؤهم يغترون بقوتهم في مكة بكثرتهم، وكانوا لغرورهم بها يكذبون بوعد الله، وكان ذلك مما يحزنه كما قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.. أردف ذلك بتسليته له ﷺ على ما يلقاه من أذى أعدائه، وتبشيره بالنصر والعزة والوعيد لأوليائه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عنده تعالى.. أردف ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم، وهو زعمهم أنه تعالى جده اتخذ ولداً، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

ما رأيت أحداً ذكر سبباً لنزول هذه الآيات، ولكن قال أبو حيان في «البحر»: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ. . .﴾ الآية، نزل في قريش الذين سألوا الرسول ﷺ: أحق هو؟ فالناس هم كفار قريش.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قيل: أراد بالناس قريشاً، وقيل: هو على العموم، وهو الأصح، وهو اختيار الطبري؛ أي: قل يا محمد، لكفار قريش، أو لجميع الكفار: يا أيها الناس ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من المواعظ الحسنة التي تصلح أخلاقكم وأعمالكم، كالطبيب الذي ينهى المريض عما يضره. ومن في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ متعلقة بالفعل، أي: قد جاءتكم من ربكم موعظة فتكون ابتدائية أو متعلقة بمحذوف صفة لـ ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ والوعظ[1]: الزجر المقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب. وقيل: الموعظة: ما يدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة، والقرآن؛ داع إلى كل خير وصلاح بهذا الطريق ﴿و﴾ جاءكم ﴿شفاء﴾ ودواء ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: وجاءكم كتاب شاف لما في القلوب، من أمراض الجهل؛ وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن وأمراض القلب هي الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة، فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها؛ لأن فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير، فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية وإنما خص الصدر بالذكر؛ لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه، ذكره في «الخازن».

﴿و﴾ جاءكم كتاب ﴿هدى﴾؛ أي: هاد من الضلالة إلى الصراط المستقيم

---

(١) الخازن.

﴿و﴾ كتاب هو ﴿رحمة للمؤمنين﴾ به؛ أي: نعمة من الله على المؤمنين خصوا بالذكر؛ لأنهم المنتفعون به دون غيرهم.

والمعنى: قد[1] جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية، الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، والمرغبة في المحاسن، والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك، وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث أنزل عليهم، فنجوا به من ظلمة الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير فيها للتعظيم.

والخلاصة[2]: أن الآية الكريمة، أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر في أربعة أمور:

الأول: الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب بذكر ما يرق له القلب فيبعثه على الفعل أو الترك وقد جاء في معنى الآية قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

الثاني: الشفاء لما في القلوب، من أدواء الشرك والنفاق، وسائر الأمراض التي يشعر من أحبها بضيق الصدر، كالشك في الإيمان، والبغي والعدوان وحب الظلم وبغض الحق والخير.

الثالث: الهدى إلى طريق الحق واليقين، والبعد من الضلال في الاعتقاد والعمل.

الرابع: الرحمة للمؤمنين، وهي ما تثمر لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم، ومن آثارها بذل المعروف، وإغاثة الملهوف، وكف الظلم ومنع التعدي والبغي.

وحاصل ذلك: أن موعظة القرآن وشفاءه لما في الصدور، من أمراض

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

الكفر والنفاق، وجميع الرذائل، وهداه إلى الحق والفضائل.. موجهات إلى أمة الدعوة، وهم جميع الناس، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث، من الرحمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بها، ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبلغ المؤمنين، بأنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان، وبالرحمة الخاصة بهم، الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ والباء[1] في ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ متعلقة بمحذوف، استغنى عن ذكره، لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والفضل هنا بمعنى: الإفضال، ويكون معنى الآية على هذا: يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم، وشفاء لما في الصدور، وهو القرآن، بإفضال الله عليكم وإحسانه لكم، ورحمته بكم وإرادته الخير لكم ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل والرحمة ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا بما جمعوا من حطام الدنيا، وقيل: الباء في ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ متعلقة بفعل يفسره قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ والتقدير: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل، والرحمة بالفرح دونما عداهما من فوائد الدنيا.

قال الواحدي: الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ زائدة، كقول الشاعر:

فَإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِيْ

فالفاء في قوله: فاجزعي زائدة. وقيل: الفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء.. فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما. والفرح: لذة في القلب بإدراك المحبوب والمشتهي، يقال: فرحت بكذا، إذا أدركت المأمول، ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح في اللذات البدنية الدنيوية، واستعمل هنا، فيما يرغب فيه من الخيرات.

ومعنى الآية: ليفرح المؤمنون بفضل الله وبرحمته؛ أي: بما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه، ذكره الخازن.

أي: قل[2] لهم ليفرحوا بفضل الله وبرحمته؛ أي: إن كان شيء في الدنيا

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

يستحق أن يفرح به.. فهو فضل الله ورحمته. روى ابن مردويه وأبو الشيخ، عن أنس مرفوعاً: «فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله». وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد: فضل الله الإيمان ورحمته القرآن.

﴿هُوَ﴾؛ أي: المذكور من فضل الله ورحمته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا؛ لأن الآخرة أبقى؛ أي: أن الفرح بهما أفضل وأنفع من الفرح بما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام والحرث والخيل المسومة وسائر خيرات الدنيا؛ لأنه هو سبب السعادة في الدارين، وتلك سبب السعادة في الدنيا الزائلة فحسب، فقد نال المسلمون في العصور الأولى بسببه الملك الواسع، والمال الكثير، مع الصلاح والإصلاح مما لم يتسن لغيرهم من قبل، ولا من بعد. وبعد أن جعلوا ديدنهم جمع المال ومتاع الدنيا، ووجهوا همتهم إليه وتركوا هداية القرآن في إنفاقه والشكر عليه، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم.

فإن قلت: الأمر بالفرح في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ ينافي النهي عنه في قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

قلت: لا منافاة بينهما، لاختلاف المتعلق، فالمأمور به هنا الفرح بفضل الله وبرحمته، والمنهي هناك، الفرح بجمع الأموال لرئاسة الدنيا وإرادة العلو بها والفساد والأشر، ولذلك جاء بعده ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وقبله ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

وقرأ[1] السبعة والجمهور: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ بالياء التحتية أمراً للغائب. وقرأ يعقوب من العشرة، وأبي ويزيد بن القعقاع والأعمش وعمرو بن فائد وكثير من السلف: ﴿فلتفرحوا﴾ بالتاء الفوقية خطاباً لأصحاب محمد، والمعنى على هذا فلتفرحوا بذلك يا أصحاب محمد، هو خير مما يجمع الكفار. وفي مصحف أبي ﴿فبذلك فافرحوا﴾ وهذه هي اللغة الكثيرة الشهيرة في أمر المخاطب، وأما فليفرحوا بالياء، فهي لغة قليلة. وقرأ أبو التياح والحسن ﴿فليفرحوا﴾ بكسر

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

اللام، وقد تقرر في العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها. وقرأ الجمهور بالمثناة التحتية في ﴿يَجْمَعُونَ﴾ كما قرؤوا في ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ بالياء. وروي عن ابن عامر أنه قرأ: بالفوقية في ﴿يجمعون﴾ وبالتحتية في ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني أيها الجاحدون للوحي والرسالة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾؛ أي: أهذا الذي أفاضه الله عليكم من فضله وإحسانه ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ تعيشون به من نبات وحيوان ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الرزق ﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾؛ أي: فجعلتم بعضه حراماً، وبعضه حلالاً، وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ إلخ، وبقوله في سورة المائدة: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾. ويحتمل كون ما في ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ موصولة بمعنى الذي، والعائد محذوف؛ أي: ما أنزله الله، وهي في محل نصب مفعول أول، لـ﴿أرأيتم﴾؛ لأنه بمعنى أخبروني، والثاني: هو الجملة من قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ والرابط لهذه الجملة بالمفعول الأول محذوف، تقديره: آلله أذن لكم فيه، واعترض على هذا، بأن قوله: قل، يمنع من وقوع الجملة بعده مفعولاً ثانياً وأجيب بأنه كرر توكيداً للأمر بالاستخبار. وقيل: إن ﴿مَا﴾ استفهامية في محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾. وقل في قوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تكرير للتوكيد، والرابط محذوف ومجموع المبتدأ والخبر في محل النصب بـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ والمعنى: أخبروني، أهذا الذي أنزل الله إليكم من رزق، فجعلتم منه حراماً كالبحيرة، وحلالاً كالميتة، آلله أذن لكم في تحليله وتحريمه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وتكذبون في نسبة ذلك إليه؛ أي: أخبروني آلله أمركم بذلك الحكم، فأنتم ممتثلون بأمره تعالى، أم لم يأذن لكم في ذلك، بل أنتم كاذبون على الله في ادعائكم أن الله أمرنا بذلك الحكم.

ومعنى[1] إنزال الرزق: كون المطر ينزل من جهة العلو، وكذلك يقضي

---

(١) الشوكاني.

الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ، من ذكره سبحانه وتعالى لكل شيء فيه.

والظاهر[1]: أن أم هنا متصلة، كما قال السفاقسيّ، أي: آلله أذن لكم، أم تكذبون عليه في نسبة الإذن إليه، ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى، بل وهمزة التقرير لافترائهم بمعنى، بل أتفترون على الله ذلك، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء.

وفي هذه الآية الشريفة[2]: ما يصك مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته، بالتحليل والتحريم، والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله تعالى، ولا يفهمونها، ولا يدرون ما هي. ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم، وجعلوه شارعاً مستقلاً ما عمل به من الكتاب والسنة، فهو المعمول به عندهم، وما لم يبلغه ولم يفهمه حق فهمه أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه، فهو في حكم المنسوخ عندهم، المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلدوه متعبداً بهذه الشريعة، كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها، كما هم محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه، وأدى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجراً واحداً مع الخطأ. إنما الشأن في جعلهم لرأيه، الذي أخطأ فيه شريعةً مستقلة ودليلاً معمولاً به، وقد أخطؤوا في هذا خطأً بيناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً فإن الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم إنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداءً به، وما جاء به المقلدة في تقوم هذا الباطل فهو من الجهل العاطل، اللهم ارزقنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل، وارزقنا من الإنصاف ما نظفر به بما هو الحق عندك، يا واهب الخير والعطايا، ومانح التوفيق والهدايا.

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

وحاصل المعنى: أي[1] قل لهم: إن حق التحريم والتحليل لا يكون إلا لله؛ فهل الله هو الذي أذن لكم بذلك، بوحي من عنده؟ أم أنتم على الله تفترون بزعمكم أنه حرم ما حرمتم وحلل ما حللتم.

والخلاصة: أنه لا مندوحة لكم من الاعتراف بأحد الأمرين:

إما دعوى الإذن من الله لكم بالتحريم والتحليل، وذلك اعتراف بالوحي، وأنتم تنكرونه وتزعمون أنه محال.

وإما الافتراء على الله، وهو الذي يلزمكم إذا أنكرتم الأول.

وبعد أن سجل سبحانه وتعالى عليهم جريمة افتراء الكذب على الله.. قفى عليه بالوعيد مع الإيماء إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ ويختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ عند لقائهم ربهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الذي تجزى فيه كل نفس ما عملت؛ أي[2]: أي شيء ظنهم في ذلك اليوم، أيظنون أنهم يتركون بلا عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله، وتعمده فيما هو خاص بربوبيته، وعلى نزاع له فيها وشرك به، كما قال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾.

أي: أيُّ[3] شيءٍ ظنُّهم يومَ عرضِ الأفعال والأقوال، أيحسبون أنهم لا يسألون عن افترائهم، أو لا يجازون عليه، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون، كلا إنهم لفي أشد العذاب؛ لأن معصيتهم أشد المعاصي، والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع المضمن بمعنى الإنكار؛ أي: لا ينبغي هذا الحسبان ولا صحة له بوجه من الوجوه. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿وما ظن﴾ جعله فعلاً ماضياً؛ أي: أي ظن ظن الذين يفترون، فـ ﴿مَا﴾: في موضع نصب على المصدر و ﴿ما﴾ الاستفهامية، قد تنوب عن المصدر، تقول: ما تضرب زيداً، تريد: أيَّ ضربٍ

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.

تضرب زيداً، ذكره في «البحر». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ ومن ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وإمهالهم على سوء أفعالهم.

أو المعنى[1]: أن الله سبحانه وتعالى لذو فضل على الناس، في كل ما خلقه لهم من الرزق، وفي كل ما شرع لهم من الدين، ومن ذلك أن جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة، وأن جعل حق التحريم والتحليل له وحده، كيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده، كمن اتخذوه من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، تعالى، وهو سبحانه لم يحرم عليهم إلا ما كان ضاراً بهم، وحصر محرمات الطعام في أمور معينة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم كما يجب، فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى، ولا يقبلون دعوة أنبياء الله تعالى، ولا ينتفعون باستماع كتب الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ومن ثم تراهم يحرمون ما لم يحرمه الله تعالى، ويكفرون نعمه فيغالون في الزهد، وترك الزينة والطيبات من الرزق، أو يسرفون في الأكل والشرب والزينة، ابتغاء الشهرة والتكبر على الناس، مع أن الإسلام يأمر بالاعتدال، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

أخرج أحمد، عن أبي الأحوص، عن أبيه قال: أتيت رسول الله، ﷺ، وأنا رثّ الهيئة، فقال: «هل لك مال»؟ قلت: نعم، قال: «من أي المال»؟ قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: «إذا آتاك الله مالاً.. فلير أثر نعمته عليك وكرامته».

وأخرج البخاري والطبراني عن زهير بن أبي علقمة مرفوعا: «إذا آتاك الله مالاً فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس».

---

(١) المراغي.

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي في أمر من أمورك الهامة، خاصة كانت أو عامة مما تعالج بها شؤون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، إنذاراً لها وتبشيراً وتعليماً وعملاً ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾؛ أي: من أجل ذلك الشأن ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾؛ أي: قرآنا أنزل عليك تعبداً به، أو تبليغاً له. فالضمير[1] في ﴿مِنْهُ﴾ إما عائد إلى الشأن، وعلى هذا فمن تعليلية؛ أي: وما تتلو قرآناً من أجل الشأن الذي نزل بك وحدث لكون الذي تقرؤه نزل في شأنه، أو عائد إلى الله وعلى هذا فمن ابتدائية؛ أي: وما تتلو قرآناً مبتدأً من الله، تعالى، ونازلاً من عنده و ﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ زائدة على كلا الوجهين، فالحاصل أن الثانية زائدة ولا بد، والأولى إما تعليلية، أو ابتدائية على حسب الوجهين اللذين ذكرنا. وفي التعبير[2] بالشأن وهو الأمر ذو البال، دلالة على أن جميع أموره، ﷺ، كانت عظيمة، حتى ما كان منها من مجرى العادات لأنه، ﷺ، كان فيها قدوةً صالحةً.

وبعد أن خاطب رسوله ﷺ، انتقل إلى خطاب الأمة كلها في شؤونها وأعمالها، فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها الرسول وأيتها الأمة ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾؛ أي: أي عمل خيراً كان أو شرّاً، شكراً كان أو كفراً، وإن كان كمثقال ذرة. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة أعني: تكون تتلو تعملون؛ أي: ما تتلبسون بشيء من الأفعال الثلاثة في حال من الأحوال إلا في حال كوننا شهوداً عليكم، أي: رقباء مطلعين عليه حافظين له ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تشرعون في ذلك المذكور من الأفعال الثلاثة السابقة وتخوضون فيه فنحفظه عليكم ونجازيكم به فإذ ظرف لشهودا. وفي التعبير بالأمكنة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتماً به مندفعاً فيه جدير بأن لا يغفل عن مراقبة ربه فيه واطلاعه عليه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يا محمد أي وما يبعد عن علم ربك ولا يخفى عليه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: وزن نملة صغيرة ﴿فِي الْأَرْضِ

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فـ ﴿مِن﴾ زائدة؛ أي: ولا يغيب عن علم ربك ما يساوي في الثقل نملة صغيرة، أو هباء في دائرة الوجود والإمكان السفلي والعلوي.

وقرأ الكسائي وابن وثاب والأعمش وابن مصرف[1]: ﴿يعزب﴾ بكسر الزاي وكذا في سبأ. وقرأ باقي السبعة: بالضم، وهما لغتان فصيحتان.

وفي التعبير[2] بيعزب الدال على الخفاء والبعد، دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا، لا يغيب عن علمه تعالى، وقدم ذكر الأرض؛ لأن الكلام مع أهلها.

ثم أكد سبحانه ما سبق وبين إحاطة علمه بكل شيء فقال: ﴿وَلَآ﴾ يعزب عن علمه من ﴿أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: شيء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ من ذلك وإن عظم مقداره كعرشه تعالى. فأصغر وأكبر معطوفان على لفظ مثقال، وانتصبا لكونهما ممنوعين من الصرف، وسيأتي في مبحث الإعراب إيضاح ما في المقام من أوجه الإعراب وبيان الراجح منها، فانظره ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في لوح محفوظ؛ أي: إلا وهو معلوم له تعالى، ومحصى عنده في كتاب عظيم الشأن، فكيف يغيب عن علمه وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها، إكمالاً للنظام، وبياناً لضبط جميع الأعمال وفي معنى الآية قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي ذلك[3]: إشارة إلى أن في الوجود أشياء لا تدركها الأبصار، وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التي تكبر الأشياء أضعافاً مضاعفة أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها، إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات كالجراثيم ـ المكروبات ـ ولم تكن تخطر على البال في عصر التنزيل وقد ظهرت للناس الآن، فهي من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

وقرأ[1] الجمهور: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بفتح الراء فيهما، ووجه على أنه عطف على ذرة أو على مثقال على اللفظ. وقرأ حمزة ويعقوب من العشرة برفع الراء فيهما ووجه على أنه عطف على موضع مثقال لأن من زائدة فهو مرفوع بيعزب.

ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكرّ لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ، وكلمة ألا في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ حرف تنبيه؛ أي: انتبهوا أيها المخاطبون إن أولياء الله الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، والتوكل عليه، ولا يتخذون له أنداداً يحبونهم كحبه، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً يقربهم إليه زلفى ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الدارين من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب. والمراد[2] بـ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ خلص المؤمنين، كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معاصيه؛ أي: لا خوف عليهم في الآخرة: مما يخاف منه الكفار والفساق والظالمون، من أهوال الموقف، وعذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ ولا هم يحزنون من لحوق مكروه أو ذهاب محبوب، ولا يعتريهم ذلك فيها؛ لأن مقصدهم نيل رضوان الله المستتبع للكرامة والزلفى، ولا ريب في حصول ذلك ولا خوف من فواته بموجب الوعد الإلهي. وكذلك في الدنيا لا يخافون مما يخاف منه غيرهم من الكفار، وضعفاء الإيمان، وعبيد الدنيا، من مكروه يتوقع، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله، سبحانه وتعالى، بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

التقوى[1]: هي اتقاء كل ما لا يرضي الله، من ترك واجب وفعل محرم، واتقاء مخالفة سنن الله، تعالى، في خلقه، من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة.

أي: أولياء الله تعالى هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه وملكة التقوى له، عزّ وجلّ، وما تقتضيه من عمل. والمراد[2]، بنفي الخوف عنهم: أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب؛ لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله تعالى وقدره، فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة. وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ تفسير لمعنى، كونهم أولياء الله تعالى؛ أي: لهم البشارة والمسرة من الله تعالى، ما داموا في الحياة الدنيا بالنصر، وحسن العاقبة في كل أمر، وباستخلافهم في الأرض، ما أقاموا شرع الله وسننه، ونصروا دينه وأعلوا كلمته، وبما يوحيه إلى أنبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده، هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤى الصالحة، وما يتفضل الله به عليهم، من إجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم، بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: ﴿لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة﴾.

ولهم البشرى في الآخرة، بتلقي الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعم، والسلامة من العذاب، كما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وعبارة المراح هنا: فالبشرى[١] في الدنيا محبة الناس لهم، وذكرهم إياهم بالثناء الحسي والرؤى الصالحة، وبشرى الملائكة لهم عند الموت، وفي الآخرة تلقي الملائكة إياهم مبشرين بالفوز، والكرامة، وبياض الوجوه وإعطاء الصحف بأيمانهم، وما يقرؤون منها وغير ذلك من البشارات، انتهت.

فصل في الأحاديث المناسبة للآية

عن عبادة بن الصامت، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له». أخرجه الترمذي.

وله: عن رجل من أهل مصر، قال: سألت أبا الدرداء عن هذه الآية ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: ما سألني عنها أحدٌ منذ سألت رسول الله ﷺ عنها، وقال: «ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له». قال الترمذي: حديث حسن.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان، لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». متفق عليه.

وهذا لفظ البخاري، ولمسلم: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة».

---

(١) المراح.

والرؤيا[١] ثلاثة: الرؤيا الصالحة: بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان. ورؤيا مما يحدث المرء نفسه. قال بعض العلماء: ووجه هذا القول أنا إذا حملنا قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحمل هذه الحالة إلا لهم، وذلك؛ لأن ولي الله تعالى هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عزّ وجلّ، ومن كان كذلك.. فإنه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته، ومن المعلوم، أن معرفة الله في القلب لا تفيد إلا الحق والصدق، فإذا رأى الولي رؤيا أو رُؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عزّ وجلّ لهذا الولي. قال الخطابي: وفي هذه الأحاديث، توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا تغيير لأقواله على العموم، ولا إخلاف لمواعيده التي وعد بها أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من البشرى بسعادة الدارين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ والظفر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، ولا يقادر قدره ولا يماثله غيره؛ لأنه ثمرة الإيمان الحق، والتقوى في حقوق الله وحقوق الخلق، والجملتان[٢]، أعني ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ و ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزه، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، أو الأولى اعتراضية، والثانية تذييلية.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد ﴿قَوْلُهُمْ﴾؛ أي: قول هؤلاء المشركين، أي: إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم إياك، ولا يغمك تخويفهم لك؛ أي: لا تحزن لقولهم ولا تبال بما يتفوهون به في شأنك مما لا خير فيه، ولا بتكذيبهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك. وقرأ[٣] نافع بضم الياء وكسر الزاي، من: أحزنه يحزنه، وكلاهما بمعنى. وهذا نهي للنبي ﷺ، عن الحزن من قول

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح والبيضاوي.

الكفار، المتضمن للطعن عليه، وتكذيبه والقدح في دينه، والمقصود: التسلية له والتبشير.

ثم استأنف سبحانه الكلام مع الرسول، ﷺ، معللاً لما ذكره من النهي لرسول الله، ﷺ وكأن قائلاً، قال: لم لا يحزنه قولهم وهو مما يحزن؟ فقال: ﴿إن العزة لله جميعا﴾ ليس لهم منها شيء؛ أي وإنما نهيتك عن الحزن لقولهم؛ لأن العزة والغلبة والقدرة والقهر جميعاً لله، سبحانه وتعالى، هو المنفرد بها دون غيره، لا يملك أحد من دونه شيئاً منها، فهو يهبها لمن يشاء، ويحرمها من يشاء، وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم، ولا منافاة[1] بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأن عزة الرسول، ﷺ، وعزة المؤمنين بإعزاز الله إياهم، فثبت بذلك أن العزة لله جميعاً وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل: إن المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع ذلك لله تعالى وفي ملكه، فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك، ويذلهم بعد العزة. وقرأ[2] أبو حيوة: ﴿أن العزة﴾ بفتح الهمزة، وليس معمولاً لقولهم؛ لأن ذلك لا يحزن الرسول، ﷺ، إذ هو قول حق، وخرجت هذه القراءة على التعليل؛ أي: لا يقع منك حزن لما يقولون؛ لأجل أن العزة لله جميعاً. وقال القاضي فتحها شاذ يقارب الكفر، وإذا كسرت كان استئنافاً، وهذا يدل على فضيلة علم الإعراب.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ يسمع ما يقولون في حقك وفي تكذيبهم بالحق، وادعائهم للشرك فيكافؤهم على ذلك وهو ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما يفعلون من إيذاء وكيد لا تخفى عليه خافية، فهو مذلهم ومحبط أعمالهم. ثم أقام الدليل على كون العزة لله جميعاً وكون الجزاء بيده فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾؛ أي: انتبهوا أيها المخاطبون، واعلموا أن لله سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿من في السموات ومن في الأرض﴾؛ أي: جميع من فيهما له سبحانه وتعالى لا لغيره، ومن جملتهم هؤلاء

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

المشركون المعاصرون للنبي، ﷺ، وإذا كانوا ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله، ﷺ، بما لم يأذن به الله تعالى؟ والمعنى[1]: ألا إن لله كل من في السموات ومن في الأرض عبيداً مملوكين له، لا مالك لشيء من ذلك سواه، فكيف يكون إلهاً معبوداً ما يعبده هؤلاء المشركون من الأوثان والأصنام، والعبادة للمالك دون المملوك، وللرب دون المربوب.

فإن قلت[2]: قد قال تعالى في الآية التي قبل هذه ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بلفظة ﴿مَا﴾ وقال في هذه الآية بلفظة ﴿مَن﴾ فما فائدة ذلك؟

قلتُ: إن لفظة ﴿ما﴾ تدل على ما لا يعقل ولفظة ﴿من﴾ تدل على من يعقل، فمجموع الآيتين يدل على أن الله عزّ وجل يملك جميع من في السموات ومن الأرض من العقلاء وغيرهم، وهم عبيده وفي ملكه. وقيل: إن لفظة ﴿مَن﴾ لمن يعقل، فيكون المراد بـ﴿مَن﴾ في السموات الملائكة العقلاء وبـ﴿مَن﴾ في الأرض الإنس والجن، وهم العقلاء أيضاً، وإنما خصهم بالذكر لشرفهم، وإذا كان هؤلاء العقلاء المميزون في ملكه وتحت قدرته.. فغير العقلاء من الحيوانات والجمادات بطريق الأولى، أن يكونوا في ملكه، إذا ثبت هذا فتكون الأصنام التي يعبدها المشركون أيضاً في ملكه وتحت قبضته وقدرته، ويكون ذلك قدحاً في جعل الأصنام شركاء لله معبودة دونه.

وفي الآية: نعي على عباد البشر والملائكة والجمادات؛ لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك، وذلك مخالف لما يوجبه العقل، ولهذا أردفه بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ المشركون ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى آلهة ﴿شُرَكَآءَ﴾ له تعالى حقيقة؛ لأن ذلك محال، إنما هي أسماء لا مسميات لها، و﴿مَا﴾ نافية؛ أي: إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى بدعائهم في الشدائد واستغاثتهم في النوازل والتقريب إليهم بالقرابين والنذور، لا يتبعون شركاء له في الحقيقة يدبرون أمور العباد، ويكشفون الضر عنهم، إذ لا شريك له

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

تعالى. وقرأ السلمي: ﴿تدعون﴾ بالتاء على الخطاب. قال ابن عطية: وهي قراءة غير متجهة. وقال الزمخشري: وقرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ﴿تدعون﴾ بالتاء. ووجهه أن يحمل ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ على الاستفهام؛ أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين، يعني إنهم يتبعون الله تعالى ويطيعونه، فمالكم لا تفعلون مثل فعلهم، كقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ انتهى. ومن قرأ: ﴿تدعون﴾ بالتاء كان قوله: ﴿إن يتبعون﴾ التفاتاً إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة، ذكره أبو حيان.

ثم أكد ما سلف وزاده بياناً، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما يتبعون في الحقيقة فيما يقولون ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والحدس في دعواهم أنهم أولياء لله وشفعاء عنده، فهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين، المتكبرين، الذين لا يصل إليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابه ووزرائه ووسائطه.

ثم زاد ذلك توكيداً بقوله: ﴿وَإِنۡ هُمۡ﴾؛ أي: وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ ويكذبون؛ أي: إلا متخرصون قائلون بغير علم بما يقولون؛ أي: ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظنّاً والظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴿إن هم إلا يخرصون﴾؛ أي: يقدرون أنهم شركاء تقديراً باطلاً وكذباً بحتاً.

والخلاصة[1]: أنهم إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة، وأوهامهم الباطلة، فقاسوا الرب في تدبير أمور عباده على الملوك، وجهلوا أن أفعاله تعالى إنما تجري بمقتضى مشيئته تعالى الأزلية، وفق علمه الذاتي وحكمته البالغة، العادلة، وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: إن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليهم بهم، كالمسيح والملائكة ومن دونهم يتوسلون إليه راجين خائفين، لا كأعوان الملوك

(١) المراغي.

الذين لا ينتظم أمر ملكهم إلا بهم، ثم أقام البرهان على مضمون ما قبله، من نفي الشركاء له في الخلق والتقدير والشفعاء عنده حين التصرف والتدبير، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع فجعل ﴿ٱلَّيْلَ﴾ مظلماً ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: لأجل أن تسكنوا فيه، وتستريحوا بعد طول التعب والنصب والحركة للمعاش ﴿و﴾ جعل ﴿النهار مبصرا﴾؛ أي: مضيئاً ذا إبصار، لتنتشروا في الأرض، وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب والشكر للرب، وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الجعل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: لعبرات ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مواعظ القرآن، فيعلمون بذلك أن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله المنفرد بالوحدانية في الوجود؛ أي: إن في اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما، لدلائل وآيات على أن المعبود بحق هو الذي خلق الليل والنهار، وخالف بينهما لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من التذكير بحكمته تعالى، ووجه النعمة في ذلك سماع تدبر وعظة لما يسمع وقد جاء بمعنى الآية، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وذكر[1] علة خلق الليل، وهي قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وحذفها من النهار، وذكر وصف النهار وحذفه من الليل، وكل من المحذوف يدل عليه مقابله، والتقدير: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحركوا فيه في مكاسبكم وما تحتاجون إليه بالحركة، ففيه شبه احتباك.

---

(١) البحر المحيط.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المشركون كفار مكة وغيرهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عما لا يليق به، قال تعالى ذلك تنزيهاً لنفسه عما نسبوه إليه وتعجيباً من كلمتهم الحمقاء. ويصح أن يكون المعنى على العموم؛ أي: وقال المشركون: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزه ربنا عما لا يليق بربوبيته وألوهيته، ويمكن أن يكون المعنى: عجيب أن تصدر منهم تلك المقالة الحمقاء. ثم أكد هذا التنزيه بقوله: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الغني﴾ غنىً مطلقاً عن جميع خلقه، فإن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك له تعالى، ولا حاجة له إلى شيء منه، وجميعه في حاجة إليه، ولا يجانسه شيء منه، فالإنسان يحتاج إلى الولد، إما للنصرة والمعونة، وإما للاعتزاز به لدى الأهل والعشيرة، وإما لأنه زينة يلهو به في صغره، ويفخر به في كبره، وإما للحاجة إليه في قضاء مصالحه، أو لانتظار رفده وبره حين عجزه، وإما لبقاء ذكره بعد موته، والله غني عن كل ذلك، ولا حاجة له إلى شيء من هذه المنافع فهو مستغن أزلاً، وأبداً، ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان، فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً من ناطق وصامت، يعني: أنه مالك ما في السموات وما في الأرض، وكلهم عبيده، وفي قبضته وتصرفه، وهو محدثهم وخالقهم، وإذا كان الكل له وفي ملكه، فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له؛ للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة. ثم زيف دعواهم الباطلة، وبين أنها بلا دليل، فقال: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ﴾؛ أي: ما عندكم ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ أي: من حجة وبرهان ﴿بِهَذَا﴾ القول الذي تقولونه بلا علم ولا وحي إلهي، و ﴿مِنْ﴾ زائدة والباء في ﴿بِهَذَا﴾ إما متعلقة بـ ﴿سُلْطَانٍ﴾؛ لأنه بمعنى الحجة والبرهان، أو متعلقة بالاستقرار الذي تعلق به الظرف.

ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته، وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز نسبته إليه تعالى جهلاً منكم، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية، والوحي الإلهي، والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري

التوبيخي؛ أي: لا تقولوا على الله ذلك. وفي الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وإن العقائد الدينية لا بد فيها من دليل قاطع، وأن التقليد فيه غير سائغ.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ، أن يقول لهم قولاً يدل على أنَّ ما قالوه كذب، وأن من كذب على الله لا يفلح، فقال؛ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ليتبين لهم سوء عاقبتهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بنسبة الشركاء إليه أو باتخاذه ولداً لنفسه، أو بدعوى أن الأولياء يطلعون على أسرار خلقه، ويتصرفون في ملكه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعة الولد، أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ولا ينجون من عذاب الآخرة. والمعنى: إن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم، لا يفوزون بمطلب من المطالب، ولا يسعدون، وإن اغتروا بطول السلامة، والبقاء من النعمة، والمعنى: إن قائل هذا القول لا ينجح في سعيه، ولا يفوز بمطلوبه، بل خاب وخسر.

ثم بين سبحانه: أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة، فهو متاع قليل في الدنيا، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفتري عذاباً مؤبَّداً، فقال: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: حياتهم متاع قليل في الدنيا، ثم لا بد من الموت ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ أي: رجوعهم إلينا بالبعث لا إلى غيرنا ﴿ثُمَّ﴾ بعد الرجوع إلينا ﴿نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كونهم كافرين فأين هم من الفلاح.

والمعنى: أي هؤلاء لهم متاع في الدنيا حقير يتلهون به في حياة قصيرة هي: الحياة الدنيا إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال أو عظم جاه فهو قليل بالنسبة إلى ما أعد الله تعالى في الآخرة للصادقين المتقين، ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب، فيذيقهم العذاب الشديد، بسبب كفرهم بآياته، وبالافتراء عليه وتكذيب رسله، بعد أن قامت عليهم الحجة. وفي الآية إيماء إلى أن ما يظن أنه فلاح بالحصول على

منافع الدنيا المادية والمعنوية، فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم، ونعيم مقيم.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: يا: حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ ﴿أي﴾ تابع للفظه وجملة النداء مستأنفة. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿جَآءَ﴾ أو صفة لـ ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ معطوف على ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿شفاء﴾ أو صفة ﴿فِى ٱلصُّدُورِ﴾ جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: معطوفان على ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور صفة.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف دل عليه المذكور بعده ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ معطوف عليه، تقديره: بفضل الله وبرحمته ليفرحوا، والجملة المحذوفة مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة لفعل محذوف على المحذوف السابق، تقديره: فليعجبوا ﴿بذلك﴾ جار ومجرور متعلق بهذا الفعل المقدر، أعني: يعجبوا ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ الفاء: عاطفة ما بعدها على يعجبوا المحذوف. واللام: لام الأمر ﴿يفرحوا﴾: مجزوم بها، والجملة معطوفة على يعجبوا ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر ﴿مِّمَّا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ وجملة ﴿يَجْمَعُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره يجمعونه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيْتُمْ . . .﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل وفاعل بمعنى أخبروني. ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿أرأيتم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَكُم﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره: ما أنزله الله لكم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَا﴾ أو من الضمير المحذوف. ﴿فَجَعَلْتُم﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ ﴿جعل﴾ ﴿حَرَامًا﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿جَعَلَ﴾ ﴿وَحَلَٰلًا﴾ معطوف عليه؛ لأن المعنى: فجعلتم بعضه حراماً، وبعضه حلالاً. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مؤكدة لجملة ﴿قُلْ﴾ الأولى معترضة بين الفعل ومفعوله، أعني: أرأيتم ومفعوله الثاني ﴿ءَآللَّهُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، بمعنى: النفي ﴿اللَّه﴾ مبتدأ. ﴿أَذِنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أرأيتم﴾ ﴿أَمْ﴾: متصلة معادلة للهمزة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَفْتَرُونَ﴾ وجملة ﴿تَفْتَرُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ والمعنى: أخبروني أحصل إذن من الله لكم أم ذلك افتراء منكم وكذب، وهو استفهام لطلب التعيين، وهو الأول.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية ﴿ما﴾: اسم استفهام إنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿ظَنُّ﴾ خبره ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ظَنُّ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه

﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾: خبره واللام حرف ابتداء. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿فَضۡلٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن أكثرهم﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ خبره، وجملة الاستدراك معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على محمد ﴿فِي شَأۡنٖ﴾: جار ومجرور خبر تكون والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا تَتۡلُواْ﴾ الواو: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿تَتۡلُواْ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿مِنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَتۡلُواْ﴾ فـ ﴿مِن﴾ تعليلية والضمير يعود على الشأن ﴿مِن قُرۡءَانٖ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة ﴿قُرۡءَانٖ﴾: مفعول ﴿تَتۡلُواْ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿تَكُونُ﴾ ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنۡ عَمَلٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿عَمَلٍ﴾: مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿شُهُودًا﴾ ﴿شُهُودًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب على الاستثناء من أعم الأحوال والتقدير وما تتلبسون بشيء من الأفعال المذكورة في حال من الأحوال إلا في حال كوننا رقباء مطلعين عليه.

﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ ﴿شُهُودًا﴾ ﴿تُفِيضُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذۡ﴾ إليها ﴿وَمَا يَعۡزُبُ﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾ نافية ﴿يَعۡزُبُ﴾: فعل مضارع ﴿عَن رَّبِّكَ﴾، متعلق به ﴿مِن﴾: زائدة ﴿مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور حال من ذرة، أو صفة لها أو حال من ﴿مِّثۡقَالِ﴾ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: معطوف على الأرض وزيدت ﴿لا﴾ لتأكيد نفي ما قبلها. وقوله: ﴿وَلَآ

﴿أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾: كلام مستقل برأسه مقرر لما قبله، الواو استئنافية. ﴿لا﴾: نافية للجنس تعمل عمل إن ﴿أَصْغَرَ﴾: بالنصب اسمها منصوب؛ لأنه شبيه بالمضاف لعمله في الجار والمجرور بعده ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ متعلق به. وبالرفع إما على الابتداء، أو على أن ﴿لا﴾ عاملة عمل ليس ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾: معطوف على ﴿أَصْغَرَ﴾ والخبر على كلا القراءتين النصب والرفع بوجهيه. قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فـ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ أو خبر المبتدأ ﴿مبين﴾: صفة له، وجملة ﴿لا﴾ النافية أو جملة المبتدأ مستأنفة، منقطعة عما قبلها. وإنما[1] جاز إعراب ﴿أَصْغَرَ﴾ و ﴿أَكْبَرَ﴾ بالنصب على أن ﴿لا﴾ عاملة عمل إن؛ لأن ﴿أَصْغَرَ﴾ و ﴿أَكْبَرَ﴾ شبيهان بالمضاف تعلق بهما شيء من تمام معناهما، وهو العمل في الجار والمجرور، وهاتان القراءتان هنا فقط، وأما في سبأ فبالرفع، باتفاق السبعة. وقوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: الاستثناء منقطع، والمعنى[2] لكن جميع الأشياء في كتاب مبين، فهو استدراك على ما يتوهم نفيه؛ لأن قوله: ﴿لا يعزب عن ربك. . .﴾ إلخ، ربما يتوهم أنه لم يحط بها غير علم الله، فدفع ذلك بقوله: إلا في كتاب مبين؛ أي: لكن جميع الأشياء مثبتة في كتاب مبين أيضاً. ولا يصح أن يكون متصلاً؛ لأنه يصير المعنى: لا يغيب عن علمه شيء في حال من الأحوال، إلا في حال كونه مثبتاً في كتاب مبين فيغيب، فيفيد أن ما في الكتاب غائب عن علم الله، وذلك باطل، وهذا الإشكال لا يرد إلا على جعل قوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ﴾ ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ معطوفاً على ﴿مِثْقَالِ﴾ وأما إن جعل مستأنفاً ـ كما تقرر ـ فلا يرد الإشكال فتأمل.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه واستفتاح ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿لَا خَوْفٌ﴾ ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ليس ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة ﴿وَلَا هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، وجملة الابتداء في محل الرفع معطوفة على

---

(١) الصاوي. (٢) الصاوي.

جملة ﴿لَآ﴾ على كونها خبرا لـ ﴿إن﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم الذين، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: من أولئك الأولياء؟ فأجاب: هم الذين، إلخ ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل، وفاعل صلة الموصول ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة الصلة ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ متعلق به؛ أي: البشرى تقع في الدنيا، وفسرت بالرؤيا الصالحة؛ أو حال من ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾؛ متعلق بمحذوف، والعامل في الحال الاستقرار في ﴿لَهُمُ﴾ لوقوعه خبراً، ا هـ «سمين». ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماذا أعد لهم في الدارين.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾ ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن ﴿تَبۡدِيلَ﴾ اسمها. ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾ والجملة معترضة في آخر الكلام، لا محل لها من الإعراب، كما سيأتي في مبحث البلاغة بيان وجه اعتراضها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ خبر ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾: صفة له، والجملة معترضة أيضاً، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: (الواو): استئنافية ﴿لا يحزنك قولهم﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ﴾: ناصب واسمه ﴿لِلَّهِ﴾ خبره ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ أو توكيد لها، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ خبر ثانٍ؛ أو صفة لـ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ والجملة مستأنفة.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم لها ﴿مَن﴾: اسم موصول اسمها مؤخر وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول ﴿وَمَن﴾ معطوف على ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: صلتها. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾ نافية ﴿يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به ومفعول ﴿يَدۡعُونَ﴾ محذوف تقديره: آلهة ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول ﴿يَتَّبِعُ﴾ أي: وما يتبعون شركاء حقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء؛ لأن شركة الله في الربوبية محالة. ﴿إِنۡ﴾: نافية ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿إلا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلظَّنَّ﴾؛ مفعول به والجملة مستأنفة ﴿وَإِنۡ هُمۡ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إن﴾: نافية ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ. ﴿إلا﴾: أداة استثناء مفرغ. وجملة ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ خبره والجملة معطوفة على جملة النفي قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الموصول ﴿لَكُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلَّيۡلَ﴾: مفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: مظلماً، والجملة صلة الموصول. ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿فِيهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور باللام: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾: مفعول ثانٍ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إنّ﴾ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: اسمها مؤخر ﴿لِّقَوۡمٖ﴾؛ جار ومجرور صفة ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ وجملة ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة: مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن ﴿ٱتَّخَذَ﴾ هنا بمعنى تبنى، والجملة في محل النصب مقول، ﴿قَالُوا﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف، والجملة مستأنفة من كلامه تعالى. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل جملة التنزيه ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم ﴿مَا﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صلة الموصول ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ما في السموات﴾ والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل جملة ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿إِنْ﴾ نافية ﴿عِندَكُم﴾ خبر مقدم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾: مبتدأ مؤخر، و ﴿مِن﴾ زائدة، والجملة مستأنفة ﴿بِهَٰذَآ﴾: متعلق بـ ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿تقولون﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، متعلق به ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿تقولون﴾ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعل وفاعل صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما لا تعلمونه، وجملة ﴿تقولون﴾ مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، مؤكد لعامله. وجملة ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول.

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿مَتَٰعٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: حياتهم متاع ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب، والحظوظ الدنيوية بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح، كأنه قيل: كيف لا يفلحون وهم في نعيم، فقيل: هو متاع قليل في الدنيا، وليس بنافع في الآخرة، ا هـ «أبو السعود». ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿إِلَيۡنَا﴾: خبر مقدم ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَتَٰعٌ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾: فعل ومفعولان ﴿ٱلشَّدِيدَ﴾ صفة للعذاب، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه وجملة ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: بسبب كونهم كافرين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نذيق﴾ والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ﴾ الموعظة: هي التذكير بالعواقب، سواء كان بالزجر والترهيب، أو بالاستمالة والترغيب، وفي «زاده» الموعظة: مصدر بمعنى: الوعظ، وهو إرشاد المكلف ببيان ما ينفعه من محاسن الأعمال، وما يضره من القبائح والترغيب في المحاسن، والزجر عن القبائح ا هـ.

﴿وَشِفَآءٌ﴾ والشفاء: الدواء، وهو في الأصل مصدر، جعل وصفاً، مبالغة، أو اسم لما يشفى به أو يتداوى به، فهو كالدواء، اسم لما يتداوى به ﴿والهدى﴾: بيان الحق المنقذ من الضلال، ويكون في الاعتقاد بالحجة والبرهان، وفي العمل ببيان المصالح والحكم ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ والرحمة: الإحسان ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وفضل الله: هو توفيقهم لتزكية أنفسهم، بالموعظة والهدى ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ والرحمة هي: الثمرة التي نتجت من ذلك، وبها فضلوا جميع الناس ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ والفرح: لذة في القلب، بإدراك المحبوب والمشتهى، يقال: فرحت بكذا إذا أدركت المأمول، ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح، في اللذات البدنية الدنيوية،

واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ﴿فِي شَأْنٍ﴾ والشأن: الخطب، والحال، والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور يجمع على شؤون، تقول العرب: ما شأن فلان؛ أي: ما حاله والشأن: اسم إذا كان بمعنى الخطب، ويكون مصدراً إذا كان بمعنى القصد، يقال: شأنت شأنه؛ أي: قصدت قصده، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، ا هـ «أبو السعود». وشأن من باب نفع، كما في «القاموس». والشأن أصله الهمز، وقد تبدل ألفاً: اهـ «شهاب». والذي في هذه الآية، يجوز أن يكون المراد به الاسم، ويجوز أن يكون المراد منه المصدر، يعني: قصد الشيء ﴿شُهُودًا﴾ وفي «المصباح»: وشهدت على الشيء: اطلعت عليه، فأنا شاهد وشهيد، والجمع أشهاد وشهود، مثل شريف وأشراف، وقاعد وقعود.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ يقال: أفاض في الشيء، أو من المكان إذا اندفع فيه بقوة أو بكثرة ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ بضم الزاي وكسرها، قراءتان سبعيتان، وفي «المصباح» عزب الشيء، من باب قتل وضرب، إذا غاب وخفي، فهو عازب، ومنه قولهم: عزبت النية؛ أي: غاب عنه ذكرها، ا هـ. وفي «المختار» أنه من باب دخل، وعزب الرجل بإبله يعزب؛ أي: بعد وغاب في طلب الكلأ ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: موازن نملة صغيرة أو هباء، والمثقال: الوزن، والذرة: النملة الصغيرة الحمراء، وهي خفيفة الوزن جداً، وبها يضرب المثل في الصغر والخفة، وتطلق على الدقيقة من الغبار، الذي يرى في ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ والكتاب: هو اللوح المحفوظ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الأولياء: جمع ولي، من الولي، وهو القرب، يقال: تباعد بعد ولي، أي: بعد قرب. وفي «البيضاوي»: أولياء الله: هم الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، ا هـ. والولي: ضد العدو، فهو المحب، ومحبة العباد لله: طاعتهم له، ومحبته لهم إكرامه إياهم، كما في «شرح الكشاف»، وعلى الأول: يكون فعيل: بمعنى فاعل: وعلى الثاني: بمعنى مفعول، فهو مشترك بينهما، ا هـ «شهاب». واعلم أن تركيب الواو واللام والياء، يدل على معنى القرب، فولي كل شيء، هو الذي يكون قريباً منه، والقرب من الله بالمكان والجهة محال،

فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة الله. وفي «الخازن»: وأصل الولي، من الولاء، وهو القرب والنصرة، فولي الله، هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض الله عليه، ويكون مشتغلاً بالله، مستغرق القلب في نور معرفة جلال الله تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ البشرى: مصدر كالرجعى، الخبر السار الذي تنبسط به بشرة الوجه، فتتهلل وتبرق أساريره، وأريد به هنا المبشر به، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ العزة: الغلبة والقوة والقدرة، فعزة الله هي العزة الكاملة التي تندرج فيها عزة الإلهية والإحياء والإماتة، وعزة البقاء الدائم، ونحو ذلك.

﴿جَمِيعًا﴾ توكيد للعزة، ولم يؤنث بالتاء: لأن فعيلاً يستوى فيه المذكر والمؤنث، لشبهه بالمصادر. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ والخرص: الحزر بتقديم الزاي على الراء، والتقدير والتخمين للشيء: الذي لا يجري على قياس من وزن أو كيل، أو ذرع، كخرص الثمر على الشجر، والحب في الزرع، ويستعمل بمعنى الكذب أيضاً؛ لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين. وفي «المصباح»: خرصت النخل خرصاً ـ من باب قتل ـ حزرت ثمره، والاسم الخرص بالكسر، وخرص الكافر خرصاً فهو خارص إذا كذب ا هـ. ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ الولد، يستعمل مفرداً وجمعاً، وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة، بالكسر فيهما. ﴿وسبحان﴾ كلمة تنزيه وتقديس، وتستعمل للتعجب. ﴿مِن سُلْطَٰنٍۭ﴾ والسلطان: الحجة والبرهان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ المراد بها القلوب، من باب تسمية الحال ﴿القلوب﴾ باسم المحل ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ أي: شفاء لما في القلوب من الحقد والحسد والبغض والعقائد الفاسدة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ عطفت الجملة الثانية على

الأولى، للتقرير والتأكيد.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ وفي قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ وفي قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ وبين الليل والنهار في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ إلخ.

ومنها: عطف ما للشيء الواحد من الصفات بعضها على بعض في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذات.

ومنها: القصر في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾؛ لأن تقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد الحصر.

ومنها: إظهار الاسم الجليل وتقديمه على الفعل في قوله: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيداً للتبكيت.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ حيث أتى بحرف التنبيه، وبـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة، وبالجملة الاسمية لزيادة تقرير مضمونها.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فهاتان الجملتان اعتراض لتحقيق البشارة وتعظيم شأنها، وليس من شأن الاعتراض أن يقع في أثناء الكلام، ا هـ «أبو السعود». وعبارة «التلخيص»: ومنه الاعتراض، وهو أن يؤتى في أثناء كلام، أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر، لا محل لها من الإعراب، لنكتة، سوى دفع الإيهام، انتهت.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، فحذف من الأول وصف الليل وهو مظلماً، وذكر حكمته وحذف من الثاني لحكمه وذكر وصفه مبصراً، والأصل هو الذي جعل لكم الليل مظلماً، لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتبتغوا وتتحركوا فيه.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن إسناد الإبصار إلى

النهار مجاز عقلي؛ لأنه يبصر فيه، فهو من الإسناد إلى الظرف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر الدلائل على وحدانيته، وذكر ما جرى بين الرسول وبين الكفار.. ذكر قصصاً من قصص الأنبياء، وما جرى لهم مع قومهم

---

(١) البحر المحيط.

من الخلاف، وذلك تسلية للرسول، ﷺ، وليتأسى بمن قبله من الأنبياء، فيخف عليه ما يلقى منهم من التكذيب، وقلة الأتباع، وليعلم المتلو عليهم هذا القصص عاقبة من كذب الأنبياء، وما منح الله تعالى، نبيه من العلم بهذا القصص، وهو لم يطالع كتاباً ولا صحب عالماً، وإنها طبق ما أخبر به، فدل ذلك على أن الله أوحاه إليه وأعلمه به، وأنه نبي لا شك فيه.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(١) ذكر عناد المشركين لرسوله ﷺ، وتكذيبهم له، بعد أن قامت البراهين على صدقه.. أردف ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلية له، ﷺ، وبياناً بأن قومه لم يكونوا بدعاً في عنادهم وتكذيبهم له، بل سبقهم في مثل فعلهم كثير من سالفي الأمم، وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم، وأتم الله لهم النصر، فلعل أولئك القوم يتدبرون حالهم، فينزجروا بما فيه مزدجر لهم، ويعترفوا بصدقه، ﷺ، ويؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة، فيندمون، ولات ساعة مندم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(٢) ذكر قصص نوح مع قومه، وبين عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم.. بين هنا عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل، وسنةً من سننه فيهم، عسى أن يعتبر بها أهل مكة، فيعلموا أن لله سنناً لا تبديل فيها، ولا تحويل، فيتقوا مثل تلك العاقبة التي حلت بمن قبلهم، من المكذبين من قوم نوح وغيرهم، واتقاؤه في مكنتهم، وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه ويبتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ...﴾ الآية، أفردت قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه، وفصلت تفصيلاً وافياً، لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر إذ فيها من العبرة أن قوة الحق تثل العروش وتهد أركان الباطل، وإن علا أصحابه فقد كان الفَلْج والظفر لموسى على ذلك الطاغية، الذي قال:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أنا ربكم الأعلى، وانتهى أمره بالغرق وصار مثلاً للآخرين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما كانت الآيات الماضية في ذكر الحوار بين موسى وفرعون.. ذكر هنا ما فعل فرعون في مقاومة دعوة موسى، لصد الناس عن اتباعه، باعتبار أنه ساحر، فأحضر السحرة ليقاوموا عمله، ويتغلَّبوا عليه فيبطلوا حجته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما فعله فرعون لمقاومة دعوة موسى.. أردف ذلك بذكر ما كان من بني إسرائيل مع موسى، توطئةً لإخراجهم من أرض مصر.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم، فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم، على مقتضى سننه في المكذبين لرسله من قبلك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ أي: بعض خبر نوح وقصته مع قومه، الذين هم أشباه قومك في العناد، ليصير داعياً إلى مفارقة الإنكار للتوحيد والنبوة ﴿إِذْ قَالَ﴾ نوح؛ أي: حين قال ﴿لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾؛ أي: شق عليكم وثقل ﴿مَّقَامِي﴾ فيكم؛ أي: قيامي فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم، أو مكثي فيكم مدة طويلة ﴿وَتَذْكِيرِي﴾؛ أي: مع وعظي إياكم ﴿بآيات الله﴾ التكوينية والتنزيلية الدالة على وحدانيته، ووجوب عبادته، فالواو بمعنى: مع، والمعنى: إن كان عظم عليكم مكثي بينكم مع تذكيري بآيات الله ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت ووثقت به وفوضت أمري إليه، وهذه الجملة جواب الشرط، والمعنى: إني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً. ويجوز أن يكون جواب الشرط ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ وجملة ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتراض كقولك: إن كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي.

والمعنى عليه: يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي فيكم.. فإنني قد وكلت أمري إلى الله الذي أرسلني، واعتمدت عليه وحده، بعد أن أديت رسالته بقدر

طاقتي ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾؛ أي: فأعدوا أمركم، واعزموا على ما تقدمون عليه في أمري وإهلاكي ﴿و﴾ ادعوا ﴿شركاءكم﴾ وأصنامكم الذين تعبدونهم من دون الله لنصرتكم، كما أنا أدعو ربي، وأتوكل عليه. وإنما[1] حثهم على الاستعانة بالأصنام بناءً على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع، فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم. أو ادعوا من يشاركونكم في الدين والقول، ليساعدوكم فيما تريدون بي، من السعي في إهلاكي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ الذي تعتزمونه في إهلاكي ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾؛ أي: غماً وهماً ومبهماً، وخفياً عليكم فيه حيرة ولبس، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه، والغم والغمة، كالكرب والكربة، والمعنى: ولا يكن قصدكم إلى هلاكي مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾؛ أي: ثم أدوا إلى ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه، وبعد استبانته التي لا غمة فيها ولا التباس بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: ولا تمهلوني بتأخير هذا القضاء عني بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه.

والخلاصة[2]: أن نوحاً طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به، مطالبةَ المدل الواثق ببأسه وقوته، المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة، وقوة الإرادة، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركائهم وآلهتهم، وأن لا يكون في أمرهم الذي أجمعوا عليه شيء من الغمة والخفاء، الذي قد يوجب الوهن والتردد في التنفيذ.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿مَّقَامِى﴾ بفتح الميم؛ أي: قيامي بالتذكير والدعوة إلى التوحيد. وقرأ أبو مجلز وأبو رجاء وأبو الجوزاء ﴿مقامي﴾ بضمها؛ أي: إقامتي ومكثي بين أظهركم. وقرأ الجمهور: ﴿فأجمعوا﴾ بقطع الهمزة من أجمع الرجل

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط بتصرف وتلخيص.

الشيء إذا عزم عليه ونواه. قال الشاعر:

أَجْمَعُوْا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوْا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

وقال أبو فيد السدوسي أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه. وقال أبو الهيثم: أجمع أمره جعله مجموعاً بعد ما كان متفرقاً. وعلى هذه القراءة يكون ﴿وشركاءكم﴾ معطوفاً على أمركم على حذف مضاف؛ أي: وأمر شركائكم أو منصوباً بإضمار فعل؛ أي: وادعوا ﴿وشركاءكم﴾. وقال أبو علي: وقد ينصب الشركاء بواو المعية. وقرأ الزهري والأعمش والجحدري وأبو رجاء والأعرج والأصمعي، عن نافع ويعقوب بخلاف عنه: ﴿فاجمعوا﴾ بوصل الألف وفتح الميم من جمع الثلاثي يجمع جمعاً، ﴿وشركاءكم﴾ عطف على أمركم؛ لأنه يقال: جمعت شركائي أو على أنه مفعول معه، أو على حذف مضاف أي: ذوي الأمر منكم فجرى على المضاف إليه ما جرى على المضاف لو ثبت، قاله أبو علي. وفي كتاب «اللوامح»: أجمعت؛ أي: جعلته جميعاً وجعلت الأموال جميعاً، فكان الإجماع في الأحداث والجمع في الأعيان وقد يستعمل كل واحد مكان الآخر، وفي التنزيل فجمع كيده. انتهى.

وقرأ[1] أبو عبد الرحمن والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب فيما روي عنه: ﴿وشركاؤكم﴾ بالرفع ووجه بأنه عطفه على الضمير في ﴿فأجمعوا﴾ وقد حصل الفصل بالمفعول فحسن، أو على أنه مبتدأ محذوف الخبر، لدلالة ما قبله عليه؛ أي: وشركاؤكم فليجمعوا أمرهم. وقرأت فرقة: ﴿وشركائكم﴾ بالخفض عطفاً على الضمير في أمركم؛ أي: وأمر شركائكم فحذف كقول الآخر:

أَكُلَّ آمْرِىءٍ تَحْسَبِيْنَ آمْرَأً وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِٱللَّيْلِ نَارَا

أي: وكل نار فحذف كل لدلالة ما قبله عليه. وقرأ السري بن ينعم؛ ثم أفضوا بالفاء وقطع الهمزة؛ أي: انتهوا إليَّ بشركم من أفضى بكذا: انتهى إليه.

---

(١) البحر المحيط.

وقيل معناه: أسرعوا، وقيل: من أفضى إذا خرج إلى الفضاء؛ أي: فأصحروا به إلي وأبرزوه.

وهذا الكلام[1] من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم، أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام: أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله، وأنه كان واثقاً بنصره إياه، غير خائف من كيدهم، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر، وأن مكرهم لا يصل إليه.

ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم، من الإعذار، والإنذار، وتبليغ الشريعة عن الله، ليس هو لطمع دنيوي، ولا لغرض خسيس، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: فإن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم، وتذكيري إياكم، أي: إن دمتم على إعراضكم بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: فلن يضرني ذلك؛ لأني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجراً ولا جزاءً تؤدونه إليّ حتى تتهموني فيما جئت به، فجواب الشرط محذوف، كما في «الشهاب» والفاء في ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والفاء في ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ جزائية ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، أي: ما جزاء عملي وثواب دعوتي، إلا على ربي الذي أرسلني إليكم، فهو يوفيني إياه، آمنتم أو توليتم ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من جهة ربي ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ بالفعل ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من المنقادين لما أدعوكم إليه، الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه وتعالى، لا يأخذون عليها أجراً، ولا يطمعون في عاجل، أو من[2] المسلمين لكل ما يصعب من البلاء؛ أي: من المستسلمين لأمر الله، ولكل مكروه يصل إليّ منكم، لأجل هذه الدعوة. قرأ[3] أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص، بتحريك الياء من أجري. وقرأ الباقون، بالسكون.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فكذب نوحاً قومه؛ أي: استمروا على تكذيبه وأصروا

---

(1) الخازن.

(2) أبو السعود.

(3) الشوكاني.

عليه، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن؛ أي: فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة، بقوله وعمله على حقيقة دعوته ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: فنجينا نوحاً ومن آمن معه، وأجاب دعوته وصار على دينه في السفينة التي كان صنعها بأمرنا؛ أي: أعقبنا تكذيبه النجاة له ولمن معه، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾؛ أي وجعلنا الذين نجيناهم مع نوح في السفينة خلائف في الأرض، التي كانت للمهلكين بالغرق من قومه، الذين كذبوه بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم، وحقت عليهم كلمة ربك يسكنونها. ويخلفونهم فيها. والخلائف، جمع خليفة، كصحائف جمع صحيفة. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بدلائل قدرتنا التكوينية والتنزيلية، من الكفار المعاندين لنوح عليه السلام، الذين لم يؤمنوا به، أغرقهم الله تعالى، بالطوفان، وإنما أخر ذكره وقدم الإنجاء، إشارةً إلى أن الرحمة سابقة على الغضب، لتعجيل المسرة لمن يمتثل الأمر ذكره «الصاوي». وفي هذا[1] الإخبار توعد للكفار بمحمد ﷺ وضرب مثال لهم، في أنهم بحال هؤلاء من التكذيب، فسيكون حالهم كحالهم في التعذيب ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها الرسول، بعين بصيرتك وعقلك ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: على أي حالةٍ كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله بهم، وأصروا على تكذيبه، وكيف صار آخر أمرهم، وهكذا عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك؛ وعاقبة المؤمنين المتقين لك.

وقيل: الخطاب في ﴿فَٱنظُرْ﴾ للسامع لهذه القصة، وفي ذلك تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم الرسول، وتسلية له، ﷺ، وتهديد للمشركين وتهويل عليهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: ثم أرسلنا من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا﴾ مثله كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾؛ أي: إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه، في تكذيب رسلهم، فقد أرسل هود إلى عاد وصالح إلى ثمود، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام، الذين كانوا في زمانه، إلا شعيباً، فإنه أرسل إلى قومه، أهل مدين وإلى جيرانهم، أصحاب

---

(١) البحر المحيط.

المؤتفكة، فقد كانوا متحدين معه لغةً ووطناً ﴿فَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: فجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه في رسالته، بحسب ما يتسنى لهم فهمه، من الأدلة العقلية والحسية؛ أي: فجاء كل رسول منهم قومه المخصوصين به، بالمعجزات الدالة على صدق ما قاله، وبما أرسله الله به، من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبي ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: فما[1] كانوا ليصدقوا بما كذبوا به، من أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبةً، ودعوا أممهم إليها من قبل مجيء رسلهم؛ أي: كانت حالهم بعد مجيء الرسل كحالهم قبل ذلك، كأن لم يبعث إليهم أحد، أو المعنى؛ أي: فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل، ممن كان مثله في سبب كفره، وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء.

وعبارة «الشوكاني» هنا: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾؛ أي[2]: فما أحدثوا الإيمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه، والمعنى: أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام، الذين أرسل الله إليهم رسله؛ أن يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل إليهم.

والمعنى: أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا زمن أن أرسل الله إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه إليهم؛ لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولاً وهذا مبني على أن الضمير في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ وفي قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ وقيل: ضمير ﴿كَذَّبُوا۟﴾ راجع إلى قوم نوح؛ أي: فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح، من قبل أن يأتي هؤلاء الأقوام، الذين جاؤوا من بعدهم وجاءتهم رسلهم بالبينات. وقيل: إن الباء في ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ للسببية؛ أي: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب من قبل مجيئهم وفيه نظر. وقيل المعنى: بما كذبوا به من قبل؛ أي: في عالم الذر، فإن فيهم من كذب

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

بقلبه وإن آمنوا ظاهراً. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل: إنه لقوم بأعيانهم، انتهت. ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الطبع العظيم الذي طبعناه على قوم نوح، ومن بعدهم من الأمم ﴿نَطْبَعُ﴾ ونختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: على قلوب المتجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعناد، المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغي والضلال، أمثالهم في كل قوم كقومك إذ كانوا مثلهم في اللجاج والعتو والاستكبار في الأرض ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَطْبَعُ﴾ بالنون، والعباس بن الفضل، بالياء والكاف للتشبيه؛ أي: مثل ذلك الطبع المحكم الذي يمتنع زواله، نطبع على قلوب المعتدين المجاوزين طورهم والمبالغين في الكفر والتكذيب والعناد والعتو.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ هذا عطف قصة على قصة، وخاص على عام، لمزيد الغرابة في وقائع موسى مع فرعون، كل هذا تسلية للنبي، ﷺ؛ أي: ثم أرسلنا من بعد أولئك الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، ﴿مُّوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿و﴾ أخاه ﴿هارون﴾ معه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: إلى فرعون مصر وأشراف قومه، وخصهم بالذكر؛ لأن قومهم القبط كانوا تبعاً لهم، يكفرون بكفرهم ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا، ويرجعون إليهم في إقامة المصالح والمهمات حالة كونهما مؤيدين ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع المبينة في سورة الأعراف، وخص موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل، لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها؛ أي: أعرضوا عن الإيمان بها كبراً وعلواً، مع علمهم بأن ما جاءا به هو الحق لما كانوا عليه من العلم بصناعة السحر ﴿و﴾ لما ﴿كانوا قوما مجرمين﴾؛ أي: راسخين في الإجرام والظلم والفساد في الأرض، فبسبب ذلك اجترؤوا على ردها؛ لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وإبصار الصواب. قيل: وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، والاستكبار[2]: ادعاء الكبر من غير استحقاق، والفاء فيه فاء

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

الفصيحة؛ أي: فأتياهم فبلغاهم الرسالة، فاستكبروا عن اتباعها، ا هـ «أبو السعود». وأعظم الكبر أن يتعاظم العبيد عن قبول رسالة ربهم بعد تبيينها واستيضاحها. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: فلما جاء فرعون وقومه الحق، الذي جاء به موسى من عند الله تعالى، من الحجج والمعجزات الدالة على الربوبية والألوهية ﴿قَالُوٓاْ﴾ من فرط عتوهم وعنادهم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به موسى ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح لمن رآه وعاينه يعرفه كل أحد قالوا[1]: ـ لحبهم الشهوات ـ إن هذا لسحر مبين، وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر، الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً، ولم يقولوا: إن هذا لسحر مبين إلا عند معاينة العصا وانقلابها، واليد وخروجها بيضاء، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا، وهي معجزة موسى التي وقع فيها عجز المعارض. وقرأ[2] مجاهد وابن جبير والأعمش: ﴿لساحر مبين﴾ جعل خبر إن اسم فاعل، لا مصدراً. لقراءة الجماعة.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى على وجه الإنكار والتوبيخ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الواضح الظاهر وهو أبعد الأشياء عن السحر، الذي هو باطل ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾؛ أي: حين جاءكم إنه سحر، من غير أن تترووا، وتتدبروا فيه، وما ترونه بأعينكم من آيات الله، وترجف له قلوبكم من عظمته، لا يمكن أن يكون سحراً من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم، ومقولهم محذوف، كما قدرناه في الحل آنفاً، بقولنا: إنه سحر. والاستفهام هنا وفيما بعده للإنكار، كما أشرنا إليه. ثم استأنف إنكار ما قالوه فقال؛ ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ خبر ومبتدأ؛ أي: أسحر هذا الحق الذي جئت به الذي أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف، لا يعني إنه ليس بسحر. وجملة قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من واو أتقولون، والرابط هو الواو بلا ضمير، كما في قول من قال: جاء الشتاء ولست أملك عدة؛ أي: أتقولون للحق إنه سحر، والحال أنه؛ أي: أن الشأن والحال لا يفلح الساحرون، أي: لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند رب العالمين؟ وقد أيده بالمعجزات

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

والبراهين الواضحة، وقد مضت سنة الله، بأن السحرة لا يفوزون في الأمور الهامة، كالدعوة لدين، والتأسيس لملك، وذلك ما تتهمونني به على ضعفي وقوتكم، فإن السحر خيال وشعوذة، لا تلبث أن تفتضح وتزول.

وجملة قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعاً في جواب سؤال مقدر تقديره: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؛ أي: قالوا لموسى منكرين ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ أي: لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾؛ أي: الملك والعز ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: في أرض مصر ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين والهمزة في ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي؛ أي[1]: قالوا له منكرين: ما جئتنا إلا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من ديننا، لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية وما يتبعها، من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها في أرض مصر كلها، وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان، فيما يخرجنا من دين آبائنا، الذي تدين به عامتنا وتتمتع بكبريائه خاصتنا، وهم الملك وأشراف قومه.

والخلاصة: أنه لا غرض لك من تلك الدعوة إلا هذا، وإن لم تعترف به، وقد وجهوا الخطاب أولاً لموسى؛ لأنه هو الداعي لهم، وأشركوا معه أخاه في فائدة الدعوى، والغرض منها، وهي الكبرياء في الأرض؛ لأنهما سيشتركان فيها. وقرأ[2] ابن مسعود وإسماعيل والحسن فيما زعم خارجة وأبو عمرو وعاصم، بخلاف عنهما ويكون بالياء التحتانية لمجاز تأنيث الكبرياء. وقرأ الجمهور: بالتاء الفوقانية لمراعاة تأنيث اللفظ. ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ لملئه بعد أن يئس من إلزامه بالقول: اعملوا على دفع حجته بالفعل و ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ بفنون السحر حاذق ماهر فيه، قال: هكذا، لما رأى اليد البيضاء والعصا؛ لأنه اعتقد أنهما من السحر فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم. والمخاطب بقوله: ﴿ٱئۡتُونِي﴾ خدمة فرعون، والمتصرفون بين يديه. وقرأ[3] ابن مصرف وابن وثاب وعيسى وحمزة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

والكسائي: ﴿بكل سحار﴾ بصيغة المبالغة. وقرأ الباقون: ﴿سَٰحِرٍ﴾ بصيغة اسم الفاعل. وقد تقدم الكلام على هذا في الأعراف.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فأتوا بالسحرة، فلما جاء السحرة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ أي: اطرحوا على الأرض ما معكم من الحبال والعصى؛ أي: قال لهم هذه المقالة بعد أن خيروه بين أن يلقي ما عنده أولاً، أو يلقوا ما عندهم، كما جاء ذلك في سورتي الأعراف وطه، ليظهر الحق ويبطل الباطل ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حبالهم وعصيهم السحرية واسترهبوا الناس ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ غير مبالٍ بهم، ولا بما صنعوا ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾؛ أي: إن هذا الذي فعلتم وألقيتموه أمام النظارة هو السحر؛ أي: التمويه الذي يظهر بطلانه، لا ما جئت به من الآيات البينات من عند الله، تعالى. وقد سماه فرعون وملؤه سحراً. وقرأ أبو عمرو ومجاهد وأصحابه وابن القعقاع وأبو جعفر بهمزة الاستفهام في قوله: ﴿السحر﴾ بإبدال[1] الهمزة الثانية ألفاً، ومدها مدّاً لازماً، أو بتسهيلها من غير قلب، وعلى كليهما تجب الإمالة في موسى والمعنى: والذي جئتم به، أهو السحر أم لا؟ وهو استفهام على وجه التحقير والتوبيخ. وقرأ باقي السبعة والجمهور، بهمزة الوصل، والتقدير على الاستفهام، أهو السحر أم لا؟ وتكون ما استفهامية منصوبة بـ ﴿جِئْتُم﴾ و ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: أي شيء جئتم به، أهو السحر أم لا؟ وعلى قراءة همزة الوصل، تكون ﴿مَا﴾ موصولة مبتدأة والخبر ﴿ٱلسِّحْرُ﴾. وقرأ عبد الله والأعمش ﴿ما جئتم به سحر﴾. وقرأ أبي ﴿ما أتيتم به سحر﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ أي: سيظهر بطلان ما جئتم به ويمحقه به بما يظهره على يدي، من الآيات المعجزة حتى يظهر للناس أنه صناعة لا آية خارقة للعادة، وحجة واضحة على بطلان حجتي.

ثم علل ما قال، ببيان سنن الله في تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد

---

(١) المراح.

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: إن الله تعالى لا يجعل عمل المفسدين صالحاً للبقاء فيقويه بالتأييد الإلهي ويديمه بل يزيله ويمحقه ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أولياً ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: ويثبت الله الحق الذي فيه صلاح الخلق، وينصره على ما يعارضه من الباطل ويبينه ويوضحه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التنزيلية التي أنزلها في كتبه على أنبيائه، لاشتمالها على الحجج والبراهين، وبكلماته التكوينية وقضاياه السابقة في وعده. وقال ابن سلام، بكلماته بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهي مقتضى إرادته التشريعية التي يوحيها إلى رسله، ومن ثم سينصر موسى على فرعون، وينقذ قومه من عبوديته، والواو في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ للعطف على سيبطله. وقرىء ﴿بكلمته﴾ على التوحيد؛ أي: بأمره ومشيئته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من آل فرعون، أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أولياً. والإجرام: الآثام؛ أي: ويظهر الله الحق وينصره، ولو كره من اتصف بالإجرام والآثام، إظهاره كفرعون وملئه. وقوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما أتى به موسى، عليه السلام، من المعجزات العظيمة الباهرة، أخبر الله سبحانه وتعالى، أنه مع مشاهدة هذه المعجزات، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، وإنما ذكر الله عزّ وجلّ هذا تسلية لنبيه محمد، ﷺ؛ لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به واستمرارهم على الكفر، والتكذيب، فبين الله سبحانه وتعالى، أن له أسوة بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الذي جاء به موسى، عليه السلام، كان أمراً عظيماً، ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية من قومه.

والفاء في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ عاطفة على مقدر فصل في مواضع أخر؛ أي: فألقى عصاه. فإذا هي تلقف ما يأفكون، فمع ظهور تلك المعجزات الباهرة ما آمن لموسى؛ أي: فما انقاد واستسلم لموسى إلا ذرية قلائل من قومه؛ أي: فما آمن من قوم موسى إلا قليل منهم، وهم بنو إسرائيل، الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب، وذلك أن موسى دعا الآباء إلى دينه، فلم يجيبوا خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من شبانهم مع الخوف ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ﴾؛ أي: آمنوا

مع خوف من فرعون؛ لأنه كان شديد البطش، ومع خوف من ملأ فرعون، وأشراف قومه، وهم رؤساء الذرية، فإن أشراف بني إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من إجابة موسى، خوفاً من فرعون عليهم، وعلى أنفسهم، وإنما جمع الضمير في ﴿ملإيهم﴾ مع أنه عائد إلى فرعون وهو واحد، تفخيماً له على حسب اعتقادهم، أو الضمير عائد على الذرية؛ أي: ملأ الذرية، وقد عرفت أن آباء الذرية كانوا من جملة ملأ فرعون ورؤسائه وعرفائه عليهم ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛ أي: من أن يصرفهم ويصدهم عن الإيمان بتسليط أنواع العذاب عليهم، وإنما قال: أن يفتنهم، ولم يقل: أن يفتنوهم؛ لأن قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لأمره، وهو بدل اشتمال من فرعون؛ أي: على خوف من فتنة فرعون. والمعنى: إن إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى، بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم، ثم عزمه على قتله، كما جاء في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾. وقرأ الحسن وجراح ونبيح ﴿يفتنهم﴾ بضم الياء من أفتن الرباعي. كل هذا أوقع الرعب والخوف في قلوب بني إسرائيل، قوم موسى، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ وهم الأحداث والشبان، وكانوا خائفين من فرعون وأشراف قومهم الجبناء المرائين، الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب منهم أن يضطهدوهم ويعذبوهم، ليرتدوا عن دينهم. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي؛ لشديد العتو قويّ القهر في أرض مصر، فهو جدير بأن يخاف منه، كما حكى الله عنه بقوله؛ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: لمن المجاوزين الحد في الظلم والفساد، بكثرة القتل والتعذيب، لمن يخالفه في أمر من الأمور، وبالكبر وغمص الحق واحتقار الخلق، ومن ثم ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ حق الإيمان ﴿فَعَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلُوٓا۟﴾؛ أي: اعتمدوا وبوعده فثقوا ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾؛ أي: مذعنين مستسلمين منقادين لأمره تعالى، إذ لا

يكون الإيمان يقيناً إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام، وخطاب موسى لمن آمن بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ دليل على أن المؤمنين من الذرية كانوا من قومه. وليس[1] في الآية دلالة على إيمان جميع قومه، إذ الإيمان بالله غير الإيمان لموسى، المتضمن معنى الإسلام، والاتباع، الذي أشير إليه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ فهم قد طلبوا منه بعد ما نجاهم من الغرق، أن يجعل لهم آلهة من الأصنام، ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه. وقيل: إنما أعيد قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ لإرادة إن كنتم موصوفين بالإيمان القلبي وبالإسلام الظاهري، ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان، وإن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره.

﴿فَقَالُوا۟﴾؛ أي: فقال: قوم موسى مجيبين له ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا في أمورنا كلها ثم دعوا ربهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا تجعلنا موضع فتنة لهم؛ أي: مفتونين لهم؛ أي[2]: لا تمكنهم من أن يحملونا بالقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق، الذي قبلناه أو المعنى[3]: لا تظهرهم علينا، ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً وكفراً. وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق لما عذبوا، ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك. وقيل معناه: لا تسلطهم علينا فيعذبونا، حتى يفتنونا عن ديننا. ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد.. أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا﴾؛ أي: خلصنا ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ وحفظك وغوثك وإحسانك وإنعامك ﴿مِنَ﴾ أيدي ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: من أيدي فرعون وقومه، ومن سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم؛ لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة. وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

وخلاصة[1] ما قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولاتفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا، أو نضعف فيه، فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل، وقد دلت التجارب على أن سوء حال المؤمنين، من ضعف أو فقر تجعلهم موضعاً لافتتان الكفار بهم، باعتقاد أنهم خير منهم، كما جاء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ . . .﴾ الآية، لما أرسل[2] موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها، ومنعوا من الصلاة فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلون فيها خوفاً من فرعون، فذلك قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾؛ أي: وقلنا لموسى وأخيه هارون اتخذا واجعلا لقومكما ﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾؛ أي: بيوتاً في مصر تكون مساكن وملاجىء، تعتصمون بها ومرجعاً ترجعون إليها للعبادة.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى وأخيه أن يتخذا لقومهما مساكن، بأرض مصر، يتوطنون بها، ويعبدون الله فيها رغماً عن أنف عدوهم فرعون، وهذا طمأنينة للقوم، فإنهم كانوا خائفين من فرعون. وقيل: مصر[3] في هذه الآية هي الإسكندرية، وقيل: هي مصر المعروفة لا الإسكندرية، ومصر من البحر إلى أسوان والإسكندرية من أرض مصر. وقرأ حفص في رواية هبيرة ﴿تبويا﴾ بالياء وهذا تسهيل غير قياسي، ولو جرى على القياس، لكان بين الهمزة والألف، ذكره أبو حيان.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾؛ أي: اجعلوها مستقبلة للقبلة لتصلوا فيها سراً، لئلا يصيبكم من الكفار معرة بسبب الصلاة، كما كان المؤمنون في أول الإسلام بمكة على هذه الحالة، والمراد بالقبلة جهة بيت المقدس؛ لأنها قبلة اليهود إلى اليوم. وقيل: جهة الكعبة، وأنها قبلة موسى ومن معه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ التي

---

(١) المراغي.

(٢) تفسير الواحدي.

(٣) الشوكاني.

أمركم الله بإقامتها في تلك البيوت، متجهين إلى جهة واحدة؛ لأن الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب؛ أي: أتموها بشروطها وأركانها المعلومة عندهم. ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا موسى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بشر قومك الذين آمنوا بك بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم، وتنجيتهم من ظلمهم أو بشرهم، بالنصر في الدنيا، وبالجنة في العقبى.

وإنما[1] جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصاً بموسى؛ لأنه الأصل في الرسالة، وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها. وقيل: إن الخطاب في ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لنبينا محمد ﷺ على طريقة الالتفات والاعتراض والأول أولى.

وعبارة المراغي هنا: وإنما خص موسى بالتبشير، لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة وأشرك معه هارون في أمر قومهما بالتبوؤ؛ لأنه مما يتولاه الرؤساء بتشاور بينهم، فهو تدبير عملي يقوم به هو ووزيره المساعد على تنفيذه، انتهت.

الإعراب

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾.

﴿وَٱتْلُ﴾ (الواو): استئنافية ﴿اتل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِمْ﴾، متعلق به ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾، مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿إِذْ﴾؛ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿نَبَأَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نُوحٍ﴾ والجملة في محل الجر مضاف إليه

(١) الشوكاني.

لـ ﴿إِذْ﴾ ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَالَ﴾.

﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: إلى قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت يا: حرف نداء ﴿قوم﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونها شأنية واسمها ضمير مستتر فيها، تقديره: هو، يعود إلى الشأن، أو زائدة لزيادتها بين أداة الشرط وفعله. ﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به ﴿مَّقَامِى﴾ فاعل ﴿كَبُرَ﴾. ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ معطوف عليه ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تذكيري﴾ ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه جواب الشرط، ويجوز أن تكون جملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ معترضة، فيكون الجواب جملة ﴿أجمعوا﴾ وهذا أولى؛ لأنه لا يصح أن يكون توكلت جواباً؛ لأنه لا يحسن ترتبه على الشرط، إذ هو متوكل على الله دائماً، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول: قال، على كونها جواب النداء ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟﴾ الفاء: رابطة أو عاطفة ﴿أجمعوا أمركم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجزم معطوفة على الجواب، أو هي جواب الشرط ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾: منصوب على كونه مفعولاً معه ولا يصح كونه معطوفاً على ﴿أَمْرَكُمْ﴾؛ لأن الشركاء ذوات لا يتسلط عليه ﴿أجمعوا﴾ إلا بقلة ويصح نصبه بإضمار فعل لائق، نحو: واستعينوا شركاءكم أو ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ واجمعوا شركاءكم، بهمزة الوصل على حد علفتها تبناً، وماءً بارداً، أو يقدر مضاف في المعطوف، والتقدير: فأجمعوا أمركم وأمر شركائكم ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لَا﴾: ناهية ﴿يَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿أجمعوا﴾: على كونه جواب الشرط ﴿أَمْرُكُمْ﴾: اسم ﴿يَكُنْ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿غُمَّةً﴾ ﴿غُمَّةً﴾ خبر يكن منصوب ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾

الشرطية معطوف على قوله ﴿لَا يَكُنْ﴾؛ لأن العطف كان هنا بحرف مرتب ﴿إِلَيَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱقْضُوٓا۟﴾ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: ناهية ﴿تُنظِرُونِ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾: الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والنون نون الوقاية؛ لأنها تقي الكسرة عن الفعل، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟﴾ على كونها جواب الشرط.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلته لكم، وأردتم بيان شأني فيما إذا توليتم.. فأقول لكم ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ ﴿ما﴾ النافية ﴿ما﴾ نافية ﴿سَأَلْتُكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿سأل﴾ و ﴿مِنْ﴾: زائدة، أو يقال: جواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فإن توليتم، فلا ضير عليّ؛ لأني ما سألتكم عليه من أجر، والفاء في ﴿سَأَلْتُكُم﴾ تعليل للجواب المحذوف وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إِذَا﴾ المقدرة وجملة ﴿إِذَا﴾ المقدرة مستأنفة على كونها مقول، قال. ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ ﴿إنْ﴾ نافية ﴿أجري﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿وَأُمِرْتُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ﴿أَكُونَ﴾: منصوب بها واسمها ضمير يعود على ﴿نُوحٍ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأمرت بكوني من المسلمين، والجار

المحذوف متعلق بـ ﴿أَكُونَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: الفاء: عاطفة ﴿كذبوه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾ على كونها مضافاً لـ ﴿إِذْ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ الفاء، عاطفة ﴿نجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾ ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ الواو: عاطفة ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على مفعول ﴿نجيناه﴾ ﴿مَّعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة من الموصولة ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نجيناه﴾ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿نجيناه﴾ ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة أيضاً على جملة ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به ﴿فَٱنظُرْ﴾ الفاء عاطفة ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿أغرقنا﴾ ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها، معلق للنظر عن العمل فيما بعده ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب سادة مسد مفعول انظر علقت عنها باسم الاستفهام.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿بَعَثْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿رُسُلًا﴾ مفعول به ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿فَجَآءُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿بعثنا﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ ﴿جَآءَ﴾ ﴿فَمَا كَانُوا۟﴾ الفاء: عاطفة ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ اللام: حرف جر وجحود ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود.

﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُواْ﴾ ﴿كَذَّبُواْ﴾ فعل وفاعل صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبُواْ﴾ وهو العائد على ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿مِن قَبْلُۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَذَّبُواْ﴾ أيضاً وجملة ﴿يُؤْمِنُواْ﴾ صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، على مذهب البصريين، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ تقديره: فما كانوا مريدين للإيمان بما كذبوا به من قبل، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿جاؤوا﴾ وأما على مذهب الكوفيين فلام الجحود زائدة، والتقدير: فما كانوا مؤمنين بما كذبوا به من قبل ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نَطْبَعُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ متعلق به، والتقدير: نطبع على قلب كل معتد طبعاً مثل طبعنا على هؤلاء، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ مفعول به ومعطوف عليه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ﴿بآياتنا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ أي: حالة كونهما مؤيدين بآياتنا، وجملة ﴿بَعَثْنَا﴾: معطوفة على ﴿بَعَثْنَا﴾ الأول عطف قصة على قصة، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لما في الخاص من الغرابة، كما ذكره «أبو السعود» ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على محذوف مرتب عليه، تقديره: فأتياهم فبلغاهم الرسالة، فاستكبروا عن اتباعها، فالجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿استكبروا﴾ ﴿قَوْمًا﴾: خبرها ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ صفة له.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم استكبروا عن آياتنا، وأردت بيان كيفية استكبارهم..

فأقول لك ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِنْ عِندِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاء﴾ أو حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت، قلت ﴿إنّ هذا﴾ ناصب واسمه ﴿لَسِحْرٌ﴾؛ خبره. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة سحر وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قالوا.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿أَتَقُولُونَ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت. قلت ﴿أَتَقُولُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري ﴿تقولون﴾: فعل وفاعل ﴿لِلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق به؛ أي: في شأن الحق ولأجله ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين متعلق بـ ﴿تقولون﴾ ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله، ضمير يعود على ﴿ٱلْحَقِّ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾ ومقول ﴿تقولون﴾ محذوف، تقديره أتقولون للحق لما جاءكم إنه سحر. وقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؛ من كلام موسى، والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري. ﴿سحر﴾ خبر مقدم ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة من جهة موسى، عليه السلام، تكذيباً لقولهم وتوبيخاً إثر توبيخ، وتجهيلاً بعد تجهيل، كما ذكره «أبو السعود» ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿أَجِئْتَنَا...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿جئتنا﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: اللام حرف جر وتعليل ﴿تلفت﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: للفتك وصرفك إيانا عن الحق

الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جئتنا﴾.

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تلفتنا﴾ ﴿وَجَدْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به وهو في محل المفعول الثاني. ﴿ءَابَآءَنَا﴾ مفعول أول، أو وجد هنا بمعنى أصاب يتعدى لمفعول واحد ﴿وَتَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿تلفت﴾ ﴿لَكُمَا﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُونَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ اسم تكون مؤخر. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أو بـ ﴿تكون﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾ حجازية ﴿نَحْنُ﴾: في محل الرفع اسمها ﴿لَكُمَا﴾ متعلق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مؤمنين﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية والباء: زائدة، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿ٱئْتُونِي . . .﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱئْتُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿سَٰحِرٍ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فأتوا بالسحرة ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ ﴿لما﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿مُّوسَىٰ﴾ فاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لمّا﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على تلك الجملة المحذوفة ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَلْقُواْ مَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره: ما أنتم ملقونه.

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨٢﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: عاطفة على محذوف؛ تقديره: فألقى السحرة ما عندهم ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لما﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ إلى آخر الآيتين مقول محكي، وإن شئت، قلت: ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿جِئۡتُم﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ وفي المقام أوجه أخر من الإعراب، تركناها خوف الإطالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾. ناصب واسمه ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معطوفة على قوله ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ﴾ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يحق﴾ ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف، تقديره: ويحق الله الحق لو لم يكره المجرمون ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجوابها محذوف، تقديره: ولو كره المجرمون يحق الله الحق بكلماته، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على تلك الجملة المحذوفة.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، كما ذكره في «الفتوحات» ﴿ما﴾: نافية ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾: متعلق به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ذُرِّيَّةٞ﴾ فاعل ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ﴾: جار

ومجرور صفة لـ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ والجملة مستأنفة ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾: على حرف جر، بمعنى اللام التعليلية ﴿خوفٍ﴾ مجرور بها الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿مِّن فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بخوف. ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدل اشتمال من فرعون؛ أي: من فتنتهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَعَالٍ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿عال﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأن أصله لعالي، استثقلت الضمة على الياء ثم حذفت، فالتقى ساكنان، وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها فصار لعال. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿عال﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا ءَامَنَ﴾ عطف علة على معلول ﴿وَإِنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمِنَ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾: الواو: استئنافية ﴿قال موسى﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم على كونه فعل شرط لها. ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿فَعَلَيْهِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَوَكَّلُوا﴾ ﴿تَوَكَّلُوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِن كُنتُم﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿مُّسْلِمِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم مسلمين، فعليه توكلوا، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَقَالُوا۟﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَآ...﴾ إلى آخر الآيتين: مقول محكي، وإن شئت، قلت: على الله متعلق بـ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مقول ﴿قالوا﴾ ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ متعلق بـ ﴿فِتْنَةً﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ وجملة ﴿تَجْعَلْنَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَنَجِّنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَجْعَلْنَا﴾ ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿نجنا﴾ وكذا يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾: متعلق به ﴿وَأَخِيهِ﴾ معطوف على موسى ﴿أَن﴾: إما مفسرة لوجود ضابطها، وهو أن يتقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه، وإما مصدرية ﴿تَبَوَّءَا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون أمر من تفعل مثل قوله تعالى: ﴿أن اصنع الفلك﴾ أو فعل أمر في محل النصب بأن المصدرية مبني على حذف النون ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ متعلق بـ ﴿تبوءا﴾ وهو في محل المفعول الأول والأقرب كون اللام زائدة في المفعول ﴿بِمِصْرَ﴾: متعلق بـ ﴿تَبَوَّءَا﴾ أو حال من ضمير ﴿تبوءا﴾ أو حال من ﴿بُيُوتًا﴾. ﴿بُيُوتًا﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿تبوءا﴾ وجملة ﴿تبوءا﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ﴿لأوحينا﴾ تقديره: وأوحينا إلى موسى وأخيه التبوؤ لقومهما بمصر بيوتا ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: فعل وفاعل ومفعولان

والجملة معطوفة على جملة ﴿تبوءا﴾ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تبوءا﴾. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿تبوءا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ أي: بعض نبأه مع قومه، إذ المذكور ليس جميع خبره، بل بعضه وتقدم أن اسمه عبد الغفار، وأن نوحاً لقبه. والنبأ: هو الخبر الذي له خطر وشأن. ﴿مَّقَامِى﴾ والمقام: بفتح الميم، مكان القيام، وبضمها مكان الإقامة، أو الإقامة نفسها، والأول: من قام الثلاثي، والثاني: من أقام الرباعي، وفي «زاده» والمقام إما اسم لمكان القيام، أو مصدر له، فعلى الأول يكون كناية عن النفس؛ لأن المكان من لوازمه، وعلى كونه مصدراً، إما أن يراد به طول قيامه بينهم، أو قيامه على الدعوة والتذكير؛ لأنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ا هـ ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ أمر من الإجماع والإجماع: العزيمة على الأمر عزماً لا تردد فيه، كما قال شاعرهم:

أَجْمَعُوْا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا ... أَصْبَحُوْا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

فأجمع الرباعي يتعدى بنفسه وبعلى، فيقال: أجمع أمره وأجمع عليه، والمعنى على كلا الوجهين: العزم والتصميم؛ أي: عزم أمره وصمم عليه. وفي «السمين» قرأ العامة: فأجمعوا أمراً، من أجمع، بقطع الهمزة، يقال: أجمع في المعاني، وجمع في الأعيان، فيقال: أجمعت أمري، وجمعت الجيش هذا هو الأكثر ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾؛ أي: أدوا إليّ ذلك الأمر الذي تريدون بي، فالقضاء هنا، من قولهم: قضى دينه، إذا أداه. وقيل معناه: أسرعوا به إليّ، وأبرزوه، ولام القضاء واو؛ لأنه من قضا يقضو، ا هـ «سمين».

﴿غُمَّةً﴾ والغمة: الستر واللبس، يقال: إنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد له، والإنظار: التأخير والإمهال. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ تقدم أن الفلك يستعمل مفرداً وجمعاً، والمراد هنا المفرد ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون الذين هلكوا بالغرق، جمع خليفة، كصحائف وصحيفة ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الطبع على القلوب هو عدم

قبولها شيئاً غير ما رسخ فيها، واستحوذ عليها. والمعتدين جمع معتد، والمعتدي: المتجاوز حدود الحق والعدل، اتباعاً لهوى النفس وشهواتها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ تقدم أن الملأ أشراف الناس الذين يملؤون العيون بالمهابة، والمجالس بأجرامهم والاقتصار عليهم؛ لأنهم المتبوعون، وغيرهم من بقية قوم فرعون تبع لهم، هكذا قرره بعض المفسرين، وقرر بعضهم أن المراد بالملأ هنا، مطلق القوم، من استعمال الخاص في العام. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ من باب استفعل والاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ اللفت والفتل أخوان، ا هـ «أبو السعود»، وكلاهما من باب ضرب، ففي «المصباح» لفته لفتاً، من باب ضرب، صرفه إلى ذات اليمين أو الشمال، ومنه يقال: لفته عن رأيه إذا صرفته ا هـ وفي «السمين» اللفت: اللي والصرف، لفته عن كذا؛ أي: صرفه ولواه عنه. وقال الأزهري: لفت الشيء وفتله: لواه، وهذا من المقلوب، قلت: ولا يدعى فيه قلب حتى يرجح أحد اللفظين في الاستعمال على الآخر. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ والكبرياء، مصدر على وزن فعلياء، ومعناها: العظمة، وسمي الملك كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمور الدنيا، قاله الزجاج، وقيل: سمي بذلك؛ لأن الملك يتكبر.

﴿ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وقرىء سحار، والسحار، صيغة مبالغة؛ أي: كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ الذرية في اللغة، صغار الأولاد وتستعمل في الصغار والكبار عرفاً، والذرية اسم يقع على القليل من القوم. قال ابن عباس: الذرية القليل، وقيل، المراد به: التصغير وقلة العدد ﴿فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفتنة والفتون: الابتلاء والاختبار الشديد، للحمل على الفعل أو الترك والمراد به هنا: الاضطهاد والتعذيب ﴿أن تبوءا﴾؛ أي: أن اتخذا لقومكما بيوتاً بمصر، يقال: تبوأ الدار، اتخذها مباءة ومسكناً، يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة، ويقال: بوأت زيداً مكاناً، وبوأت لزيد مكاناً، والمبوأ: المنزل الملزوم ومنه بوأه الله منزلاً؛ أي ألزمه إياه وأسكنه فيه، ومنها الحديث «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ومنه قول الراجز:

نَـحْــنُ بَـنُــوْ عَــدْنَــانَ لَــيْــسَ شَــكُّ   تَــبَــوَّأَ ٱلْــمَــجْــدُ بِــنَــا وَٱلْــمُــلْــكُ

﴿قِبۡلَةٗ﴾ والقبلة ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه، ومنه قبلة الصلاة؛ لأن المصلي يقابلها، وهي تقابله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾؛ لأن حق الإسناد أن يكون للذات نظير ثقل عليّ ظله، كما في «الصاوي».

ومنها: تقديم المعمول على عامله لإفادة الحصر في قوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾.

ومنها: الاعتراض بين الشرط وجوابه بقوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ إن قلنا الجواب جملة ﴿فأجمعوا﴾ كما قاله الأكثرون.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ إذا كان من قضى دينه إذا أداه، فالهلاك مشبه بالدين على طريقة الاستعارة المكنية والقضاء تخييل، أو فيه تضمين واستعارة مكنية إذا كان من قضى، بمعنى حكم، والتقدير: احكموا بما تؤدونه إليّ.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ لأن الإنظار حقيقة في إمهال دين المعسر، مجاز في تأخير الإهلاك.

ومنها: تأخير الإغراق عن ذكر الإنجاء والاستخلاف في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ لإظهار كمال العناية بشأن المقدم، ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيذان بسبق الرحمة، التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب، الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين، ذكره «أبو السعود».

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لما في الخاص من الغرابة.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ إفادةً لتحقيره وعدم المبالاة به.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم وحق العبارة أن الله لا يصلح عملكم كما في «الكرخي».

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ فكأنه قال إن الله يبطل الباطل ويحق الحق.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن المراد بها أرض مصر.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞
وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ
ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ
وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ
جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ
ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ
أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ
ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ
وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ
فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(1) أبان جبروت فرعون

---

(1) المراغي.

ومليه وخوف بني إسرائيل من بطشهم، وأنهم امتنعوا لأجل ذلك عن الإيمان إلا قليلاً من شبانهم.. استجابوا لدعوة موسى بعد حث لهم وتحريض على الإيمان، وطلب موسى من بني إسرائيل أن يتخذوا بيوتاً لهم بمصر، يقيمون فيها مراسم دينهم، ثم بشرهم بالفوز والغلبة والنصر.. قفى على ذلك بدعوة موسى على فرعون وقومه مع ذكر السبب الذي دعاه إلى ذلك، وهو: الجحودوالعناد لدعوته لما أوتوه، من بسطة النعمة التي أبطرتهم، فتركوا الدين وراءهم ظهرياً.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما بالغ[1] موسى عليه السلام في إظهار المعجزات، وهم مصرون على العناد، واشتد أذاهم عليه، وعلى من آمن معه، وهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعلم بالتجربة وطول الصحبة، أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، أو علم ذلك بوحي من الله تعالى.. دعا الله تعالى عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس وأخزى الكفرة، كما دعا نوح على قومه حين أوحى إليه، أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وقدم بين يدي الدعاء ما آتاهم الله تعالى، من النعمة في الدنيا، وكان ذلك سبباً للإيمان به، ولشكر نعمه، فجعلوا ذلك سبباً لجحوده ولكفر نعمه انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] ما دار من الحوار بين موسى وفرعون، وذكر ما أتى به موسى من الحجج والبينات الدالة على صدقه، وغلبه لسحرة فرعون، ولم يزده ذلك إلا كبراً وعتواً فدعا عليه بالطمس على الأموال، والشد على القلوب، وذكر استجابة الله دعوته.. قفى على ذلك بذكر خاتمة القصة: وهو ما كان من تأييد الله لموسى وأخيه، على ضعفهما وقوة فرعون وقومه، إذ كانت دولته أقوى دول العالم في عصره.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ...﴾

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما جرى لفرعون وأتباعه من الهلاك، ذكر ما أحسن به لبني إسرائيل، وما امتن به عليهم، إذ كان بنو إسرائيل قد أخرجوا من مساكنهم خائفين من فرعون، فذكر تعالى أنه اختار لهم من الأماكن أحسنها، والظاهر أن بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى، ونجوا من الغرق، وسياق الآيات يشهد لهم.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر خاتمة فرعون[2] وجنوده.. قفى على ذلك بذكر عاقبة بني إسرائيل، وفي هذا عبرة لمكذبي محمد، ﷺ، والجاحدين من قومه المغترين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأوفر ثروة، وقد جعل الله سننه في المكذبين واحدةً، ففكروا أيها المكذبون في عاقبة أمركم، وتدبروا ملياً خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم، وها هو ذا أهلك أكثر زعمائهم، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين، وأعطاهم أعظم ملك في العالمين.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قص[3] قصص الأنبياء السالفين، وما لا قوه من أقوامهم، من العناد والجحود والاستكبار والعتو، وفي كل حال كان النصر حليف المؤمنين، والخذلان نصيب الظالمين.. أردف ذلك بذكر صدقه فيما قال: ووعد وأوعد، وكون ذلك سنّة الله في المكذبين قبل، وسيكون ذلك فيهم من بعد، وليس في هذا سبيل للافتراء والشك، وقد ساق ذلك بطريق التلطف في الأسلوب، فوجه الكلام إلى الرسول، ﷺ، والمراد قومه، فجاء على نحو قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، وقد جاء مثل هذا في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ...﴾ الآيات الثلاث، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.. أتبعه بذكر هذه الآيات للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم، وانتفعوا بذلك الإيمان. وهذه الآيات الثلاث تكملة لما قبلها، وبيان لسنن الله تعالى في الأمم مع رسلهم، وفي خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر، وفي تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله، وأفعال عباده ووقوعها وفقهما.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أن سننه في نوع الإنسان، أن خلقه مستعداً للإيمان والكفر، الخير والشر، ولم يشأ أن يجعله على طريقة واحدة، إما الكفر وحده وإما الإيمان وحده، وأنك أيها الرسول لا تقدر على جعله على غير ذلك.. بين هنا أن مدار سعادته على استعمال عقله، في التمييز بين الخير والشر، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار، وبيان الطريق المستقيم الذي يوصل إلى السعادة، وما الدين إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار، إذا أحسن النظر والتفكر اللذين أمر الله تعالى بهما. فليحذر أولئك القوم أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المكذبين فإن سنتنا لا تغيير فيها ولا تبديل فننجي رسلنا والذين آمنوا معهم، ونهلك من كذبهم وندخله سواء الجحيم.

وقال أبو حيان: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما تقدم قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ...﴾ وكان ذلك مشعراً بما حل بالأمم الماضية المكذبة ومصرحاً بهلاكهم في غير ما آية.. أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضية، فقال: ثم ننجي رسلنا، والمعنى: أن الذين خلوا أهلكناهم لما كذبوا الرسل، ثم نجينا الرسل والمؤمنين.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بعد أن أعد قومه بني إسرائيل للخروج من مصر على قدر ما يستطيع من الإعداد الديني والدنيوي، وغرس في قلوبهم الإيمان وحب العزة

والكرامة ونحو ذلك، وتوجه إلى الله أن يتم أمره ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾؛ أي: أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم ﴿زِينَةً﴾؛ أي: ما يتزين به من حلي وحلل، وآنية وماعون، وأثاث ورياش ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ كثيرة من صامت وناطق، أي: من ذهب وفضة وزروع وأنعام، يتمتعون بها، وينفقون منها في حظوظهم وشهواتهم. فالمراد[1] بالزينة: ما يتزين به من ملبوس ومركوب وغلمان وحلية وفراش وسلاح، وأثاث البيت الفاخر والأشياء الجميلة، والمال ما زاد على هذه الأشياء، من الصامت ونحوه ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم كرر النداء تأكيداً للدعاء والاستغاثة فقال: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا، آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾؛ أي: لتكون عاقبة ذلك إضلال عبادك، عن السبيل الموصلة إلى مرضاتك، باتباع الحق والعدل وصالح العمل. والمعنى[2]: إنك آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها، ويتبعوا سبيلك، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروها، وضلوا عن سبيلك، وأضلوا غيرهم. وقد جرت[3] سنّة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان، وتخضع رقاب الناس لأربابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾. وقد أثبت البحث والتنقيب في نواويس قبور المصريين التي كشفت حديثاً، وفيما حفظ في دور الآثار المصرية، وغيرها من العواصم الأوروبية، ما يشهد بكثرة تلك الأموال، ووجود أنواع من الزينة والحلي، لم تكن لتخطر على البال، ويدل على أرقى أنواع المدنية والحضارة التي لاتضارعها مدنية العصر الحاضر، مع ما بلغه العلم والرقي العقلي في الإنسان.

قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ وقد اختلف[4] في هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال: الخليل وسيبويه: إنها لام العاقبة والصيرورة، والمعنى: أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه، أعطاهم ما أعطاهم من النعم، ليضلوا، فتكون اللام على هذا، متعلقة بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾. وقيل إنها لام كي؛ أي:

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

(٤) الشوكاني.

أعطيتهم لكي يضلوا. وقال قوم: إن المعنى: أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا، فحذفت لا، كما قال سبحانه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾. قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن، إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن، فموه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ وقيل: اللام للدعاء عليهم، والمعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، واستدل هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: ﴿اطمس﴾ و﴿اشدد﴾. وقد أطال صاحب «الكشاف» في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الأول هو الأولى، كما اقتصرنا عليه في حلّ الآية.

وقرأ[1] أبو الفضل الرقاشي ﴿أإنك آتيت﴾ على الاستفهام. وقرأ الكوفيون وقتادة والأعمش وعيسى والحسن والأعرج بخلاف عنهما: ﴿ليضلوا﴾ بضم الياء من أضلّ الرباعي. وقرأ الحرميان، نافع وابن كثير والعربيان، أبو عمرو وابن عامر ومجاهد وأبو رجاء والأعرج وشيبة وأبو جعفر، وأهل مكة، بفتحها من ضل الثلاثي. وقرأ الشعبي: بكسرها والى بين الكسرات الثلاث.

ولما قدم ذكر الأموال، وهي أعز ما ادخر، دعا بالطموس عليها، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: ربنا امحق أموالهم، وأهلكها بالآفات التي تستأصل زروعهم، والجوائح التي تهلك أنعامهم، وتنقص مكاسبهم، فيذوقوا ذل الحاجة. وقرأ الشعبي وفرقة ﴿اطمس﴾ بضم الميم، وهي لغة مشهورة. قال ابن[2] عباس ومحمد بن كعب، صارت دراهمهم حجارة منقوشة صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن، إلا طمس عليه، فلم ينتفع بها أحد بعد. وقال قتادة بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة. وقال مجاهد أهلكها حتى لا ترى ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: اجعلها قاسية ومربوطة حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب[3] للدعاء أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وإنما دعا موسى عليهم بهذا الدعاء، لما علم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

أن سابق قضاء الله وقدره فيهم أنهم لا يؤمنون، فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم؛ أي: واطبع[1] على قلوبهم وزدها قسوة على قسوتها، وإصراراً وعناداً فيستحقوا شديد عقابك، ولا يؤمنوا إلا إذا رأوا عذابك، ولا ينفعهم إيمانهم إذ ذاك.

وسبب غضبة موسى: أنه عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضاً مكرراً، وردد عليهم المواعظ والنصائح، ردحاً من الزمن، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما هم عليه من الكفر والضلال المبين، ثم لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعتواً واستكباراً في الأرض، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالاختبار أنه لا يكون منهم إلا الضلال، وأن إيمانهم كالمحال، فاشتد عليهم ومقتهم ودعا عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، إذ لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا، ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه، ويسيرون قُدُماً في طريق الغي والهلاك.

وخلاصة ذلك: كأنه قيل: فليثبتوا على ضلالهم، وليطبع الله على قلوبهم، فلا يؤمنوا وما عليّ منهم، هم أهل لذلك وأحق به، وما مثله إلا مثل قول الأب المشفق على ولده، الذي انحرف عن جادة الاستقامة، ولم يقبل منه نصيحة: فلتمض في غوايتك، ولتعث في الأرض فساداً وهو لا يريد غوايته بل حرداً وغضباً.

وقد روي أن موسى دعا بهذا الدعاء، وهارون، عليه السلام، كان يؤمّن على دعاء أخيه ومن ثم قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾؛ أي: قال[2] الله سبحانه وتعالى لموسى وهارون: قد قبلت دعوتكما. في فرعون وملئه وأموالهم، فموسى كان يدعو وهارون كان يؤمن، والتأمين دعاء، وحصل المدعو به، بعد أربعين سنة؛ لأن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة. وقرأ ابن السميقع: ﴿قد أجبت دعوتكما﴾ خبراً عن الله تعالى، ونصب دعوة. وقرأ الربيع: ﴿قد

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

أجبت دعوتيكما﴾ وهذا يؤكد قول من قال: إن هارون دعا مع موسى.

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾؛ أي: فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة، وإلزام الحجة ولا تستعجلا؛ أي: فامضيا لأمري، واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق، ومن إعداد شعبكما للكفاح والجلاد والخروج من مصر ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ولا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون سنّتي في خلقي، فيستعجلا الأمر قبل ميقاته، ويستبطئا وقوعه في حينه؛ أي: ولا تسلكا طريق الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجاباً كان المقصود حاصلاً في الحال، والاستعجال، وعدم الوثوق بوعد الله يصدران من الجهال.

وفي سفر الخروج[1] من التوراة ما يدل على استجابة دعاء موسى، فقد كانت تنزل النوازل على مصر وأهلها، فيلجأ فرعون إلى موسى حين كل نازلة منها ليدعو ربه فيكشفها عنهم، فيؤمنوا به حتى إذا كشفها قسى الرب تعالى قلب فرعون، فأصر على كفره. وقرأ الجمهور[2]: ﴿تتبعان﴾ بتشديد التاء والنون، وابن عباس وابن ذكوان، بتخفيف التاء والنون على النفي، لا على النهي. وابن ذكوان أيضاً بتشديد التاء وتخفيف النون. وفرقة: بتخفيف التاء وسكون النون. وروى ذلك الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن ابن عامر، فأما شد النون فعلى أنها نون التوكيد الشديدة، لحقت فعل النهي المتصل به ضمير الاثنين، وأما تخفيفها مكسورةً فقيل: هي نون التوكيد الخفيفة وكسرت كما كسرت الشديدة، لكون الكسر الأصل ولكونهما أشبهتا نون التثنية.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: جعلناهم مجاوزين بحر السويس، وسمي بحر القلزم، بأن جعلناه يبسا، وحفظناهم حتى بلغوا الشط، أي: جاوز بنو إسرائيل البحر بمعونة الله، تعالى، وقدرته وحفظه، وكان آيةً من آياته لنبيه موسى، عليه السلام، بفرقه تعالى بهم البحر. وقرأ الحسن: ﴿وجوزنا﴾ وهما لغتان.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

قال أهل التفسير[1]: اجتمع يعقوب وبنوه على يوسف، وهم اثنان وتسعون، وخرج بنوه مع موسى من مصر، وهم ست مئة ألف، وذلك لما أجاب الله تعالى، دعاء موسى وهارون.. أمرهما بالخروج ببني إسرائيل من مصر، فخرجوا وقد كان فرعون غافلاً عن ذلك، فلما سمع بخروجهم، خرج بجنوده في طلبهم، فلما أدركهم، قالوا لموسى: أين المخلص، والبحر أمامنا والعدو وراءنا، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فانفلق، فقطعه موسى وبنو إسرائيل، فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم، وكان معه ثمانية آلاف حصان على لون حصانه، سوى سائر الألوان، وكان يقدمهم جبريل على فرس أنثى وميكائيل يسوقهم حتى لا يشذ منهم أحد فدنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يتمالك فرعون من أمره شيئاً، فنزل البحر وتبعه جنوده، حتى إذا اكتملوا جميعاً في البحر، وهم أولهم بالخروج، انطبق البحر عليهم، ولا يخفى عليك ما في هذه القصة من الخيالات الإسرائيلية.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾؛ أي: فلحقهم وأدركهم في مجاوزة البحر ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾؛ أي: ظلماً وعدواناً، أو ظالمين عادين عليهم؛ أي: مفرطين في محبة قتلهم ومجاوزين الحد، ليفتكوا بهم، أو يعيدوهم إلى مصر، ليسوموهم سوء العذاب ويجعلوهم عبيداً لهم. وقيل: إن البغي طلب الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو في الفعل، وخاض البحر مع جنوده وراءهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾؛ أي: حتى إذا أشرف على الغرق وناله، ووصله وألجمه ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ وصدقت ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: بأن الشأن والحال ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ﴿إِلَّا﴾ الرب ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ﴾؛ أي: صدقت بوحدانيته وانقادت لأمره ﴿بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى، عليه السلام، ﴿وَأَنَا۠﴾ الآن ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من المنقادين لأوامره، كما انقادوا، وأنا ممن أذعنوا لأمره بعد ما كان مني من جحود بآياته، وعنادٍ لرسوله موسى، عليه السلام، وقرأ الحسن[2] وقتادة: ﴿فاتبعهم﴾ بتشديد التاء. وقرأ الجمهور ﴿وجاوزنا فأتبعهم﴾

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

رباعياً. وقرأ الحسن: ﴿وعدوا﴾ بضم العين وتشديد الواو، بوزن علا يعلو علواً، وتقدم في الأنعام، وعدواً وعدواً. من العدوان. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿أنه﴾ بفتح الألف، والمعنى آمنت بأنه على حذف الباء، فلما حذف حرف الجر وصل الفعل إلى أن ففتح. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿إنه﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف ابتداء كلام، أو بدلاً من آمنت، أو على إضمار القول؛ أي: قائلاً إنه.

ولما لحقه من الدهش ما لحقه كرر[1] المعنى الواحد بثلاث عبارات، حرصاً منه على القبول المفضي إلى النجاة، ولكن هيهات، فقد فات الوقت، وجاء الإيمان حين اليأس، وهو لا يجدي فتيلاً ولا قطميراً، وهذا ما بينه سبحانه بقوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾؛ أي؛ وقيل له: أتسلم الآن حين يئست من الحياة، وأيقنت بالممات، وقد عصيت وخالفت أمر ربك قبل ذلك، وضيعت التوبة في وقتها، وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في الأرض الظالمين للعباد، الغالين في الضلال والإضلال عن الإيمان، فدعواك الإسلام الآن لا تقبل، فقد صار إسلامك اضطراراً، لا اختياراً، ولم[2] يقبل ذلك من فرعون؛ لأنه إنما آمن عند نزول العذاب، وإنما أقر بعزة الربوبية ووحدانية الله تعالى، ولم يقر بنبوة موسى؛ ولأن ذلك الإقرار كان مبنياً على محض التقليد، وهو كان دهرياً منكراً لوجود الصانع، وإنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة.

وخلاصة المعنى[3]: آلآن تقر لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهية، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض الصادين عن سبيله، فهلا أقررت بما أقررت به الآن، وباب التوبة لك منفتح، والمقصود من الاستفهام في قوله: ﴿الآن﴾ التقريع والتوبيخ له.

---

(١) المراغي. (٢) المراح. (٣) المراغي.

وقد اختلف[1] في من القائل لفرعون بهذه المقالة، فقيل: هي من قول الله سبحانه، وقيل: من قول جبريل، وقيل: من قول ميكائيل، وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. والظاهر[2] أن قوله: ﴿ءَآلْئَٰنَ﴾ إلى آخره من كلام الله تعالى، على لسان ملك، ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾؛ أي: فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك؛ أي: على مكان مرتفع من الأرض، ينظر إليك من كذب بهلاكك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾؛ أي: لتكون عبرة لمن بعدك من الناس، يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله، والكفر به، والسعي في الأرض بالفساد، وهذا آخر مقول جبريل. ووجه[3] العبرة في ذلك أنه يكون شاهداً على صدق وعد الله لرسله، ووعيده لأعدائهم، كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم، والمعنى: ليعرفوا عبوديتك ويبطل دعوى ألوهيتك؛ لأن الإله لا يموت.

قال أهل التفسير[4]: لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه، وأخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون، وإنما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله، فأمر الله عزّ وجلّ البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً، كأنه ثور، فرآه بنو إسرائيل فعرفوه، فمن ذلك الوقت، لا يقبل الماء الميت أبداً، ولكن تحديد هذه البداية لا أصل له. ومعنى قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ يعني: نلقيك وأنت جسد لا روح فيه، وقيل: هذ الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء، كأنه قيل له: ننجيك، ولكن هذه النجاة، إنما تحصل لبدنك لا لروحك، وقيل: أراد بالبدن الدرع، وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف به، فلمّا رأوه في درعه ذلك عرفوه.

قرأ الجمهور[5]: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالتشديد من التنجية. وقرأ يعقوب: ﴿ننجيك﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) الخازن.
(٥) البحر المحيط.

مخففاً مضارع أنجى. وقرأ أبي وابن السميقع ويزيد البربري: ﴿ننحيك﴾ بالحاء المهملة من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود.

ومعنى ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالجيم، نلقيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق، وقالوا هو أعظم شأناً من ذاك، فألقاه الله على نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه. وقيل، المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر، ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق. ومعنى: ﴿ننحيك﴾ بالحاء المهملة نطرحك على ناحية من الأرض مما يلي البحر. قال كعب: رماه البحر إلى الساحل كأنه ثور. وقرأ أبو حنيفة ﴿بأبدانك﴾. ورويت عن ابن مسعود أيضاً؛ أي: بدروعك، أو جعل كل جزء من البدن بدناً كقولهم ثابت مفارقه. واختلف[1] المفسرون في معنى ﴿بِبَدَنِكَ﴾ فقيل معناه: بجسدك بعد سلب الروح، منه قاله مجاهد. وقيل معناه: بدرعك، قاله: صخر، والدرع يسمى بدناً ومنه قول كعب:

تَرَىٰ الأَبْدَانَ فِيهَا مُسْبَغَاتٌ عَلَىٰ ٱلأَبْطَالِ وَٱلْيَلَبَ ٱلْحَصِينَا

أراد بالأبدان الدروع. وقد ذكرنا أنه كان له درع من ذهب فعرف بدرعه. وقيل: نلقيك عرياناً قاله: الزجاج. وقيل: ننجيك وحدك، قاله ابن قتيبة، ورجح القول بأن المراد بالبدن هنا، الجسد.

وقرأ ابن مسعود[2] وابن السميقع ﴿بندائك﴾ مكان ببدنك؛ أي: بدعائك بقولك: آمنت إلى آخره، لنجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع أو بما ناديت به في قومك كما حكاه عنه سبحانه ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾. والمراد[3] بالآية في قوله: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ العلامة؛ أي: لتكون لمن خلفك، وبعدك من الناس، علامة يعرفون بها هلاكك، وأنك لست كما تدعي، ويندفع عنهم الشك

---

(١) زاد المسير والشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

في كونك قد صرت ميتاً بالغرق. وقيل: المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آيةً من آيات الله يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سأل من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر، والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية، واستمر على ذلك دهراً طويلاً، كانت له هذه العاقبة القبيحة.

وقرىء(١): ﴿لمن خلفك﴾ على صيغة الفعل الماضي بفتح اللام؛ أي: من الجبابرة والفراعنة، ليتعظوا بذلك ويحذروا أن يصيبهم ما أصابك إذا فعلوا فعلك. وقرأ ابن السميقع وأبو المتوكل وأبو الجوزاء ﴿لمن خلقك﴾ بالقاف من الخلق وهو الله، سبحانه وتعالى، أي: ليجعلك الله آية له في عباده.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ ودلائل قدرتنا التي توجب الاعتبار والتفكر في مصنوعاته، وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾؛ أي: لساهون عمّا توجبه الآيات من التيقظ وهذه الجملة تذييلية؛ أي: وإن كثيراً من الناس لفي غفلة عن حججنا وأدلتنا، على أن العبادة له وحده خالصةً، فهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها، وفي ذلك إيماءٌ إلى ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث وعواقبها، واستبانة سنن الله فيها، للعظة والاعتبار ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ هذا من جملة ما عدد الله سبحانه وتعالى من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أنزلنا وأسكنا بني إسرائيل بعد ما أنجيناهم، وأهلكنا أعداءهم منزلاً صالحاً مرضياً، وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية، وهي بلاد فلسطين والأردن. وقيل: أرض الشام ومصر، فالشام بلاد البركة والخصب، وأورثهم الله تعالى جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه. وهذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾. والمبوأ اسم مكان أو مصدر، كما سيأتي في مبحث التصريف، وإضافته إلى الصدق على ما

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.

جرت عليه عادة العرب، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، كما مر في أول هذه السورة، والمراد به هنا المنزل المحمود المختار.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: وأعطيناهم المستلذات من الرزق فيها وقد جاء وصفها في كتبهم، بأنها تفيض لبناً وعسلاً، وفيها كثير من الغلات والثمرات والأنعام وصيد البر والبحر. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمر دينهم، وتشعبوا فيه شعباً، بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: لم يقع منهم الاختلاف في الدين إلا بعدما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة و علمهم بأحكامها، وما اشتملت عليه من الإخبار بنبوة محمد ﷺ.

وقيل المعنى: إنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، وهو القرآن النازل على محمد، ﷺ، فاختلفوا في نعته وصفته، وآمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر، فيكون المراد بالمختلفين على القول **الأول**: هم اليهود، بعد أن أنزلت عليهم التوراة، وعلموا بها، وعلى القول **الثاني**: هم اليهود المعاصرون لمحمد، ﷺ، وقيل[1] العلم، بمعنى: المعلوم، وهو محمد، ﷺ، لأن رسالته كانت معلومة عندهم، مكتوبة في التوراة، وكانوا يستفتحون به؛ أي: يستنصرون به في الحروب، يقولون: اللهم بحرمة النبي المبعوث في آخر الزمان، انصرنا فينصرون. فلما جاء قالوا: النبي الموعود به من ولد يعقوب، وهذا من ولد إسماعيل، فليس هو ذاك، فآمن به بعضهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه. وقيل: العلم القرآن، كما مر، واختلافهم فيه قول بعضهم: هو من كلام محمد، وقول بعضهم: من كلام الله، وليس لنا إنما هو للعرب، وصدق به قوم فآمنوا؛ أي: فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد أن علموا بقراءة التوراة والوقوف على أحكامها، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد، ﷺ، مجمعين على نبوته والإقرار به وبمبعثه غير مختلفين فيه، بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوباً عنده، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض وآمن به آخرون.

---

(١) البحر المحيط.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد سبحانه وتعالى ﴿يَقْضِى﴾ ويحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: بين بني إسرائيل المختلفين، أو بين سائر الناس على العموم ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والمحق بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل؛ أي: إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته في دار الدنيا، بل سيقضي الله بينهم في الآخرة، فيميز المحقين من المبطلين، ويدخل الأولين الجنة والآخرين النار، وبئس القرار ﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِى شَكٍّ﴾ وارتياب ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: في حقيقة ما أنزلنا إليك، والشك في موضوع اللغة خلاف اليقين، والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين، أو لعدم الأمارة، والشك ضرب من الجهل، وهو أخص منه، فكل شك جهل، وليس كل جهل شكا. فإذا قيل: فلان شك في هذا الأمر، فمعناه: توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه. وظاهر هذا الخطاب في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أنه للنبي، ﷺ، والمعنى: فإن كنت يا محمد، في شك مما أنزلنا إليك يعني من حقيقة ما أخبرناك به، وأنزلناه يعني القرآن، أو المعنى: فإن كنت أيها الرسول في شك مما قلناه في تلك الشواهد، من قصة هود ونوح وموسى وغيرهم فرضاً وتقديراً ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: الذين يقرؤون كتب الأنبياء من قبلك، كاليهود والنصارى، يخبروك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وأنك نبي يعرفونك بصفتك عندهم، أو يعلمون أن ما أنزلناه إليك من القصص حق، لا يستطيعون إنكاره. وقرأ يحيى وإبراهيم: ﴿يقرؤون الكتب﴾ على الجمع. وقد توجه[1] ههنا سؤال واعتراض، وهو أن يقال: هل شك النبي، ﷺ، فيما أنزل عليه، أو في نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك؟ وإذا كان شاكاً في نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه. قلت: الجواب عن هذا السؤال، والاعتراض، ما قاله القاضي عياض: في كتابه «الشفاء» فإنه أورد هذا السؤال، ثم قال: احذر ثبت الله قلبك، أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين، عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك النبي، ﷺ،

(١) الخازن.

فيما أوحى إليه فإنه من بشر. فمثل هذا لا يجوز عليه، ﷺ جملة، بل قد قال ابن عباس: لم يشك النبي، ﷺ، ولم يسأل، ونحوه عن سعيد بن جبير، والحسن البصري، وحكي عن قتادة أنه قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «ما أشك ولا أسأل» وعامة المفسرين على هذا، تم كلام القاضي عياض رحمه الله. ثم اختلفوا في معنى الآية، ومن المخاطب بهذا الخطاب، على قولين:

أحدهما: أن الخطاب للنبي، ﷺ، في الظاهر، والمراد به غيره، فهو كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ومعلوم أن النبي، ﷺ، لم يشرك، فثبت أن المراد به غيره، ومن أمثلة العرب إياك أعني واسمعي يا جارة. فعلى هذا يكون معنى الآية: قل يا محمد: يا أيها الإنسان الشاك، إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد، ﷺ، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب، يخبروك بصحته، ويدل على صحة هذا التأويل، قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الآية. فبين أنَّ المذكور في هذه الآية، على سبيل الرمز، هو المذكور في تلك الآية على سبيل التصريح، وأيضاً لو كان النبي ﷺ شاكاً في نبوته.. لكان غيره أولى بالشك في نبوته، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية، معاذ الله من ذلك.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى علم أن النبي، ﷺ، لم يشك قط، فيكون المراد بهذا التهييج، فإنه، ﷺ، إذا سمع هذا الكلام يقول: لا أشك يا رب، ولا أسأل أهل الكتاب، بل أكتفي بما أنزلته عليّ من الدلائل الظاهرة.

وقال الزجاج: إن الله سبحانه وتعالى، خاطب الرسول، ﷺ، في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ وهو شامل للخلق فهو كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وهذا وجه حسن، لكن فيه بعد، وهو أن يقال: متى كان الرسول، ﷺ، دخلاً في هذا الخطاب، كان الاعتراض موجودا، والسؤال وارداً. وقيل: إن لفظة ﴿إن﴾ في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ للنفي، وما أنت في شك، مما أنزلنا إليك حتى تسأل، فلا تسأل، ولئن سألت لازددت يقيناً.

والقول الثاني: أن هذا الخطاب ليس هو للنبي ﷺ، ألبتة، ووجه هذا

القول، أن الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق: فرقة له مصدقون وبه مؤمنون، وفرقة على الضد من ذلك، والفرقة الثالثة المتوقفون في أمره، الشاكون فيه، فخاطبهم الله عزّ وجلّ، بهذا الخطاب، فقال: تبارك وتعالى، فإن كنت أيها الإنسان، في شك مما أنزلنا إليك، من الهدى، على لسان محمد، ﷺ، فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وحد الله الضمير في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ﴾ وهو يريد الجمع؛ لأنه خطاب لجنس الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ لم يرد في الآية إنساناً بعينه، بل أراد الجمع.

واختلفوا في المسؤول عنه في قوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ من هم. فقال المحققون من أهل التفسير: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه؛ لأنهم هم الموثوق بأخبارهم. وقيل، المراد: كل أهل الكتاب، سواء مؤمنهم وكافرهم؛ لأن المقصود من هذا السؤال الإخبار بصحة نبوة محمد، ﷺ، وإنه مكتوب عندهم صفته ونعته فإذا أخبروا بذلك، فقد حصل المقصود، والأول أصح. وقال الضحاك يعني أهل التقوى، وأهل الإيمان، من أهل الكتاب، ممن أدرك النبي، ﷺ، ذكره في «الخازن».

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ جَآءَكَ﴾ يا محمد ﴿الحَقُّ﴾ واليقين من الخبر ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بأنك رسول الله حقاً، وإن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: من الشاكين في صحة ما أنزلنا إليك بالتزلزل، عما أنت عليه، من الجزم واليقين، والامتراء: الشك والتردد؛ أي: لقد جاءك الحق الواضح، بأنك رسول الله، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، ويجدون نعتك في كتبهم، فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك. وهذا النهي وما بعده، يدلان على أن فرض الشك والسؤال فيما قبلهما تعريض بالشاكين والمكذبين له من قومه، ممن لم تستنر بصيرتهم بنبوته ﷺ، فأظهروا الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت في قلوبهم، فهم في شك منه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها الرسول ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ممن كذب بآيات الله وحججه في الأكوان، مما يدل على وحدانيته وقدرته على إرسال

الرسل، لهداية البشر ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: فتكون ممن خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان، وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. فالشك والامتراء فيما أنزل إليك، كالتكذيب بآيات الله جحوداً بها، وعناداً، كلاهما سواء في الخسران لحرمان الجميع من الهداية بها والوصول إلى السعادة في الدارين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وثبتت ووجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: قضاؤه وحكمه الذي كتبه في اللوح المحفوظ، بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في النار، بفقدهم الاستعداد للاهتداء لرسوخهم في الكفر والطغيان، وإحاطة خطاياهم بهم وإعراضهم عن آيات الله، التي خلقها في الأكوان بما يرشد إلى وحدانيته، وكمال قدرته ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذب كلامه، ولا ينتقض قضاؤه ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات الكونية، كآيات موسى عليه السلام، التي اقترحوا مثلها عليك، والآيات المنزلة عليك، كآيات القرآن العقلية، الدالة بإعجازها على أنها من عند الله، وعلى حقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم به ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ بأعينهم، ويذوقوه حين ينزل بهم، فيكون إيمانهم، اضطراراً لا اختياراً منهم، كدأب آل فرعون وأشباههم، فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم ويزكيهم، وحينئذٍ لا ينفعهم إيمانهم كما لا ينفع فرعون، ويقال لهم إذ ذاك ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾؛ أي: فهلا كانت ووجدت قرية ﴿ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾؛ أي: فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل، آمنوا بعد دعوتهم، وإقامة الحجة عليهم، فنفعهم إيمانهم قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به.

وخلاصة ذلك: أنه لم يؤمن قوم منهم، بحيث لم يشذ منهم أحد.

قال أبو مالك[1] ـ صاحب ابن عباس ـ: كل ما في كتاب الله تعالى، من ذكر لولا، فمعناه: هلا إلا حرفين ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فمعناه: فما كانت قرية آمنت، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فمعناه: فما كان من القرون،

(١) المراح.

وتقدير الآية: فما كان ووجد أهل قرية آمنوا، فنفعهم إيمانهم في الدنيا ﴿إلا قوم يونس﴾ عليه السلام ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾؛ أي: صرفنا عنهم عذاب الذل ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ الدنيا ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا بعد صرف العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت انقضاء آجالهم. وعبارة «الفتوحات» هنا قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ ﴿لَوْلَآ﴾[1] تحضيضية فيها معنى النفي والتوبيخ، والتحضيض أن يريد الإنسان فعل الشيء الذي يحض عليه.

والحاصل: أن الآية تضمنت تحضيضاً وتوبيخاً ونفياً، فالنفي راجع لمن مضى، والتوبيخ والتحضيض راجعان لمن يسمع، فوبخ الله أهل القرى المهلكة، قبل يونس، قبل نزول العذاب بهم، إلا قوم يونس فإنهم آمنوا قبل نزوله بهم، وذلك حين رؤية أماراته فالفارق بين قوم يونس ومن قبلهم، أن قوم يونس آمنوا قبل نزوله، وذلك عند حضور أماراته وغيرهم لم يؤمن قبل نزوله، أعم من أن يكون آمن وقت نزوله، أو لم يؤمن أصلاً، فبهذا الاعتبار صار بين قوم يونس وغيرهم التباين باعتبار الوصف المذكور، فلم يندرج قوم يونس في غيرهم.

روي[2] أن يونس عليه السلام، بعث إلى نينوى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه، خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجّوا أربعين ليلة، وكان يونس قال لهم: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك.. آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة، ظهر في السماء غيم أسود هائل، فظهر منه دخان شديد، وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة، وسوّد سطوحهم فخرجوا إلى الصحراء وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات وكثرت التضرعات وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، يوم الجمعة.

وعن الفضل بن عباس، أنهم قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلَّت،

---

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

وأنت أعظم وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، وخرج يونس ينتظر العذاب فلم ير شيئاً، هكذا ذكروا، والله أعلم بحقيقة الحال.

والخلاصة[1]: أن قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل، وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم.. صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا، بعد ما أظلهم، وكاد ينزل بهم، ومتعناهم بمتاعها إلى زمن معلوم، وهو الوقت الذي يعيش فيه كل منهم بحسب سنن الله في استعداد بنيته ومعيشته. وفي ذلك تعريض بأهل مكة وإنذار لهم، وحضّ على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا العذاب بعنادهم، حتى إذا أنذرهم نبيهم بقرب وقوعه وخرج من بينهم، اعتبروا وآمنوا قبل اليأس، وقبل أن ينزل بهم البأس.

وقرأ أبي وعبد الله[2]: ﴿فهلا﴾، وكذا في مصحفهما، وقال الزمخشري: وقرىء ﴿إلا قوم يونس﴾ بالرفع على البدل من قرية عن الحرمي والكسائي وتقدم الخلاف في قراءة يونس بضم النون وكسرها، وذكر جواز فتحها.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد إيمان أهل الأرض جميعاً ﴿لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يخرج منهم أحد، حال كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين على الإيمان لا يتفرقون فيه، ولا يختلفون بأن يلجئهم إلى الإيمان قسراً، أو يخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة لا استعداد في فطرتهم، لغير الإيمان، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصحلة التي أرادها الله سبحانه وتعالى، وجاء في معنى الآية قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

وخلاصة ذلك[3]: أنه لو شاء ربك أن لا يخلق الإنسان مستعدّاً بفطرته للخير والشر، والإيمان والكفر، ومرجحاً باختياره لأحد الأمور الممكنة، على ما يقابله بإرادته ومشيئته.. لفعل ذلك، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا، يوازن باختياره بين الإيمان والكفر، فيؤمن بعض ويكفر آخرون.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ولما كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، أخبره الله سبحانه وتعالى، بأن ذلك لا يكون؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ والهمزة[1] فيه للاستفهام التأديبي للنبي، ﷺ، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتحزن يا محمد، على عدم إيمانهم وتتأسف عليه، فأنت تكره الناس؛ أي: تريد أن تجبرهم على الإيمان ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟﴾ كلهم ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ طائعين لله سبحانه وتعالى، فإن ذلك يا محمد ليس في وسعك ولا داخل تحت قدرتك. والمعنى: ليس عليك إلا البلاغ، لا خلق الإيمان في قلوبهم وإكراههم عليه، فإن الأمر كله لله لا خالق سواه؛ أي: إن هذا ليس بمستطاع لك، ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت، وسائر الرسل الكرام. كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾. وفي هذا[2] تسلية للنبي، ﷺ، ودفع لما يضيق به صدره، من طلب صلاح الكل، الذي لو كان، لم يكن صلاحاً محققاً، بل يكون إلى الفساد أقرب، ولله الحكمة البالغة.

ثم بين وعلل سبحانه ما تقدم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما ثبت وما استقام وما صح لنفس من الأنفس أن تؤمن في حال من الأحوال، إلا في حال إرادة الله تعالى الإيمان لها، وتيسيره وتوفيقه ومشيئته لذلك، فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان؛ أي: وما كان لنفس بمقتضى ما أعطاها الله، من الاختيار والاستقلال في الأفعال، أن تؤمن إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى، ومقتضى سننه في الترجيح بين المتقابلين، فالنفس مختارة في دائرة الأسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها استقلالاً تاماً بل مقيدة بنظام السنن والأقدار الإلهية. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ معطوف[3] على محذوف، تقديره: فيريد الله الإيمان للبعض، ويجعل الرجس؛ أي: العذاب أو الكفر أو الخذلان الذي هو سبب العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: على

---

(١) الصاوي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الصاوي.

الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله تعالى، ولا يتفكرون في آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة؛ أي: وإذا[1] كان كل شيء بإذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره، فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته ويوازنون بين الأمور، فيختارون خير الأعمال، ويتقون شرها ويرجحون أنفعها على أضرها بإذنه وتيسيره، ويجعل الخذلان والخزي المرجح للكفر والفجور على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون، إذ هم لخطل رأيهم وسلوك سبيل الهوى، يرجحون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى. وقرأ[2] الحسن وأبو بكر والمفضل وزيد بن علي: ﴿ونجعل﴾ بالنون. وقرأ الأعمش: ﴿ويجعل الله الرجز﴾ بالزاي وفي الرجس لغتان، ضم الراء، وكسرها، والرجز بمعناه.

ولما بين سبحانه وتعالى أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى.. أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قل[3] أيها الرسول لمن تحرص على هدايتهم، من كفار قومك، انظروا بأبصاركم وفكروا وتأملوا ببصائركم، ماذا في السموات والأرض؛ أي: في المخلوق الذي في السموات والأرض، من كواكب نيرات ثوابت وسيارات، وشمس وقمر، وليل ونهار، وسحاب ومطر، وهواء وماء، وليل ونهار. وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر ذاك، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع، والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران، وما في البحر من عجائب، وهو مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق، بتسخير القدير العليم، الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ إنه يريكم كل هذه الآيات، ثم أنتم تشركون، وما أحسن قول الشاعر:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

(٣) المراغي.

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَـىٰ أَنَّـهُ ٱلْـوَاحِـدُ

والخلاصة[1]: قل يا محمد للكفار: تفكروا واعتبروا واتعظوا بما في السموات والأرض، من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته، وكمال قدرته و ﴿مَاذَا﴾: مبتدأ وخبره ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو المبتدأ ﴿ما﴾ فقط و ﴿ذا﴾ بمعنى الذي ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صلته، والموصول وصلته خبر المبتدأ؛ أيْ: أيُّ شيءٍ الذي في السموات والأرض؟ وعلى كلا التقديرين، فالجملة في محل نصب بالفعل الذي قبلها وقرأ[2] الحرميان، نافع وابن كثير، والعربيان أبو عمرو وابن عامر والكسائي؛ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ بضم اللام على نقل ضمة الهمزة إلى اللام. وقرأ باقي السبعة: بكسر اللام على أصل حركة التخلص من التقاء الساكنين. ثم ذكر سبحانه أن التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ﴾؛ أي: وما تنفع الدلائل السماوية والأرضية المذكورة في قوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: والرسل المنذرون ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله تعالى وحكمه وقضائه.

والمعنى: أن من كان هكذا.. لا يجدي فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع، و ﴿ما﴾: نافية؛ أي: ما تنفع، ويجوز أن تكون استفهامية؛ أي: أي شيء ينفع؟ وقرىء: ﴿وما تغنى﴾ بالتاء وهي قراءة الجمهور، وبالياء.

﴿تغني﴾ تنفع[3] وتفيد ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ واحدها نذير؛ أي: إن الآيات الكونية على ظهور دلالتها، والرسل على بلاغة حجتها، لا تجدي نفعاً لقوم لا يتوقع إيمانهم؛ لأنهم لم يوجهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها، على ما تدل عليه من وحدانية الله تعالى، وقدرته، والاعتبار بسننه في خلقه والاستفادة منها فيما يزكي النفس ويرفعها عن الأرجاس والأدناس.

قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ مرتب[4] على قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ﴾ إلخ

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط والصاوي.
(٣) المراغي.
(٤) الفتوحات.

والاستفهام فيه إنكاري بمعنى: النفي؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: إلا يوماً يعاينون فيه العذاب، مثل أيام كفار الأمم الذين مضوا من قبلهم، التي عاينوا فيها العذاب حين كذبوا رسلهم، كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم؛ أي: ما ينتظرون بتكذيبك إلا عذاباً مثل عذاب الأمم الماضية المكذبة لرسلها أهلكناهم جميعاً، والعرب تسمّي العذاب أياماً، والنعمَ أياماً كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾. والمعنى: يقول[1] الله سبحانه وتعالى لنبيه، ﷺ، محذراً مشركي قومه، من حلول عاجل نقمة ربهم بهم، وقد حل بمن قبلهم من سائر الأمم الخالية التي سلكت في تكذيب رسله، وجحودهم مسلكهم هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون، بما جئتهم به من عند الله تعالى، إلا يوماً يعاينون فيه من عذاب الله مثل أيام أسلافهم، الذين كانوا على مثل ما هم عليه من الشرك والتكذيب.

والخلاصة: أنهم ما ينتظرون إلا مثل وقائعهم مع رسلهم، ممَّا بلغهم مبدؤه وغايته، فإن كانوا ينتظرون ذلك العذاب فـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد؛ أي: لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿فَانتَظِرُوا﴾؛ أي: تربصوا لوعد ربكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾؛ أي: من المتربصين لوعد ربي. وفي هذا تهديد شديد، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء، ما نزل بأولئك، من الإهلاك، إن لم يؤمنوا؛ أي: قل لهم منذراً مهدداً انتظروا عقاب الله، ونزول سخطه بكم، إني من المنتظرين هلاككم بالعقوبة التي تحل بكم وإني على بينة بما وعد الله به وصدق وعده للمرسلين، وإن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون من الهالكين.

و ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: أهلكنا الأمم، ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معطوف على رسلنا؛ أي: نجيناهم ونجينا الذين آمنوا. والتعبير بلفظ المضارع لاستحضار صورة الحال الماضية، تهويلاً لأمرها؛ أي: إن سنتنا في رسلنا

---

(١) المراغي.

السابقين على محمد مع أقوامهم، الذين يبلغونهم الدعوة ويقيمون عليهم الحجة، وينذرونهم سوء عاقبة التكذيب، فيؤمن بعض، ويصرّ آخرون على الكفر، أن نهلك المكذبين وننجي رسلنا والذين آمنوا بهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة[1] لمصدر محذوف؛ أي: إنجاء مثل ذلك الإنجاء، فهو مفعول مطلق، والعامل فيه قوله: ﴿ننج المؤمنين﴾. وقوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراض؛ أي: وحق ذلك علينا حقاً، أي: وجب وتحتم بمقتضى الفضل والكرم؛ أي: إنجاء مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول، ونهلك المصرين على تكذيبك وعدنا ذلك وعداً حقاً علينا لا نخلفه، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾. وقرأ[2] يعقوب: ﴿ثم ننجي﴾ مخففاً وقرأ الباقون ﴿ثم ننجي﴾ بالتشديد وبثبوت الياء خطاً ولفظاً. وقرأ حفص والكسائي ويعقوب: ﴿ننجي﴾ بالتخفيف والباقون بالتشديد، وتحذف منه الياء خطاً إتباعاً لرسم المصحف. قاله «السمين» وفي اللفظ، إن وصل بما بعده، فحذفها ظاهر لأجل التقاء الساكنين، وإن وقف عليه وجب حذفها في النطق أيضاً، تبعاً لرسم المصحف ا هـ «شيخنا». والتشديد والتخفيف في ﴿ننجي﴾ كلاهما لغتان فصيحتان أنجى ينجي إنجاءً، ونجى ينجي تنجيةً، بمعنى واحد. ومعنى الآية: أهلكنا[3] المكذبين ثم نجينا رسلنا المرسلة إليهم والذين آمنوا بهم؛ لأن العذاب لا ينزل إلا على الكفار كذلك؛ أي: مثل ذلك الإنجاء الذي نجينا الرسل، ومن آمن بهم، ننج المؤمنين بك يا محمد، من كل شدة وعذاب، وجب ذلك علينا وجوباً بحسب الوعد والحكم، لا بحسب الاستحقاق، لأن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً.

الإعراب

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا

---

(١) الفتوحات.
(٢) الشوكاني والفتوحات.
(٣) المراح.

﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: الواو: استئنافية. ﴿قال موسى﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول؛ لأن أتى هنا بمعنى: أعطى. ﴿وَمَلَأَهُۥ﴾ معطوف على فرعون ﴿زِينَةً﴾ مفعول ثانٍ ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾: معطوف عليه ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ متعلق بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾ وجملة ﴿ءَاتَيْتَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿لِيُضِلُّواْ﴾: اللام: حرف جر وعاقبة، ﴿يضلوا﴾: فعل مضارع منصوب ﴿بأن﴾ مضمرة جوازاً بعد لام العاقبة ﴿والواو﴾ فاعله. ﴿عَن سَبِيلِكَۖ﴾: متعلق به والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإضلالهم عن سبيلك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف كرره للتأكيد، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿ٱطْمِسْ﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء ﴿وَٱشْدُدْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿ٱطْمِسْ﴾ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق به ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ الفاء: عاطفة سببية ﴿لا﴾: نافية ﴿يُؤْمِنُواْ﴾ فعل وفاعل منصوب ﴿بأن﴾ مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية، الواقعة في جواب الدعاء، سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك، لإصلاح المعنى، تقديره: وليكن شدك قلوبهم يا الله فعدم إيمانهم ويصح أن يكون قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾: معطوفاً على ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ وما بينهما دعاء معترض، ذكره «أبو السعود». ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿يَرَوُاْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾: صفة له والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المضمرة ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في

تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى رؤيتهم العذاب الأليم الجار والمجرور متعلق بيؤمنوا.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ أُجِيبَت﴾ إلى آخر الآية مقول محكي: وإن شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿استقيما﴾: فعل أمر، وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُجِيبَت﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَتَّبِعَانِّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأمثلة الخمسة، والألف ضمير للمثنى المذكر المخاطب في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد، حرف لا محل لها من الإعراب مبني على الكسر، وإنما كسرت مع أن الأصل في نون التوكيد البناء على الفتح تشبيهاً لها بنون المثنى، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾.

﴿وَجَاوَزْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاوزنا﴾ ﴿الْبَحْرَ﴾: منصوب على الظرفية ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾: فعل ومفعول وفاعل والفاء: عاطفة ﴿وَجُنُودُهُ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿جاوزنا﴾. ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾: مفعولان لأجله؛ أي: لأجل البغي والعدو وشروط النصب متوفرة، ويجوز أن يكونا مصدرين في موضع الحال؛ أي: باغين وعادين. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض

بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي.

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: تقديره ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ إلى قوله: آمنت وقت إدراك الغرق إياه الجار والمجرور متعلق ﴿بأتبع﴾. ﴿ءَامَنتُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف تقديره موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾ المحذوف، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾ المفتوحة في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: آمنت بعدم وجود إله، إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ءَامَنتُ﴾ وقراءة كسر همزة ﴿إِنَّ﴾ على تقدير القول؛ أي: قائلاً. ﴿ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ءَامَنتُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف تقديره: أتؤمن الآن، والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، والجملة المحذوفة في محل الرفع نائب فاعل لقول محذوف، تقديره: قيل له: الآن تؤمن، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿عَصَيْتَ﴾: فعل وفاعل ﴿قَبْلُ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على الضم، لقطعه عن الإضافة، والظرف متعلق بـ ﴿عَصَيْتَ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب حال

من فاعل تؤمن المحذوف، الذي تعلق به ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾. ﴿وَكُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ خبره والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿عصيت﴾.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾: الفاء: عاطفة تفريعية ﴿اليوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بما بعده ﴿نُنَجِّيكَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِبَدَنِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من الكاف؛ أي: ننجيك ملتبساً ببدنك فقط، لا مع روحك، كما هو مطلوبك، فهو تخييب له وحسم لطمعه، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة أتؤمن الآن على كونها نائب فاعل للقول المحذوف، تقديره: قيل له أتؤمن الآن، فاليوم ننجيك ببدنك. ﴿لِتَكُونَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام كي واسمها ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾. ﴿لِمَنۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَكُونُ﴾ أو حال من آية لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿خَلۡفَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة من الموصولة ﴿ءَايَةٗۚ﴾: خبر ﴿تَكُونُ﴾ وجملة ﴿أَنۡ﴾ المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لكونك آية لمن خلفك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نُنَجِّيكَ﴾ ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا﴾ ناصب واسمه ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ صفة لـ ﴿كَثِيرٗا﴾ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ ﴿غافلون﴾ ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة مستأنفة اعتراضية تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: الواو: استئنافية. اللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿بَوَّأۡنَا﴾ وهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: مبوأ

صادقاً، ومنزلاً حسناً، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم مستأنفة ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿رزقناهم﴾ وهو في محل المفعول الثاني، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَوَّأْنَا﴾ ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿رزقناهم﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل النصب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى مجيء العلم إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَقْضِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرب. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَقْضِى﴾. وكذا يتعلق به ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وجملة ﴿يَقْضِى﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَقْضِى﴾ أيضاً. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: استئنافية ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فِى شَكٍّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِّمَّآ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿شَكٍّ﴾ و ﴿مِن﴾ بمعنى في. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما أنزلناه إليك. ﴿فَسْـَٔلِ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿اسأل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول أول لسأل والثاني محذوف، تقديره: عنه. ﴿يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿يقرؤون﴾، وجملة ﴿يقرؤون﴾: صلة الموصول، وجملة سأل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿لَقَدْ﴾

اللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أو متعلق بـ ﴿جاء﴾ والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾ فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ ﴿لا﴾ مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿تَكُونَنَّ﴾: معطوفة مفرعة على جملة ﴿جاء﴾ على كونها جواب القسم المحذوف، فلا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تكون﴾ وجملة ﴿تكون﴾ معطوفة على جملة ﴿تَكُونَنَّ﴾ الأولى ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بآيات الله﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿فَتَكُونَ﴾ الفاء: عاطفة سببية. ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: خبرها وجملة ﴿تكون﴾ صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن تكذيبك بآيات الله فكونك من الخاسرين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿حَقَّتْ﴾: فعل ماض ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: اعتراضية. ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول،

والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبلها، تقديره: لا يؤمنون بها، وجملة ﴿لو﴾ معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين الجار ومتعلقه. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾ صفة للعذاب والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى، تقديره: إلى رؤيتهم العذاب الأليم الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَلَوْلَا﴾: الفاء: استئنافية، ﴿لولا﴾: تحضيضية مضمنة معنى النفي. ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ فعل وفاعل لأن ﴿كان﴾ هنا تامة. ﴿ءَامَنَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿قَرْيَةٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿قَرْيَةٌ﴾ وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة. ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَتْ﴾ على كونها صفة لـ ﴿قَرْيَةٌ﴾ ولكنها صفة سببية. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿يُونُسَ﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط غير جازم ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾. ﴿كَشَفْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ مستأنفة. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ متعلق بـ ﴿كَشَفْنَا﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة. ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَشَفْنَا﴾ على كونها جواب لما.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾. ﴿لَءَامَنَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿آمن من﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فِى

﴿ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة من الموصولة. ﴿كُلُّهُمْ﴾ توكيد لـ ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿جَمِيعًا﴾ حال منها. ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة للاستفهام التأديبي داخلة على محذوف تقديره: أتحزن وتتأسف على عدم إيمانهم. الفاء: عاطفة ﴿أنت﴾ مبتدأ. ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ خبره والجملة في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى تقديره: إلى كونهم مؤمنين الجار والمجرور متعلق بتكره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِنَفْسٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم. ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾: ناصب وفعل وفاعله ضمير يعود على النفس. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُؤْمِنَ﴾ وجملة: ﴿تُؤْمِنَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الإيمان إلا بإذن الله، كائناً لنفس، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية معطوفة على محذوف، تقديره: فيأذن الله لبعضهم في الإيمان ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَجْعَلُ﴾. وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ صلة الموصول.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱنظُرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول محكي. ﴿مَاذَا﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ لتعليق العامل، وهو ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ عنها

بالاستفهام. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة الموصول. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَا﴾: الواو حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: معطوف على الآيات. ﴿عَن قَوْمٍ﴾: متعلق بـ ﴿تغني﴾. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قَوْم﴾ والجملة الفعلية في محل النصب حال من واو ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ والتقدير: انظروا، والحال أن النظر لا ينفعكم.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

﴿فَهَلْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الآيات لا تغني فيهم شيئاً، وأردت بيان عاقبتهم. فأقول لك. ﴿هل ينتظرون﴾: ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿يَنتَظِرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿خَلَوْا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: متعلق بـ ﴿خَلَوْا۟﴾ وجملة ﴿يَنتَظِرُونَ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا وأردت بيان ما تقول لهم فأقول لك. ﴿انتظروا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿مَعَكُم﴾: متعلق بـ ﴿ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ فعل ومفعول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه

وفاعله ضمير يعود على الله. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول وجملة ﴿نُنَجِّى﴾ معطوفة على محذوف تقديره: نهلك الأمم المكذبة لرسلنا ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كذلك صفة لمصدر محذوف، والعامل فيه ننج؛ أي: إنجاء مثل ذلك الإنجاء ننج المؤمنين. ﴿حَقًّا﴾: مصدر مؤكد لفعله المحذوف، تقديره: حق ذلك الإنجاء علينا حقاً، ووجب وجوباً بمقتضى وعدنا ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بالعامل المحذوف، وجملة الفعل المحذوف معترضة، لاعتراضها بين العامل والمعمول جيء بها للتأكيد. ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة مستأنفة. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ الزينة: الحلل والحلي والأثاث والرياش والماعون. والأموال ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك. قال ابن عباس: كان من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة، جبال فيها ذهب وفضة، وزبرجد وياقوت، اهـ كرخي. وفي «المصباح» الفسطاط بضم الفاء وكسرها: مدينة مصر قديماً. ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وفي «المختار» طمس الطريق، من باب دخل، وجلس، وطمسه إذا غيره، من باب ضرب، فهو متعد ولازم. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: غيرها كما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ اهـ. والطمس: إزالة أثر الشيء بالمحو. ومعنى اطمس على أموالهم: أزل صورها وهيئاتها، وقال مجاهد: أهلكها. وقال أكثر المفسرين: امسخها وغيرها عن هيئاتها، ويقال: طمس الأثر وطمسته الريح، إذا زال. ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسّها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان. ومعنى الشد على القلوب: الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان. وفي «المختار» شده يشده، من باب نصر ويشده ـ من باب ضرب ـ شدا فيهما إذا أوثقه اهـ. والشد على القلب: الطبع عليه، وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان. ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ بتشديد التاء من اتبع الخماسي وتخفيفها من تبع الثلاثي، يقال: تبعه إذا مشى خلفه، واتبعه إذا أدركه ولحقه. ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ من جاوز

المكان إذا تخطاه وخلفه وراءه، والباء للتعدية؛ أي: جعلناهم مجاوزين البحر، بأن جعلناه يبساً وحفظناهم حتى بلغوا الشط، ا هـ «أبو السعود». ويقال: جاز المكان، وجاوزه وتجاوزه، إذا قطعه حتى خلفه وراءه. وقوله: ﴿ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: بحر القلزم، وهو بحر السويس. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ يقال: تبعته حتى أتبعته، إذا كان قد سبقك فلحقته. وفي «المختار» تبعه من باب طرب وسلم إذا مشى خلفه أو مر به، فمضى معه، وكذا اتبعه بوزن افتعل الخماسي، وأتبعه على وزن أفعل الرباعي، إذا كان قد سبقه فلحقه. وقال الأخفش: تبعه، وأتبعه بمعنًى مثل ردفه وأردفه ا هـ. ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من المنقادين لأمره.

﴿وننجيك﴾؛ أي: نجعلك على نجوةٍ من الأرض، والنجوة: المكان المرتفع من الأرض، وقرىء بالتشديد من نجى المضعف ينجي تنجية، وبالتخفيف من أنجى الرباعي من باب أفعل ينجي إنجاءً. ﴿آية﴾ والآية: العبرة والعظة ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾؛ أي: منزلاً صالحاً مرضياً، وأصل الصدق: ضد الكذب، ولكن جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، فقالوا: مكان صدق إذا كان كاملاً في صفته، صالحاً للغرض المقصود منه، كأنهم أرادوا أن كل ما يظهر فيه من الخير فهو صادق. ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ والشك في أصل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، ومنه شك الجوهر في العقد، والشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه، فيتردد ويتحير ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ لولا كلمة تفيد التحضيض والتوبيخ كهلّا، والمراد بالقرية أهلها، وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى. ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ والخزي الذل والهوان. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ والحين: مدة من الزمن، والمراد بها العمر الطبيعي الذي يعيشه كل شخص. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والإذن بالشيء: الإعلام بإجازته، والرخصة فيه، ورفع الحجر عنه. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ والرجس لغة: الشيء القبيح المستقذر، والمراد به هنا العذاب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ تأكيداً للأول، وتلذذاً بخطاب الله تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لأن الشد حقيقة في ربط الأجرام بعضها إلى بعض كشد الحبال، شبه قسوة القلوب وتغليظها وعدم لينها للإيمان بشد الأجرام وربطها على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: تكرار المعنى الواحد ثلاث مرات ليقبل إيمانه في قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ﴾ إلخ، فإنه كرر إقراره بالإيمان ثلاث مرات في قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ وفي قوله: ﴿أنه﴾ وفي قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾.

ومنها: الاعتراض التذييلي في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلخ، لأنه كلام معترض جيء به عقب الحكاية تقريراً للكلام المحكي.

ومنها: جناس الاشتقاق بين قوله: ﴿بوأنا﴾ و﴿مبوأ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ لأنه كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة عليهم.

ومنها: التحضيض المضمن للتوبيخ والنفي في قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قَرۡيَةٌ﴾ من باب تسمية الحال باسم المحل لا مجاز بالحذف كما قيل.

ومنها: إيلاء الاسم حرف الاستفهام في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه، وإنما الشأن في المكره من هو، وما هو إلا هو وحده، لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يلقي في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر، اهـ «كرخي».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾؛

أي: المذكورة في قوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: حكاية الأحوال الماضية في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، حيث عبر بالمضارع حكايةً عن الماضي لتهويل أمرها، باستحضار صورتها، وكذلك في قوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ حيث ذكر المضارع بمعنى الماضي.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأدلة على صدقه في رسالته وصحة الدين الذي جاء به وبسطها غاية البسط حتى لم يبق فيها مجال للشك.. أردف[1] ذلك بالأمر بإظهار دينه وبإظهار الفارق بينه وبين ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وبيان أن الذي بيده النفع والضر هو الله الذي خلقهم وبيده تصريف أمورهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما قرر دلائل التوحيد، والنبوة، والمعاد.. ختم السورة بهذا البلاغ للناس كافة بمقتضى البعثة العامة، وهو إجمال لما تقدم من التفصيل فيها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين أرسلناك إليهم، فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا

---

(١) المراغي.

بك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ الذي أنا عليه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته وأنه الدين الحق، الذي لا دين غيره، فاعلموا أني بريء من أديانكم التي أنتم عليها. والتعبير عمّا هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة، للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشك في صحته، وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل إليه، أو المعنى: إن كنتم في شك من ثباتي على ديني فاعلموا أني لا أتركه أبداً، ا هـ «أبو السعود». وإنما حصل[1] الشك لبعضهم في أمره، ﷺ، لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي، ﷺ، فحصل له الاضطراب والشك، فقال: إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، لأنه دين إبراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته، وتعرفونه، ولا تشكون فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في عبادتكم لهذه الأصنام التي لا أصل لها البتة، فإن أصررتم على ما أنتم عليه ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فلا أعبد معكم الأوثان التي تعبدونها من دون الله تعالى في حال من الأحوال، وجواب إن كنتم.. فلا أعبد، والتقدير: فأنا لا أعبد، لأن المنفي بلا، إذا وقع جواباً، انجزم، فإذا دخلت عليه الفاء، علم أنه على إضمار المبتدأ، وكذلك لو ارتفع دون لا، كقوله: ومن عاد، فينتقم الله منه؛ أي: فهو ينتقم الله منه ذكره أبو حيان. وإنما وجب تقديم هذا النفي؛ لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود، فلا تليق لأخس الأشياء، وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها، ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ ويقبض أرواحكم حين انتهاء آجالكم؛ أي: أخصه بالعبادة ولا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها.

وخص[2] صفة المتوفي من بين الصفات، لما في ذلك من التهديد لهم؛ أي: أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابةً في القلوب،

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة، فكأنه قال: أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم. ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله، بين أنه مأمور بالإيمان، فقال: ﴿وَأُمِرْتُ﴾؛ أي: أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المصدقين بما جاء من عنده؛ أي: أمرني بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين.

ومعنى الآية: قل لهم أيها الرسول: إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه، ولم يتبين لكم أنه الحق، فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه لتعلموا أنه لا مدخل فيه للشك، إني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون إلهكم وخالقكم، بل أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إذا شاء، وينفعهم ويضرهم إذا أراد، ومثل هذا هو الحقيق بأن يعبد، وأن يخاف، وأن يتقى، دون من لا يقدر على شيء من ذلك، وفي ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أن مثل هذا الدين لا يشك فيه، وإنما ينبغي أن تشكوا فيما أنتم عليه، من عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، إذ عبادة الخالق لا يستنكرها ذو الفطرة السليمة، أما عبادة الأصنام فيستنكرها كل ذي لب وعقل سليم، وقد أمرت أن أكون من المؤمنين الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه، وبنصرهم على أعدائهم واستخلافهم في الأرض.

وجملة قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ معطوفة[1] على جملة قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر، لأن المقصود من أن الدلالة على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية؛ أي: وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأمرت أن أقيم وجهي للدين القيم، الذي لا عوج فيه حالة كوني ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً من الأديان الباطلة إلى الدين الحق. فحنيفاً، حال من الوجه، أو من الدين، كما سيأتي، وذلك بالتوجه إلى الله وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى شيء سواه، ونحو الآية قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فمن توجه قلبه إلى غيره

---

(١) الشوكاني.

في عبادة من العبادات، ولا سيما مخ العبادة وروحها، وهو الدعاء، فهو عابد له مشرك بالله.

والمعنى: إن الله سبحانه وتعالى أمره بالاستقامة في الدين، والثبات فيه، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال، وخص الوجه، لأنه أشرف الأعضاء أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها.

ثم أكد[١] الأمر المتقدم بالنهي عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، كأرباب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله حجاباً من الوسطاء والأولياء والشفعاء، يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة تصيبهم، والحاجة تستعصي عليهم، ليقضوا لهم حاجتهم، إما بأنفسهم أو بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم، فإن فعلت ذلك كنت من الهالكين، وهذا من باب التعريض لغيره، ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ معطوف[٢] على ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ غير داخل تحت الأمر. وقيل: معطوف على ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾؛ أي: ولا تدع يا محمد من دون الله في حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرك بشيء من النفع والضر إن دعوته، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ضائع لا يفعله عاقل، على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره، فكيف إذا كان موجوداً، فإن العدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأفحش، أي[٣]: ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة لا على سبيل الاشتراك، بوساطة الشفعاء ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ أي: فإن دعوت غيره تعالى ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿إِذًا﴾؛ أي: إذا دعوت غير الله تعالى ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بحرمانها من سعادة الدارين، وهذا جواب الشرط؛ أي: فإن دعوت من دون الله

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

ما لا ينفعك ولا يضرك فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم، والمقصود من هذا الخطاب التعريض بغيره، ﷺ، والمعنى؛ أي: فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت في هذا الحال من الذين ظلموا أنفسهم، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى، فدعاؤه وحده أعظم العبادات، ودعاء غيره شرك وظلم للنفس، لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه، فهو وضع للشيء في غير موضعه.

ثم أكد سبحانه وتعالى المعنى السالف ودحض شبهة الذين يدعون غير الله؛ لأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم وكشف الضر عنهم فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وإن يصبك الله سبحانه وتعالى أيها الإنسان ﴿بِضُرٍّ﴾ كمرض يصيبك، بمخالفة سننه في حفظ الصحة أو نقص في الأموال والثمرات، بأسباب لك فيها عبرة، أو ظلم يقع عليك من غيرك.. ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ ولا رافع ﴿له﴾؛ أي: لذلك الضر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، بل هو المختص بكشفه كما اختص بإنزاله، وقد جعل الله سبحانه للأشياء أسباباً يعرفها خلقه بتجاربهم، ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها. ومعرفة خواص العقاقير التي يتداوى بها، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتي البيوت من الأبواب، ونتوجه إلى الله وحده وندعوه مخلصين له متوكلين عليه.

﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ ربك أيها الإنسان ﴿بِخَيْرٍ﴾؛ أي: برخاء ونعمة وعافية ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ أي: فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين فضله الذي تعلقت به إرادته تعالى، فما شاء كان حتماً، فلا يُرجى خير ولا نفع إلا من فضله، ولا يخاف رد ما يريده فهو ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ أي: بفضله ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بكسب أو بغير كسب، وبسبب ما قدره في السنن العامة، وبغير سبب ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته، بخلاف الضر فإنه لا يقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد، أو العامة في نظام الخلق، كالأمراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية، جهلاً أو تقصيراً، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل، وكثرة الظلم. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب، وأناب من عباده، من كفره وشركه إلى الإيمان به، وطاعته ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به منهم، فلا يعذبه بعد التوبة، ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة، لأهلك الناس جميعاً

بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾. فإن قلت[1]: لِمَ ذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني.

قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا رادَّ لما يريد منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام، بأن ذكر المسّ، وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر، ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد كرر الإصابة في الخير في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلية، ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول مخاطباً جميع الناس من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك ومن ستبلغه عنك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام، المبين لحقيقة هذا الدين، وقد أوحى به إلى رجل منكم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لا لغيره؛ أي: فمنفعة اهتدائه مختصة بها؛ أي: فمن[2] سلك سبيل الحق وصدق بما جاء من عند الله في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإنما فائدة ذلك عائدة إليه؛ لأنه يفوز بالسعادة في دنياه ودينه، وذلك إنما يكون بعمله لا بعمل غيره، ولا بتأثيره بشفاعته أو وساطته.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالإعراض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ أي: فوبال ضلاله مقصور على نفسه لا يتعداها، وليس لله حاجة في شيء من ذلك، ولا غرض يعود إليه؛ أي: ومن اعوج عن الحق الذي أتاه من عند الله وأعرض عن كتابه وعن آياته في الأنفس والآفاق، فإنما وبال ضلاله على نفسه، بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه في الآخرة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بحفيظ يحفظ أموركم، وتوكل إليه، وإنما أنا بشير ونذير، أي: وما أنا بموكل من عند الله بأموركم، ولا بمسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان، وأمنعكم بقوتي من الكفر والعصيان، ولا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، وما أنا إلا رسول مبلغ إليكم أمر ربكم بشير لمن اهتدى، ونذير لمن ضل وغوى، وقد أعذر من أنذر، فلا يجب علي السعي في إيصالكم إلى الثواب.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها الله تعالى له ولأمته، فقال: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾؛ أي[1]: واتبع أيها الرسول وحي الله الذي أنزله إليك في كتابه، واعمل به وعلمه أمتك. ثم أمره بالصبر على أذى الكفار، وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعاينه من تلون أخلاق المشركين وتعجرفهم، وجعل ذلك الصبر ممتداً إلى حكمه بينه وبينهم، فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على ما يصيبك من الأذى والمكاره، وعلى ما ينالك من قومك ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: حتى يقضي الله بينك وبين المكذبين لك، وينجز لك ما وعدك؛ أي: حتى يحكم الله سبحانه وتعالى بينك وبينهم، في الدنيا بالنصر لك عليهم، وفي الآخرة بعذابهم بالنار، وهم يشاهدونه، ﷺ، هو وأمته المتبعون له المؤمنون به، العاملون بما يأمرهم به، المنتهون عما ينهاهم عنه، يتقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه، ولا يوقف على أدنى مزاياه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: خير القاضين وأعدل الفاصلين، فهو لا يحكم إلا بالحق، وغيره قد يحكم بالباطل، إما لجهله بالحق، أو مخالفته له باتباع الهوى، وقد امتثل رسوله أمر ربه وصبر حتى حكم الله بينه وبين قومه، وأنجز وعده له، ﷺ، ولمن اتبعه من المؤمنين، فاستخلفهم في الأرض وجعلهم الأئمة الوارثين ما أقاموا الدين. ولا يخفى ما في هذه الآيات من التسلية لنبيه ووعده للمؤمنين ووعيده للكافرين. وأنشد[2] بعضهم في الصبر شعراً فقال:

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

سَأَصْبِرُ حَتَّىٰ يَعْجَزَ ٱلصَّبْرُ عَنْ صَبْرِيْ   وَأَصْبِرُ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ فِيْ أَمْرِيْ
سَأَصْبِرُ حَتَّىٰ يَعْلَمَ ٱلصَّبْرُ أَنَّنِيْ   صَبَرْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ أَمَرَّ مِنَ ٱلصَّبْرِ

الإعراب

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لأي وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾؛ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فِي شَكٍّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِّن دِينِي﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿شَكٍّ﴾ ﴿فَلَآ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية ﴿لا﴾ نافية ﴿أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿وَلَٰكِنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. لكن حرف استدراك. ﴿أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿ٱلَّذِي﴾ اسم موصول في محل النصب صفة الجلالة. ﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿وَأُمِرْتُ﴾ فعل ونائب فاعل والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِن﴾ الشرطية. ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ ناصب وفعل ناقص واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبر أكون صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأمرت بكوني من المؤمنين.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَأَنْ﴾: الواو: عاطفة ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَقِمْ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه نائب فاعل لفعل محذوف، تقديره، وأوحي إليّ قيام وجهي للدين، والجملة المحذوفة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أمرت﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿لِلدِّينِ﴾؛ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَقِمْ﴾ ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الفاعل المستتر في ﴿أَقِمْ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من المفعول، أو من ﴿الدين﴾ ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ ﴿لا﴾ مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خبر ﴿تكون﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقِمْ﴾ على كونه فاعلاً لفعل محذوف، والتقدير: وأوحي إليّ قيام وجهي للدين وعدم كوني من المشركين.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة (لا): ناهية جازمة. ﴿تَدْعُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما في «أبي السعود»، ويجوز أن تكون مستأنفة كما في «السمين» ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿تدع﴾ ﴿لَا يَنفَعُكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ معطوف عليه والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها.

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت نهينا لك عن دعاء ما لا ينفع ولا يضر، وأردت بيان حكم ما إذا فعلت ذلك.. فأقول لك ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿فَعَلْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿فَإِنَّكَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية. ﴿إنك﴾ ناصب واسمه ﴿إِذًا﴾ حرف جواب توسطت بين اسم ﴿إِنَّ﴾

وخبرها ورتبتها التأخر عن الخبر، وإنما توسطت رعايةً للفواصل، ا هـ «كرخي» ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر إن وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِن﴾: الواو: استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿بِضُرٍّ﴾: متعلق به ﴿فَلَا﴾ الفاء رابطة. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن ﴿ كَاشِفَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لا﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر لا المحذوف، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يُرِدْكَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِخَيْرٍ﴾ متعلق به ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ الفاء رابطة. ﴿لا﴾: نافية ﴿راد﴾: في محل النصب اسمها ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾. جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وخبر ﴿لا﴾ محذوف جوازاً تقديره: فلا راد لفضله موجود، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿يُصِيبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ ومفعول المشيئة محذوف، تقديره يشاءه، وهو عائد على ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ حال من الضمير المحذوف من ﴿مَن﴾ الموصولة وجملة ﴿يشاء﴾ صلة من الموصولة وجملة ﴿يصيب﴾ في محل النصب حال من ضمير ﴿فضلِهِ﴾. ﴿وَهُوَ﴾. مبتدأ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبر أول ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثانٍ. والجملة الاسمية

معترضة تذييله.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفة لأي، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿جاء﴾ أو حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿فَمَنِ﴾: الفاء: حرف عطف وتفصيل. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿إنما﴾: أداة حصر ونفي. ﴿يَهْتَدِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يَهْتَدِى﴾ في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿يَضِلُّ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية. ﴿أَنَا﴾: في محل الرفع اسمها أو مبتدأ. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿بوكيل﴾.

﴿بِوَكِيلٍ﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية منصوب بفتحة مقدرة، أو خبر المبتدأ مرفوع بضمة مقدرة، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية أو المبتدأ والخبر في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الشرطية على كونها مقول القول.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَاتَّبِعْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿قُلْ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾؛ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿وَاصْبِرْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿وَاتَّبِعْ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى الجار والمجرور متعلق باصبر والتقدير واصبر إلى حكم الله تعالى بينك وبينهم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب حال من الجلالة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي شَكٍّ﴾ والشك: إدراك الطرفين على السواء، والظن: إدراك الطرف الراجح، والتوهم: إدراك الطرف المرجوح، وهو مصدر شك يشك، من باب شد، والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب، هو الشك في صحته، وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل إليه، كما مر ذكره عن «أبي السعود». ﴿مِّن دِينِى﴾ والدين لغةً: ما يتدين به الشخص، باطلاً كان، أو حقاً، وشرعاً ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان رسوله، ﷺ، من العقائد والأحكام. ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾؛ أي: اصرف وَوَجِّهْ وجهك؛ أي: ذاتك بكليتها للدين؛ أي: إلى الدين. ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لعله ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر، مع تلازم الأمرين، للتنبيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول. ﴿وَاصْبِرْ﴾ والصبر: حبس النفس على الشدائد والمشقات وتجرعها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: إطلاق الجزء وإرادة الكل، في قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾، أي: اصرف وَوَجِّهْ ذاتك.

ومنها: الطباق بين ﴿ينفعك﴾ و﴿يضرك﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿اهتدى﴾ و﴿يهتدى﴾، وبين ﴿ضل﴾ و﴿يضل﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾؛ أي: دعوت ﴿فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الفعل هنا كناية عن القول والدعاء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة هود عليه السلام

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: هي مكية إلا آيةً، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ الآية. وقال مقاتل[1]: هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾. وهي: مئة وثلاث وعشرون آيةً، وألف وسبع مئة وخمس وعشرون كلمةً، وتسعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفاً. وسميت السورة باسم هود لذكره فيها، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن عم أبي عاد، ا هـ «بيضاوي».

ومن فضائلها: ما أخرجه[2] الدارمي وأبو داود في «مراسيله»، وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر والبيهقي في «الشعب» عن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ «اقرؤوا هود يوم الجمعة».

وأخرج ابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر، من طريق مسروق عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب، فقال: «شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتسألون، وإذا الشمس كورت». وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعاً بلفظ، قلت: يا رسول الله، عجل إليك الشيب قال: «شيبتني هود وأخواتها، والواقعة، والحاقة، وعم يتسألون، وهل أتاك حديث الغاشية».

قال بعض العلماء[3]: سبب شيبه ﷺ من هذه السور المذكورة في

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) الخازن.

الحديث، لما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار، وما فعل بالأمم السابقة، والله أعلم بمراده ﷺ.

الناسخ والمنسوخ: وقال[1] أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: سورة هود فيها من المنسوخ ثلاث آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية (١٥) نسخت بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية (١٨).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ الآية (١٢١) نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الآية (١٢٢) منسوخة بآية السيف أيضاً.

المناسبة: مناسبة هذه السورة لما قبلها[2]: أنها تضمنت ما تضمنته سورة يونس، من أصول الإسلام، وهي التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء.

وفصل فيها ما أجمل في سابقتها، من قصص الرسل عليهم السلام، وهي مناسبة لها في فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة في أثنائها، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد ﴿الٓر﴾ وذكر رسالة النبي، المبلغ عن ربه، وبيان أنَّ وظيفة الرسول إنما هي التبشير والإنذار، وفي أثنائهما ذكر التحدِّي بالقرآن والرد على الذين زعموا، أن الرسول، ﷺ، قد افتراه ومحاجة المشركين في أصول الدين، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول، ﷺ، ثم أمر الرسول، ﷺ، في الأولى بالصبر، حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي الثانية بانتظار هذا الحكم منه تعالى، مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه. وعلى الجملة فقد أجمل في كل منهما، ما فصل في الأخرى، مع فوائد انفردت بها كل منهما، فقد

---

(١) كتاب الناسخ والمنسوخ.

(٢) المراغي.

اتفقتا موضوعاً في الأكثر واختلفتا نظماً وأسلوباً، مما لا مجال للشك في أنهما من كلام الرحمن، الذي علم الإنسان البيان.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنهم إن أعرضوا، حاق بهم عذاب يوم كبير.. بين في هذه الآية حالهم وصفتهم العجيبة الدالة على إعراض الحيرة والعجز ومنتهى الجهل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ...﴾ سبب نزولها ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: كان أناس يستحيون أن ينخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ألر﴾ قيل: إنها حروف مقطعة من أوائل الأسماء، فمعناها: أنا الله الرحمن، وقيل: إنها اسم للسورة، وقيل[١]: إنها حرف تنبيه، كألا، وتقرأ[٢] كأسمائها ساكنةً فيقال: ﴿ألف لام راء﴾ وقيل معناه: أنا الله أرى. والراجح الأسلم من الأقوال الجارية في أمثال هذه، تفويض علمها إلى الله تعالى. هذا

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

القرآن ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن جليل القدر ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي[1]: صارت آياته محكمة متقنةً لا نقص فيها ولا نقض لها، كالبناء المحكم من الإحكام، أي: الإتقان ففعله متعد، والمعنى أتقنت آياته لفظاً ومعنى، فلا يحيط بمعنى آيات القرآن غيره تعالى ولم يوجد تركيب بديع الصنع، عديم النظير، نظير القرآن. وقيل معناه: إنها لم تنسخ، بخلاف التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، وهو المحكم الذي لم ينسخ. وقيل معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقيل: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام. وقيل: أحكمت جملته ثم فصلت آياته. وقيل: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ وجمعت في اللوح المحفوظ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوحي. وقيل: أحكمها الله تعالى، فليس فيها تناقض، ثم فصلها وبينها. وقيل: أحكمت آياته لفظاً ونظمت نظماً رائقاً بليغاً، ثم فصلت معنى، وبينت وفسرت.

فإن قلت[2]: كيف عم الآيات هنا بالإحكام، وخص بعضها بالإحكام في قوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾؟

قلتُ: إن الإحكام الذي عم به هنا، غير الذي خص به هناك، فمعنى الإحكام العام هنا أنه لا يتطرق إلى آياته التناقض والفساد، كإحكام البناء، فإن هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه. والمراد بالإحكام الخاص المذكور في قوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أن بعض آياته منسوخة؛ نسخها بآيات منه أيضاً لم ينسخها غيره. وقيل: أحكمت آياته؛ أي: معظم آياته محكمة، وإن كان قد دخل النسخ على البعض، فأجري الكل على البعض؛ لأن الحكم للغالب وإجراء الكل على البعض مستعمل في كلامه، تقول: أكلت طعام زيد، وإنما أكلت بعضه. والتراخي المستفاد من ﴿ثُمَّ﴾ إما زماني إن فسر التفصيل بالتنجيم بحسب النزول؛ لأنها أحكمت أولاً حين نزلت جملة واحدة، ثم فصلت ثانياً على حسب المصالح والوقائع، وإما رتبي إن فسر بغيره مما تقدم.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى ثُمَّ؟

قلتُ: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن معناها التراخي في الأخبار، كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، انتهى. يعني: إن ثم جاءت لترتيب الأخبار، لا لترتيب الوقوع في الزمان، والمعنى: أخبرنا الله بأن القرآن محكم أحسن الأحكام، مفصل أحسن التفصيل. وقرأ[1] عكرمة والضحاك والجحدري وزيد بن علي وابن كثير في رواية: ﴿ثم فصلت﴾ بفتحتين خفيفة على لزوم الفعل للآيات. قال صاحب «اللوامح»: يعني انفصلت وصدرت. وقال ابن عطية فصلت بين المحق والمبطل من الناس. قال الزمخشري وقرىء ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾، على بناء الفعل للمتكلم المعلوم؛ أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ لف ونشر مرتب؛ أي: كتاب أحكمت آياته من عند حكيم في جميع أفعاله، ثم فصلت من عند خبير بأحوال عباده وما يصلحهم، عالم بمواقع الأمور، والمعنى: أحكمها حكيم وفصلها خبير؛ أي: شرحها وبينها.

ومعنى الآية[2]: أي هذا كتاب عظيم الشأن، جليل القدر، جعلت آياته محكمة النظم والتأليف، واضحة المعاني، لا تقبل شكاً ولا تأويلاً ولا تبديلاً، كأنها الحصن المنيع الذي لا يتطرق إليه خلل، وجعلت فصولا متفرقة في سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ، وجميع ما أنزل له الكتاب من الحكم والفوائد، فكأنها العقد المفصل بالفرائد، ولا عجب فقد أنزلت من لدن حكيم يقدر حاجة عباده، ويعطيهم ما فيه الخير لهم، خبير بعواقب ذلك ومصادره وموارده.

والأحسن[3] في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أن تكون أن تفسيرية لوجود ضابطها، وهو تقدم جملة فيها معنى القول دون حروفه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ويصح أن تكون مصدرية بتقدير الجار؛ أي: هذا كتاب أحكمت آياته وفصلت بأن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

لا تعبدوا إلا الله؛ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له. والمراد بالعبادة، التوحيد وخلع الأنداد والأصنام وما كانوا يعبدون والرجوع إلى الله تعالى وإلى عبادته، والدخول في دين الإسلام وهذا كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾. وقل يا محمد للناس ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من جهة الحكيم الخبير ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: بعذابه إن عبدتم غير الله تعالى ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بثوابه إن تمحضتم في عبادته؛ أي: قل لهم إنني لكم نذير من جهة الله تعالى، أنذركم عقابه إن ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه ﴿وَبَشِيرٌ﴾ منه أبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده، وهذا بيان لوظيفة الرسالة، ومبين لدعوة الرسول، ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ معطوف على ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ والكلام في ﴿أَنِ﴾ هذه كالكلام في التي قبلها. وقوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة، لكونه وسيلة إليها؛ أي: اطلبوا من ربكم ستر ما سلف منكم من الشرك، ثم أقبلوا إليه بالطاعة والإخلاص: لأن الاستغفار هو طلب الغفر، وهو الستر، والتوبة: الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلاف ذلك، فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة. وقيل معناه: استغفروا لسالف ذنوبكم ثم توبوا إليه في المستقبل. وقيل: استغفروا في الصغائر ثم توبوا إليه في الكبائر. وقال الفراء: ثم هنا بمعنى الواو؛ لأن الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد.

والمعنى[1]: واسألوه أن يغفر لكم ما كان منكم من أعمال الشرك والكفر والإجرام، ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون غيره، مما تعبدون من دونه من الأصنام والأوثان.

فإن فعلتم ذلك، واستغفرتم من كل ذنب، وتبتم من الإعراض عن هدايته، وتنكب سننه.. ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في دنياكم ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يطول نفعكم في الدنيا

---

(١) المراغي.

بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق وسعة العيش، فيرزقكم من زينة الدنيا، وينسأ لكم في آجالكم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى الوقت الذي قضى عليكم فيه الموت، وهو العمر المقدر لكم في علمه المكتوب في نظام الخليقة، وسنن الاجتماع البشري في عباده، ولا يقطعه بعذاب الاستئصال، ولا بفساد العمران ولا ينقصه ما ينقص من أدمن على الشرك والمعاصي.

وهذه[١] سنة مطردة في ذنوب الأمم، وهي فيها أظهر من ذنوب الأفراد، فالمشاهد أن الأمم التي تصر على الظلم والفسوق والعصيان يهلكها الله تعالى في الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران، حتى تزول منعتها وتتمزق وحدتها.

ومعنى ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعشكم[٢] عيشاً مرضياً إلى وقت مقدر عند الله تعالى، وهو آخر أعماركم، فمن أخلص لله في القول والعمل.. عاش في أمنٍ من العذاب وراحةٍ مما يخشاه، ومن اشتغل بمحبة الله.. كان انقطاعه عن الخلق أكمل، وسروره أتم؛ لأنه أمن من زوال محبوبه، ومن كان مشتغلاً بحب غير الله.. كان أبداً في ألم الخوف من فوات المحبوب. وقرأ الحسن وابن هرمز وزيد بن علي وابن محيصن ﴿يمتعكم﴾ بالتخفيف من أمتع.

﴿وَيُؤْتِ﴾؛ أي: يعط في الدنيا والآخرة ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في الإسلام والطاعة ﴿فَضْلَهُۥ﴾؛ أي: ثواب فضله وجزاءه؛ أي: وإن[٣] تجتنبوا الشرك، وتؤمنوا بالله وتستغفروه.. يمتعكم متاعاً حسناً، تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة، ويعط كل ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله، أما في الآخرة فهو مطرد دائماً، وأما في الدنيا فقد يكون ناقصاً مشوباً بأكدارٍ، ولا يكون مطرداً لقصر أعمار الأفراد.

فإن قلت[٤]: قد ورد في الحديث، أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله، فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.
(٤) الخازن.

مُّسَمًّى﴾.

قلتُ: أما قوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن» فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم، فإنه في سجن في الدنيا، حتى يفضي إلى ذلك المعد له، وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم، الذي لا ينقطع، فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة. وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات، فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات، فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشةٍ حسنة، لأنه راضٍ عن الله في جميع أحواله. ثم توعدهم سبحانه على مخالفة الأمر فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: وإن تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بموجب الشفقة ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ أي: شديد عذابه، وهو يوم القيامة، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال. وقيل: اليوم الكبير يوم بدر.

والمعنى: وإن توليتم وأعرضتم عما دعوتكم إليه، من عبادة الله وحده، وعدم عبادة غيره فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير الهول شديد البأس، فيصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم، وأصروا على تكذيبهم وعصيانهم، أو قريب منه بعد الرسول والمؤمنين. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبو مجلز وأبو رجاء ﴿وإن تولوا﴾ بضم التاء واللام وفتح الواو مضارع ولّى. والقراءة الأولى مضارع تولّى. وفي كتاب «اللوامح»: وقرأ اليماني وعيسى البصري: ﴿وإن تولوا﴾ بثلاث ضمات مبنياً للمفعول. وقرأ الأعرج: ﴿تولوا﴾ بضم التاء واللام وسكون الواو مضارع أولى. ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالموت ثم البعث ثم الجزاء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾، ومن جملة ذلك تعذيبكم على عدم الامتثال؛ أي[1]: إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم

(١) المراغي.

جميعاً أمماً وأفراداً، لا يتخلف منكم أحد، وحينئذٍ تلقون جزاءكم بالعدل والقسطاس، وهو سبحانه قدير على كل شيء، من إيصال الرزق إليكم في الدنيا، وثوابكم وعقابكم في الآخرة، وهذه الجملة مقررة لما قبلها.

ثم أخبر[1] الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجح فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرون على العناد مصممون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، وأنه ينبغي أن يتنبه له العقلاء ويفهموه: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبه يا محمد ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء الكفار الكارهين لدعوة التوحيد ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر، كما هو دأب المنافقين ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾؛ أي: ليختفوا من الله سبحانه وتعالى فلا يطلع عليه رسوله ولا المؤمنين، أو ليستخفوا من رسول الله، ﷺ، ثم كرر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي: انتبه يا محمد إنهم يستخفون منه في وقت استغشاء الثياب والتغطية بها، وقد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد.. فمن يعلم بنا. وقيل معنى: حين يستغشون: حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون ثيابهم. وقيل: إنه حقيقة، وذلك إن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله، ﷺ، ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه، لئلا يسمع كلام رسول الله، ﷺ. والعامل في قوله: ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ﴾ مقدر وهو يستخفون، ويجوز أن يكون ظرفاً ليعلم؛ أي: ألا يعلم سرهم وعلنهم حين يفعلون كذا، وهذا معنى واضح ذكره في «الفتوحات»؛ أي: تنبه[2] يا محمد إن الكفار يضمرون خلاف ما يظهرون ليستخفوا من الله تعالى حين يغطون رؤوسهم بثيابهم للاستخفاء. عن ابن عباس إن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق وأصحابه، من منافقي مكة، وكان رجلاً حلو المنطق، حسن المنظر، يظهر لرسول الله، ﷺ، المحبة، ويضمر في قلبه العداوة.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

ومعنى الآية[1]: أي إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رؤوسهم، كأنهم يحاولون طي صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن، ليستخفوا منه، ﷺ، حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رؤوسهم. روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد، قال: كان أحدهم إذا مر بالنبي، ﷺ، ثنى صدره كيلا يراه أحد.

وجملة ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء؛ لأن الله تعالى يعلم ما يسرونه في قلوبهم، أو في ذات بينهم وما يظهرونه بأفواههم، فالظاهر والباطن عنده سواء، والسر والجهر سيان. وجملة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبلها وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور. وقيل: هي القلوب، والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر، أو عليم بالقلوب وأحوالها في الإظهار والإسرار، فلا يخفى عليه شيء من ذلك. والأوضح كما مر، أن يكون الظرف متعلقاً بـ ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ أي[2]: إن ثني صدورهم وتنكيس رؤوسهم، ليستخفوا من الداعي لهم إلى توحيد ربهم، لا يغني عنهم شيئاً، فإن ربهم يعلم ما يسرون ليلاً، حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم، ثم ما يلعنون نهاراً، إنه سبحانه وتعالى عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب، فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون في صدوركم الشك في شيء من توحيده أو أمره أو نهيه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يَثۡنُونَ﴾ بفتح الياء وضم النون، من ثنى يثني من باب رمى. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿يثنون﴾ بضم الياء، مضارع أثنى الرباعي ﴿صُدُورَهُمۡ﴾ بالنصب ولا يعرف في اللغة إلا أن يقال معناه: عرضوها للإثناء، كما تقول: أبعت الفرس إذا عرضته للبيع. وقرأ ابن عباس وعلي بن الحسين وابناه، زيد ومحمد، وابنه جعفر ومجاهد وابن يعمر ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن أبزى والجحدري وابن أبي إسحاق وأبو الأسود الدؤلي وأبو رزين والضحاك؛

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط والعكبري.

﴿تثنوني﴾ بالتاء، مضارع اثنوني، على وزن افعوعل نحو: اعشوشب المكان صدورهم، بالرفع بمعنى: تنطوي صدورهم. وقرأ أيضاً ابن عباس ومجاهد وابن يعمر وابن أبي إسحاق: ﴿يثنوني﴾ بالياء، ﴿صدورهم﴾ بالرفع ذكر على معنى الجمع دون الجماعة. وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿ليثنون﴾ بلام التأكيد في خبر إن وحذف الياء تخفيفاً لطول الكلمة، ﴿وصدورهم﴾ بالرفع. وقرأ ابن عباس أيضاً وعروة وابن أبي أبزى والأعشى ﴿يثنون﴾ بياء مفتوحة وسكون الثاء ونون مفتوحة، بوزن يفعوعل من أأثن بني منه افعوعل، وهو ماهش وضعف من الكلأ، وأصله يثنونن، يريد: مطاوعة نفوسهم للشيء كما ينثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، ﴿صدورهم﴾ بالرفع. وقرأ عروة ومجاهد أيضاً كذلك إلا أنه همز فقرأ: ﴿يثنئن﴾ بوزن يطمئن، ﴿وصدورهم﴾ بالرفع. وقرأ الأعشى: ﴿يثنؤن﴾ بوزن يفعلون مهموز اللام، ﴿صدورهم﴾ بالنصب. قال صاحب «اللوامح»: ولا أعرف له وجهاً؛ لأنه يقال: ثنيت، ولم أسمع ثنأت، ويجوز أنه قلب الياء ألفاً، على لغة من يقول أعطأت في أعطيت، ثم همز على لغة من يقول ولا الضألين. وقرأ ابن عباس: ﴿يثنوي﴾ بتقديم الثاء على النون وبغير نون بعد الواو على وزن ترعوى. قال أبو حاتم: وهذه القراءة غلط لا تتجه، انتهى. وقرأ نصر بن عاصم وابن يعمر وابن أبي إسحاق: ﴿ينثون﴾ بتقديم النون على الثاء، فهذه عشر قراءات في هذه الكلمة. وقرأ ابن عباس: ﴿على حين يستغشون﴾. قال ابن عطية: ومن هذا الاستعمال قول النابغة:

عَلَىٰ حِيْنَ عَاتَبْتُ ٱلْمَشِيْبَ عَلَىٰ ٱلصِّبَا   وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَٱلشَّيْبُ وَازِعُ؟!

الاعراب

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

﴿الٓر﴾: إن كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور.. فلا محل له، وإن كان اسماً للسورة فهو في محل رفع على أنه مبتدأ، خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا الآتي سورة الٓر، وعلة بنائه شبهه بالحرف شبهاً وضعياً و ﴿كِتَٰبٌ﴾ يكون على هذا الوجه خبراً لمبتدأ محذوف،

أي: هذا كتاب وكذا على تقدير أن ﴿الٓر﴾ لا محل له. ويجوز أن يكون ﴿الٓر﴾ في محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام، نحو: اذكر أو اقرأ فيكون ﴿كِتَٰبٌ﴾ على هذا الوجه خبر مبتدإٍ محذوف، تقديره: هذا كتاب والإشارة في المبتدأ المقدر، إما إلى بعض القرآن، أو إلى مجموع القرآن، والجملة من المبتدأ المقدر وخبره مستأنفة. ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿ثم﴾ حرف عطف. ﴿فُصِّلَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أُحْكِمَتْ﴾ على كونها صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿فُصِّلَتْ﴾ أو هو من باب التنازع، أو صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف. ﴿خَبِيرٍ﴾ صفة ﴿حَكِيمٍ﴾.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

﴿أن﴾: مصدرية. ﴿لَّآ﴾ ناهية ﴿تَعْبُدُوٓا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَّآ﴾ الناهية. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به منصوب، والجملة الفعلية في محل النصب بـ ﴿أن﴾ المصدرية وجملة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فصلت آياته لترك عبادة غير الله تعالى، أو فصلت بترك عبادة غير الله، ويجوز أن تكون ﴿أن﴾ تفسيرية؛ لأن في تفصيل الكتاب معنى القول، فكأنه قيل: قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا، إلخ وهذا أظهر الأوجه الجارية فيها؛ لأنه لا يحتاج إلى إضمار ذكره في «الفتوحات» ﴿إِنَّنِى﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب والنون نون الوقاية؛ لأنها تقي حركة بناء الحرف والياء ضمير المتكلم اسمها. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق بكل من ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور حال منهما؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿وَبَشِيرٌ﴾ معطوف عليه وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ عطف علة على أخرى. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ فهو علة ثالثة. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿ثُمَّ﴾ هنا على بابها من التراخي؛ لأنه يستغفر أولاً، ثم يتوب ويرجع إلى طاعته، ويتجرد من ذلك الذنب المستغفر منه ﴿يُمَتِّعْكُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿مَّتَٰعًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿حَسَنًا﴾: صفة له وهذا مرتب على قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ والجملة الفعلية جواب الطلب، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿يمتع﴾ ﴿وَيُؤْتِ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يمتع﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وهذا مرتب على قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ كما في «الجمل». ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾: مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿فَضْلَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ، لأن آتى هنا بمعنى: أعطى. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية؛ لأن أصله تتولوا بتاءين، والواو فاعله. ﴿فَإِنِّىٓ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إني﴾ ناصب واسمه ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿كَبِيرٍ﴾ صفة لـ ﴿يَوْمٍ﴾ وقيل: صفة لـ ﴿عَذَابَ﴾ فهو منصوب، وإنما خفض على الجوار، كقولهم: هذا جحر ضب خرب، بجر خرب، وهو صفة لجحر، ا هـ «سمين». وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة في محل النصب حال من الجلالة، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الخبر.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ

وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة ﴿يَثْنُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿يستخفوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لاستخفائهم منه الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَثْنُونَ﴾. ﴿ألاَ﴾: حرف تنبيه كررت للتأكيد. ﴿حِينَ﴾ منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿يستخفوا﴾ أو متعلق بـ﴿يَعْلَمُ﴾ الآتي، وهو أوضح كما مر ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة مستأنفة. ﴿يُسِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: يعلم ما يسرونه. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾: معطوف على ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌۢ﴾ خبره ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بعليم وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ماض مبني للمجهول، من أحكم الرباعي يحكم إحكاماً، إذا أتقنه، وإحكام البناء كالقصر والحصن: إتقانه حتى لا يقع فيه خلل. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ مبني للمجهول أيضاً، من فصّل المضعف، يفصل تفصيلاً، وتفصيل العقد بالفرائد: جعل خرزة أو مرجانة بلون بين كل خرزتين من لون آخر. وفي «السمين» قوله: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ الهمزة فيه يجوز أن تكون للنقل من حكم بضم الكاف؛ أي: صار حكيماً بمعنى: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ويجوز أن يكون من قولهم: أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لمنعها من الجماح، فالمعنى: إنها منعت من الفساد، ويجوز أن تكون لغير النقل من الإحكام، وهو الإتقان، كالبناء المحكم المرصف والمعنى: إنها نظمت نظماً رصيفاً متقناً، اهـ.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ ﴿أَلَّا﴾ هذه[1] تكتب موصولة: أي: لا يفصل بين الألف ولا النافية بالنون، كما ذكره ابن الجزري، فصنيع الشارح السيوطي معترض حيث أنه أثبت نوناً حمراء، حيث قال: أن فأثبت الألف والنون بالحمرة، فيقتضي أن النون من رسم القرآن، فكان عليه أن يقول: ﴿ألا﴾ بقلم الحمرة ثم يقول؛ أي: بأن لا بإثبات النون في التفسير. وعبارة ابن الجزري مع شرحها لشيخ الإسلام: فاقطع بعشر كلمات يعني فاقطع كلمة ﴿أَن﴾ الناصبة للاسم أو للفعل، بأن ترسمها مقطوعة عن لا النافية في عشرة مواضع وهي: ﴿أَن لَّآ﴾ مع ملجأ في سورة التوبة و ﴿أن لا إله إلا هو﴾ في سورة هود و ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ في الموضع الثاني من سورة هود، بخلافه في أولها وهو ما هنا فإنه موصول، ا هـ.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ والظاهر أن ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ مضارع حذف منه التاء أي: وإن تتولوا؛ لأنه من باب، تفعل الخماسي. ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ مضارع، متع المضعف يمتع تمتيعاً إذا أنعم، والمتاع اسم مصدر لمتع، والمتاع كل ما ينتفع به في المعيشة، وحاجة البيوت ومواعينه، والإمتاع أصله: الإطالة ومنه: أمتع الله بك؛ أي: يعيشكم معيشة طيبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ والأجل المسمى: هو العمر المقدر ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ من آتى الرباعي يؤتي إيتاءً، إذا أعطى، فهو يتعدى إلى مفعولين. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ والمرجع مصدر ميمي؛ من رجع فهو بمعنى الرجوع ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ثنى الشيء: عطف بعضه على بعض، فطواه وإثناء الثوب إطواؤه، وثناه عنه: لواه وحوله؛ وثناه عليه: أطبقه وطواه، ليخفيه فيه، وثنى عنانه عنّي: تحول وأعرض، وأصل ﴿يَثْنُونَ﴾ يثنيون[2]؛ لأنه من ثنى يثني ثنياً من باب رمى يرمي رمياً، فالمصدر الثني نقلت ضمة الياء إلى النون قبلها، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، فوزنه يفعون كيرمون؛ لأن الياء المحذوفة هي لام الكلمة. ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ والاستخفاء محاولة الخفاء، والمعنى: أنهم يفعلون ثني الصدر لهذه العلة، ا هـ «سمين». ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ

---

(١) الفتوحات.
(٢) الفتوحات.

﴿ثِيَابَهُمْ﴾ واستغشى الثوب: إذا تغطى به، كما قال حكايةً عن نوح، عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ والمعنى: يتغطون بها للاستخفاء. وفي «القاموس»: واستغشى ثوبه: تغطى به كي لا يسمع ولا يرى.

البلاغة

تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة:

منها: جناس الاشتقاق بين قوله: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ لأن المعنى أحكمها وفصلها خبير، كما في «الشوكاني».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ لأن ثني الصدور كناية عن الإعراض.

ومنها: إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتهويل والتفظيع.

ومنها: الطباق بين ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) انتهى المجلد الثاني عشر ويليه المجلد الثالث عشر بإذن الله تعالى.

شعر

الـعَـبْـدُ ذُو ضَـجَـرٍ والـربُّ ذُو قـدَرٍ   والـدَّهْـرُ ذُو دُوَلٍ والـعِـلْـمُ مَـقْـسُـوم
والـخَـيْرُ أجْـمعُ فيـما اخْـتار خالِقُنَا   وفـي اخـتـيـار سـواه الـلُّـومُ والـشُّـوم

آخر

فَـلَـيْـتَـكَ تَـحْـلُـو والـحـيـاةُ مَـرِيْـرَةٌ   وَلَـيْـتَـكَ تَـرْضَـى والأنـامُ غِـضَـابُ
ولَـيْـتَ الـذي بَـيْـنِـي وبَـيْـنَـكَ عَـامِـرٌ   وبَـيْـنـي وبَـيْـنَ الـعَـالَـمِـيـن خَـرَابُ

آخر

فَـزادِي قَـلِـيـلٌ مـا أُراه مُـبـلِّـغـي   علـى الزادِ أبكي أم لِبُعْـدِ مَـسـافَـتي
أتَـيْـتُ بـأعـمـالٍ قِـبَـاحٍ رَدِيـئَـةٍ   وَمَا في الـوَرى خَلْـقٌ جَنَى كَجِنَايتي

الفهرس